



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة
الدراسات العليا

التوكل على الله في القرآن الكريم

((دراسة في التفسير الموضوعي))

((رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير))

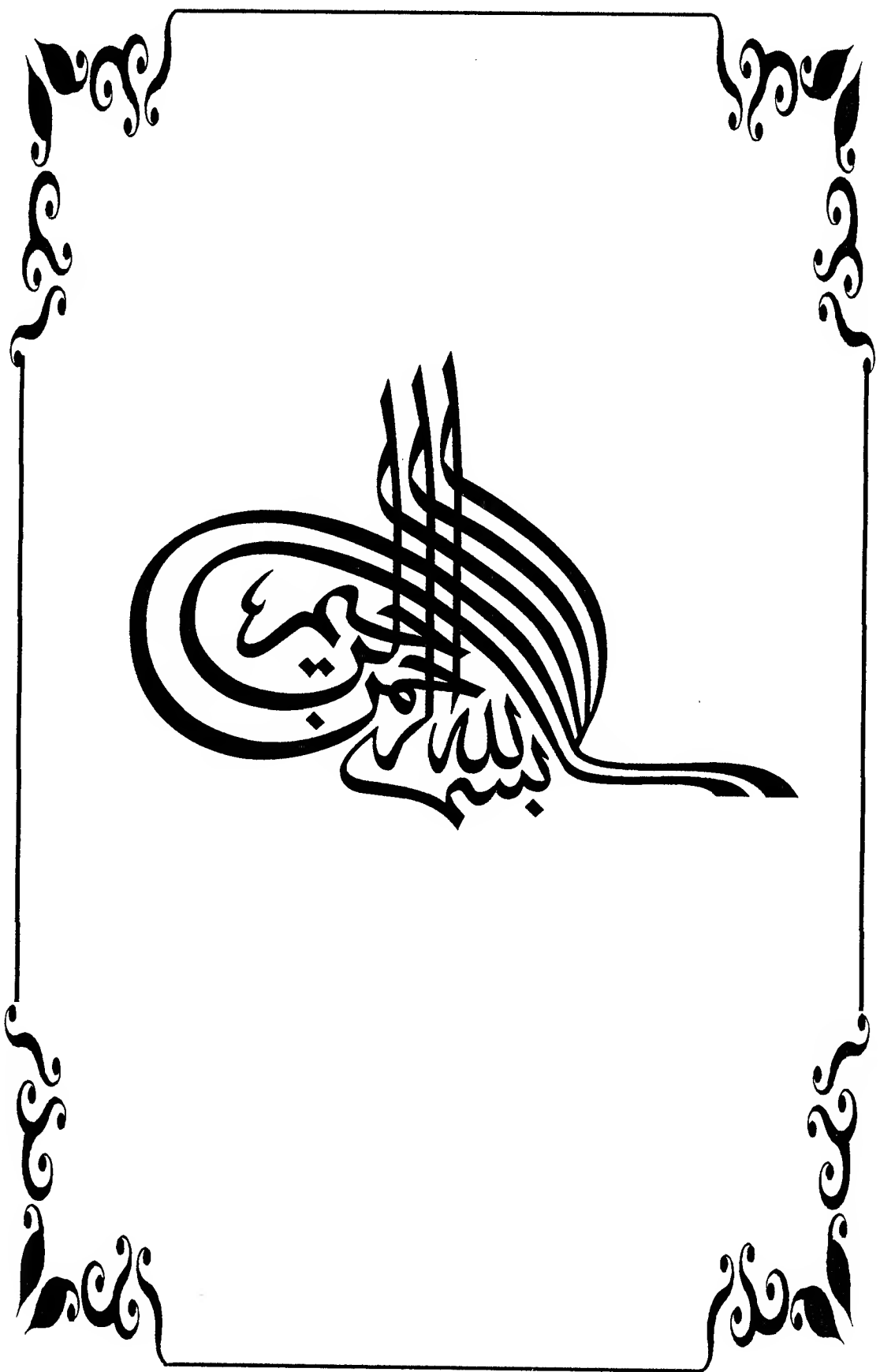
إعداد الطالبة

معتوقة بنت محمد حسن بن زيد بن حسان الحساني

إشراف فضيلة الدكتور/

عبد الحميد عمر الأمين

العام الدراسي ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م



محتويات الملخص

الحمد لله العظيم والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذا بحث مقدم لنيل درجة الماجستير ، وهو بعنوان " التوكل على الله في القرآن الكريم دراسة في التفسير الموضوعي " ، والهدف منه هو معرفة خلق من أخلاق القرآن الكريم ومدى أثره في العقيدة والنفس المؤمنة وارتباطه في كل عمل وعبادة دنيوية أو أخروية .

وتتكون الرسالة من مقدمة وتمهيد وفصول سبعة ، وخاتمة ، ففي المقدمة تحدثت عن أسباب اختيار الموضوع وأهميته وخطة البحث ومنهجية البحث .

وفي التمهيد ذكرت تعريف التوكل ، والتوكل ، وموارد التوكل في القرآن والسنة ، وذكرت الفرق بين التوكل والتوكل ، وذكرت أيضا فضل التوكل على الله وآثار التوكل السلبي على الفرد والمجتمع .

وبعد التمهيد تأتي الفصول السبعة ، التي تضمنت :

الأول: تضمن الحديث عن التوكل على الله وعلاقته بالإيمان .

والثاني: تضمن الحديث عن التوكل على الله وعلاقته بالجانب الأخلاقي .

والثالث: تضمن الحديث عن التوكل على الله وعلاقته بالأسباب .

والرابع: تضمن الحديث عن بواعث التوكل على الله .

والخامس: تضمن الحديث عن موانع التوكل على الله .

والسادس: تضمن الحديث عن ثمرات التوكل على الله .

والسابع: تضمن الحديث عن التوكل على الله وأثره في تربية الفرد وبناء المجتمع ، وفي جميع الفصول السابقة كانت هناك مباحث معنونة تقيد موضوع وعنوان الفصل .

أما الخاتمة فذكرت فيها النتائج التي توصلت إليها ، ومنها :

- ١ - إن التوكل على الله خلق عظيم يجدر بنا الحفاظ عليه والتمسك به في كل مجال من مجالات حياتنا ويكون نبراس طريقنا للمضي في هذه الحياة الدنيا .
 - ٢ - يتضح لنا من خلال هذا البحث أن التوكل على الله عقيدة وخلق في نفس الوقت للمؤمن .
 - ٣ - التوكل على الله له فضل عظيم لمن التزم به وتأتي ثمراته عاجلا أو آجلا .
- وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

عميد الكلية

المشرف

الطالبة

١٠٢٨

د. عبد الحميد عمر الأمين

معتوقة محمد حسن زيد حسان الحساني

معتوقة محمد حسن زيد حسان الحساني

الدراسات السابقة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد :
فكما أن التوكل على الله من الموضوعات المهمة في حياة المؤمن ؛ كذلك فإن من يتصدى للبحث العلمي بحاجة إلى من يعينه على مشاقه . وقد تناول موضوع التوكل على الله جماعة من المتقدمين والمتأخرين ، ومن هؤلاء من جعله بابا في كتاب ، ومنهم من جعله مؤلفا خاصا . ومن المتقدمين :

١ - الحافظ ابن أبي الدنيا وكتابه (التوكل على الله)

٢ - الحارث بن أسد المحاسبي وكتابه (المكاسب والرزق الحلال وحقيقة التوكل على الله)

٣ - الحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي في كتابه (تليس إبليس)

٤ - الحافظ المقدسي في كتابه (مختصر منهاج القاصدين)

٥ - الإمام محمد أبو حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين)

أما المؤلفات الحديثة التي تناولت الموضوع ، فمنها كتب و مقالات ، ودراسات علمية ومن هذه

الأخيرة :

١ - رسالة دكتوراه للأستاذ سالم بن محمد القرني الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

بكلية الشريعة وأصول الدين بالجنوب ، هي بعنوان (التوكل على الله حقيقته - منزلته - فضله - خصائصه - وثمراته)

٢ - رسالة ماجستير للأستاذة منيرة محمد المطلق المعيدة بكلية التربية بالرياض قسم الدراسات الإسلامية

والقرآنية . هي بعنوان (التوكل على الله وعلاقته بالأسباب وموقف الطوائف الإسلامية من ذلك)

ومن المؤلفات :

١ - كتاب (التوكل على الله) للدكتور عبدا لله بن عمر ا لدميجي عميد كلية الدعوة وأصول الدين

بأم القرى .

٢ - كتاب (التوكل على الله) للدكتور يوسف القرضاوي .

٣ - كتاب (التوكل على الله وأثره في حياة المسلم) للدكتور عبد الله بن الجار الله .

والمستبع لتلك الدراسات العلمية يجدها تتجه للجانب العقدي منها وإيراد للأحاديث التي جاءت في معنى التوكل أو عن التوكل ذاته . وأما بالنسبة للدراسة التي قمت بها ، فقد اتجهت الى منحى آخر ألا وهو الاتجاه التفسيري الجديد لموضوعات القرآن الكريم الذي احتوى على :

أولا - لون جديد من التفسير للقرآن حسب الموضوعات التي اشتمل عليها ، وهو ليس تفسيرا بالمعنى

الاصطلاحي المؤلف ، بل هو جمع للآيات الواردة في الموضوع من مختلف سور القرآن ، ثم تصنيفها ،

والاستنباط منها ، أو التعقيب عليها ، وقد عرفنا منها نموذجا في القديم يتمثل في كتاب (التبيان في أقسام

للقرآن للإمام ابن القيم • وأرى والله أعلم أن هذا اللون من التفاسير القرآنية جد نافع ، وخاصة في عصرنا ولا يغنى عنه وجود التفاسير الكاملة للقرآن كله للقرآن على النسق المؤلف ، فيصبح على القارئ لموضوعات القرآن أن يجد الموضوع والآيات القرآنية كلها مجتمعة في مؤلف واحد ، مفسرة مبينة المعاني •

ثانيا - إن هذه الدراسة بهذا اللون الجديد تفسح المجال للدارسين في شتى التخصصات ؛ ليحاول كل منهم تجلية ما يتعلق باختصاصه من القرآن ، بصورة أعمق مما لو تناوله غيره •

ثالثا - في هذه الدراسة بيان لأعجاز القرآن الكريم ، يتمثل في معنى القرآن وسعة ما احتوى عليه من موضوعات قيمة تعد بالمئات ، بل بالآلاف مع أنه كتاب محدود الصفحات •

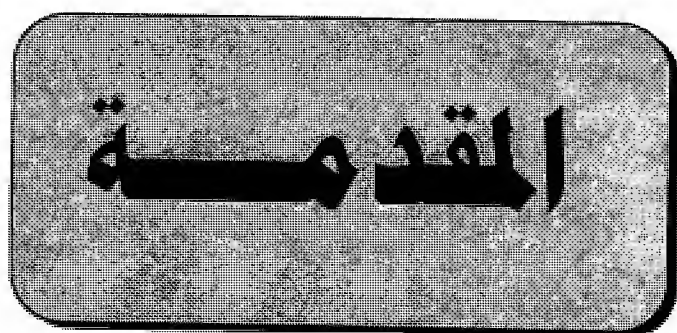
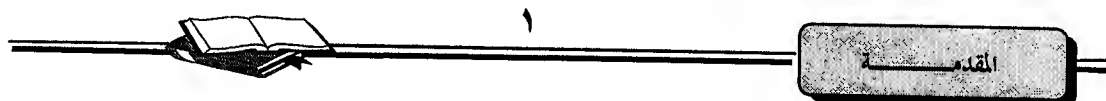
رابعا - في دراستي اعتماد كلي على كتب التفسير المعتمدة ، رواية ودراية ، بحيث يتم نقل كلام المفسرين في كل آية وردت عن التوكل على الله ثم ربط تلك المعاني التفسيرية فيما بينها ليحصل التناسق وهذا ما انفردت به دراستي •

خامسا - في دراستي ذكر لمفردات المعاني المرادفة للتوكل وهذا أيضا انفردت به الدراسة •

سادسا - انفردت دراستي بذكر الآثار السلبية للتوكل •

سابعا - كذلك انفردت دراستي بذكر الآثار المترتبة على التوكل على الله في بناء الفرد والمجتمع

وصلاهما •



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

فقد يسر الله تعالى لي الالتحاق بقسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين بمكة المكرمة دراسات عليا لمرحلة الماجستير، ولما كان لا بد لكل طالبة بهذا القسم من اختيار موضوع معين للحصول على درجة الماجستير انشرح صدري لاختيار موضوع من موضوعات القرآن، فالقرآن الكريم هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم، وهو أجل الكتب وخاتمها، فقد أودع فيه - سبحانه - علم كل شيء، فهو أصل العلوم، منه تستمد، وعليه فيها يعتمد.

لذا فقد اهتم علماء الإسلام - رحمهم الله - بالقرآن العظيم، واعتنوا به فمنهم من ألف في تفسيره، ومنهم من ألف في رسمه وقراءاته، ومنهم من ألف في ناسخه ومنسوخه، ومنهم من ألف في أسباب نزوله، ومنهم من ألف في استنباط الأحكام منه، ومنهم من ألف في أمثاله، ... إلى غير ذلك من العلوم الكثيرة، ولم يتركوا جانباً من علومه إلا تناولوه بالبحث والدراسة ففتح الله لهم من أسرار هذا الكتاب العظيم علوماً جمّة، ومن هذه العلوم اللون الجديد من تفسير القرآن الكريم موضوعياً، والذي ينتقل الآن في مدارج التكوين، ليأخذ طوراً جديداً في وجهته، وطريقة عرضه وبحثه، وفي نوعية الموضوعات التي يثيرها ويستخرجها من القرآن الكريم، وفي الغاية التي يستهدفها، حتى يصبح فناً من فنون التفسير القرآني متميزاً عن غيره ليجلي عظمة القرآن ويبرز وجهه من وجوه إعجازه وعلى هذا الأساس اخترت موضوع " التوكل على الله في القرآن الكريم دراسة في التفسير الموضوعي " فقد سبق وأن تكلم فيه من المتأخرين والمتقدمين ومن الدراسات الحديثة في هذا الموضوع كتاب عبد الله الدميحي (التوكل على الله وعلاقته

بالأسباب)، كذلك للدكتور سالم القرني في كتابه (التوكل على الله حقيقته ومنزلته وفضله وخصائصه وثمراته)، وكذلك الاستاذ منيره المطلق في رسالتها (التوكل على الله وعلاقته بالأسباب وموقف الطوائف الإسلامية من ذلك).

وقد قمت بعمل دراسة مقارنة للثلاث المواضيع وبين موضوعي (التوكل على الله في القرآن الكريم دراسة في التفسير الموضوعي) حيث أنني وضحت فيه طريقة منهجية مختلفة عنهم، فإن المتتبع للكتب الثلاثة يشعر بالناحية العقديّة، أمّا عن دراستي فقد أخذت الجانب التفسيري منها، وعلى هذا الأساس وافق عميد كلية الدعوة وأصول الدين على الموضوع.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك أموراً عدة دفعتني لاختيار هذا الموضوع وهي باختصار :

- ١- ما كان من حث وتحفيز من قبل أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالقسم سابقاً/ عبدالستار فتح الله سعيد.
- ٢- إعجابي الشديد وحيي لمادة التفسير وعلوم القرآن منذ مرحلة البكالوريوس.
- ٣- افتقار المكتبات الإسلامية إلى موضوعات القرآن بالمقارنة لمواضيع السنة المطهرة.
- ٤- وفرة مصادر ومراجع مادة التفسير .

أما خطة البحث فيمكن عرضها بإيجاز في الآتي :

قد اقتضى وضع البحث تقسيمه الى مقدمة وتمهيد وفصول سبعة رئيسة :

أولاً: المقدمة وتتضمن :

أ- أسباب اختيار الموضوع .

ب- خطة البحث .

ج- منهج البحث .

ثانياً: التمهيد ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريف التوكل والتوكل لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: موارد التوكل في القرآن والسنة وبيان المراد والمقصود منه.

المطلب الثالث: الفرق بين التوكل والتواكل .

المطلب الرابع: فضل التوكل على الله .

المطلب الخامس: آثار التواكل السلبية على الفرد والمجتمع .

ثالثاً : الفصل الأول : التوكل على الله وعلاقته بالإيمان بالله ، وفيه :

التمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأول: التوكل على الله جزء من عقيدة المؤمن .

المبحث الثاني: التوكل على الله من أعمال القلوب.

المبحث الثالث: أحوال المتوكلين.

- الفصل الثاني: التوكل على الله وعلاقته بالجانب الأخلاقي، وفيه :

تمهيد ومبحثان :

المبحث الأول: التوكل على الله من أخلاق الأنبياء.

المبحث الثاني: التوكل على الله من أخلاق المؤمنين.

- الفصل الثالث: التوكل على الله وعلاقته بالأسباب، وفيه:

تمهيد وخمسة مباحث :

المبحث الأول: أركان التوكل على الله .

المبحث الثاني: التوكل على الله من أسباب النصر.

المبحث الثالث: القدرة والمشينة والأسباب .

المبحث الرابع: الأعمال التي يعملها العباد في تحقيق التوكل.

المبحث الخامس: مجال التوكل على الله .

- الفصل الرابع: بواعث التوكل على الله، وفيه :

تمهيد وأربعة مباحث :

المبحث الأول: رسوخ معاني أسماء الله الحسنى وصفاته في النفس.

المبحث الثاني: حسن ظن المؤمن بربه واعتماده عليه.

المبحث الثالث: استسلام العبد وافتقاره لله سبحانه وتعالى.

المبحث الرابع: حسن جزاء المتوكلين .

- الفصل الخامس: موانع التوكل على الله، وفيه :

تمهيد وخمسة مباحث:

المبحث الأول: الجهل بأسماء الله وصفاته سبحانه .

المبحث الثاني: ضعف اليقين بالله تعالى .

المبحث الثالث: التكبر على آيات الله .

المبحث الرابع: الغرور والعجب بالنفس.

المبحث الخامس: الهوى والشهوات .

- الفصل السادس : ثمرات التوكل على الله، وفيه :

تمهيد وسبعة مباحث :

المبحث الأول: تحقيق الإيمان.

المبحث الثاني: السكينة والثبات .

المبحث الثالث: الأمل والرجاء.

المبحث الرابع: محبة الله تعالى ودخول الجنة بالاحساب.

المبحث الخامس: الرضا والصبر .

المبحث السادس: العزة والقوة .

المبحث السابع: يقي من تسلط الشيطان والسحر والحسد والعين.

المبحث الثامن: كشف الهم والكرب .

المبحث التاسع: يورث الرزق ويجلب المنافع ويدفع المضار .

المبحث العاشر: الدخول في كنف وكفاية الله .

المبحث الحادي عشر: الفوز والغلبة .

المبحث الثاني عشر : التسليم بالقضاء والقدر .

- الفصل السابع : التوكل على الله وأثره في تزكية الفرد والمجتمع، وفيه:

تمهيد ومبحثان :

المبحث الأول: أثر التوكل على الله في تزكية الفرد .

المبحث الثاني: أثر التوكل على الله في تزكية المجتمع .

أما منهج البحث فهو كالآتي :

- ١- قمت أولاً بجمع الآيات القرآنية التي فيها لفظ التوكل ومشتقاته، ثم صنفتها وقسمتها إلى عناصر.
- ٢- وضعت كل آية في مواضعها من العناصر وإن تكررت .
- ٣- قمت بتفسير الآيات من كتب التفسير المعتمدة بلا تكلف، وضم المعاني المتصلة بالموضوع والعنصر اتصالاً وثيقاً.
- ٤- استشهدت بالأحاديث النبوية إن أمكن لكل عنصر من عناصر الرسالة وأحياناً قد يتكرر الحديث في أكثر من عنصر بحسب الحاجة للاستشهاد به.
- ٥- قمت بعمل تمهيد لكل فصل من الفصول أبين فيه مجمل مباحث الفصل.
- ٦- قمت بعزو الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية .
- ٧- قمت بتخريج الأحاديث من الكتب الميسرة لدي، والمعتمدة فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بذلك في تخريجه، وإن كان من غيرهما بحثت عنه وذكرت تعليقات العلماء عليه إن كان لهم عليه تعليق وإن تكرر الحديث أحت على ما ذكرت أولاً، ولم أشرط على نفسي تخريج ودراسة الأسانيد للحديث فرحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

- ٨- قمت بترجمة الأعلام الذين ورد ذكرهم في الرسالة واستثيت من الصحابة الخلفاء الأربعة والمشاهير - رضي الله عنهم-.
- ٩- وبالنسبة للأعلام اكتفيت بذكر اسم العلم ولقبه أو كنيته وتاريخ ولادته ووفاته إن وجد في المصادر وبعض أعماله.
- ١٠- ختمت البحث بخاتمة عرضت فيها نتائج البحث .
- ١١- قمت بعمل فهرس للآيات القرآنية وبيان مواضعها مرتبة حسب ترتيبها في القرآن، وكذلك فهرست الأحاديث وبيان مواضعها بحسب ترتيبها الأبجدي، أما فهرس الأعلام فهي مرتبة حسب الترتيب الأبجدي للاسم الأول منها ثم فهرست للمصادر والمراجع مرتبة حسب الترتيب الأبجدي، وفهرست أخيراً الموضوعات التي تضمنتها الرسالة .
- إن ديننا الإسلامي الحنيف دين عقيدة وأخلاق شريعة ومعاملة، فقد أمر الحق تبارك وتعالى عباده بالشكر حيث قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(١).
- وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(٢).
- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٣).
- وعلمنا رسولنا الهادي أنه: **(من لا يشكر الناس لا يشكر الله)**^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٢ .

(٢) سورة سبأ، الآية ١٣ .

(٣) سورة لقمان، الآية ١٢ .

(٤) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، ٢٥٥/٤؛ كما أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال هذا حديث حسن صحيح، واللفظ له، ٣٣٩/٤؛ والإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة، ٢٥٨/٢.

واعترافاً بفضل ذوي الفضل، أقدم جزيل شكري وامتناني لشخصي فضيلة الدكتور / عبد الحميد الأمين الذي عاش معي البحث بسعة صدر ورحابة نفس، ورعاية أبوية حانية، فكان المربي والموجه، وأعطاني من وقته الثمين الكثير من غير ملل ولا ضجر فجزاه الله كل خير ووهبه الصحة والعافية، ونفع بعلمه الإسلام والمسلمين .

وأقدم شكري إلى والديّ اللذين غرسا فيّ حب العلم والجد والاجتهاد ولم يبخلا على بشيء من العطاء، فرحم الله والدي رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته مع الصديقين والشهداء والأخيار والأبرار، وأطال الله بقاء والدتي الحبيبة ومتعها بالصحة والعافية.

كما أتقدم بالشكر، والامتنان، وفائق الاحترام إلى زوجي الكريم، صاحب الفضل أيضاً في تكميل مسيرتي التعليمية فقد بث فيّ العزيمة على مواصلة الطريق، - حفظه الله تعالى - .

كما أتقدم بجزيل الشكر لآخوتي وأخواتي وأبناءهم الكرام الذين مدوا يد العون والمساعدة لي فأحسن الله إليهم وجزاهم خير الجزاء .

كما أزجي شكري وتقديري لكل من مد يد المساعدة من قريب أو بعيد سواء كان بمشورة أو إعارة كتاب، أو دعا لي دعوة، أو بذل لي جهده في النصيح والإرشاد وللقائمين على خدمة العلم وطلابه بجامعة أم القرى - وفقهم الله وسدد خطاهم -، سائلة المولى القدير أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع قريب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التمهيد

المطلب الأول : تعريف التوكل والتواكل لغة واصطلاحاً :

- أ- التوكل في اللغة: إظهار العجز والاعتماد على الغير^(١).
 والوكيل فعيل بمعنى مفعول: الذي يقوم بأمر موكله، وُسْمِيَ وَكِيلاً لأن موكله به قد وكل إليه القيام بأمره، فهو موكل إليه الأمر^(٢).
 "والوكيل" في أسماء الله هو القيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه مستقل بأمر الموكول إليه^(٣).
 وربما فسر الوكيل بالكفيل، والوكيل أعم لأن كُلَّ كَفِيلٍ وَكِيْلٌ، وليس كل وكيْلٍ كَفِيلاً^(٤).
 فالاسم من توكل: التَّكْلَانِ بضم التاء -: يقال اتكل على فلان في أمره إذا اعتمده^(٥)، واتكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته^(٦).
 وَوَكَّلَ بالله، وَتَوَكَّلَ عليه، واتكل : استسلم إليه^(٧).

- (١) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، (بيروت، دار الفكر، ص ٧٣٤؛ مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (تط الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة) ص ١٣٨١.
 (٢) أبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، (ط ١٣٨٤هـ، الدار المصرية للتأليف والنشر)، (١٠/٣٧١).
 (٣) أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، (تط ١٣٨٣هـ، المكتبة الإسلامية)، (٥/٢٢١) مادة وكل.
 (٤) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، (دار الفكر بدون تط) ص ٥٦٩.
 (٥) محمد بن أبي بكر الرازي، المصدر السابق، ص ٧٣٤.
 (٦) أبي الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، (تط الثالثة ١٤١٤هـ، بيروت، دار صادر)، (١١/٧٣٦).
 (٧) المصدر نفسه، (١١/٧٣٤).

وَوَكَّلَ بِاللَّهِ يَكُلُّ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَأَوَكَّلَ وَاتَّكَلَّ: استسلم إليه، ووَكَّلَ إليه الأمر وكَلًّا ووُكِّلَ: سلمه وتركه، وَرَجُلٌ وَكَلٌ، مُحَرَكَةٌ، ووُكِّلَتْ وَتُكِّلَتْ؛ كَهَمَزَةٌ^(١).

والمتوكل على الله: الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره، فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره^(٢).

ب - التوكل في الاصطلاح :

عرف التوكل على الله بتعاريف عديدة منها .

عرفه الإمام أحمد^(٣) بقوله " التوكل: عمل القلب"^(٤).

وعرفه الإمام ابن القيم^(٥) بأنه "تسليم الأمر إلى من هو بيده، والاعتماد على قيامه بالأمر والاستغناء بفعله عن فعلك"^(٦)، وعرفه كذلك بالاستعانة .

وعرفه سهل التستري^(٧) بأنه "الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد"^(٨).

(١) الأصفهاني، المصدر السابق، ٥٦٩.

(٢) ابن منظور، المصدر السابق، (١١/٧٣٤).

(٣) هو الإمام أحمد أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ولد سنة ١٦٤هـ، توفي ٢٤١هـ. انظر: لابن كثير، البداية والنهاية (١٠/٣٢٥)؛ ولابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢/٩٦).

(٤) ابن القيم، مدارج السالكين من منازل إياك نعبد وإياك نستعين (بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٨هـ)، (٢/١١٤).

(٥) هو شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ولد سنة ٦٩١هـ، توفي سنة ٧٥١هـ. انظر: لابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، (٢/٤٤٧) ترجمة ٤٥٢.

(٦) المصدر السابق، (٢/١٢٦) .

(٧) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أحد أئمة الصوفية وعلمائها ومكلميه، ولد عام ٢٠٠هـ وتوفي ٢٨٣هـ.

انظر: محمد السلمي، طبقات الصوفية، (مصر: مطبعة دار التأليف بدون ت) ص ٢٠٦. وانظر: الزركلي، الأعلام، (بيروت، دار العلم للملايين)، (٣/١٤٣).

(٨) صحيح مسلم بشرح النووي (القاهرة: دار الريان للتراث، تط ١٤٠٧هـ) (٣/٩٢).

وقال الغزالي^(١) "التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده"^(٢).
 وقيل التوكل "الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه"^(٣).
 وقيل التوكل "وثوقك بالمضمون واستبدالك الحركة بالسكون"^(٤).
 وقيل هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطى شكر، وإن منع صبر.
 وقال أبو سعيد الخراز^(٥) : هو اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب"^(٦).
 وبهذا يكون التعريف فيما اطلعت عليه هو ما قاله ابن رجب الحنبلي^(٧):
 "هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وكلت الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه"^(٨).

-
- (١) هو: محمد أبوحامد الطوسي الغزالي، ولد سنة ٤٥٠هـ، توفي سنة ٥٠٥هـ، من كبار فقهاء الشافعية.
- انظر: لابن كثير، البداية والنهاية (١٢/١٧٣)؛ ولابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (٣/٢٥٣).
- (٢) إحياء علوم الدين (القاهرة: دار الشعب، كتاب الشعب)، (٤/٢٤٠).
- (٣) صحيح مسلم بشرح النووي، (٣/٩٢).
- (٤) محمد بن علان الأشعري المالكي، دليل الفالحين شرح رياض الصالحين (مصر: مطابع مكتبة الحلبي)، (١/٢٥٦).
- (٥) هو: أحمد بن عيسى البغدادي، توفي سنة ٢٨٦هـ.
- انظر: للسلمي، طبقات الصوفية، ص ٢٢٨، ٢٣٢.
- (٦) ابن القيم، مدارج السالكين، (٢/١١٥).
- (٧) هو: زين الدين أبي الفرج عبدالرحمن الحنبلي، توفي سنة ٧٩٥هـ. انظر: ذيل طبقات الحنابلة، (١/١).
- (٨) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، (عمان: مكتبة الرسالة الحديثة)، ص ٤٠٩.

وهناك تعريف آخر جامع هو: "الثقة بما عند الله واليأس بما في أيدي الناس" (١).

ولعل أصح التعاريف هو أنه "معنى يلتزم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله ويختاره له" (٢). أو: "هو حال للقلوب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير، والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فيوجب له اعتمادا عليه وتفويضا إليه وطمأنينة به وثقة به، ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه" (٣).

وهكذا نرى أن التعريفات في ظاهرها الاختلاف وذلك لأن:

- أحوال وأعمال القلوب يصعب إنضباطها بحد وحصرها بألفاظ لذلك قال الغزالي (٤) "عن التوكل ... غامض من حيث المعنى. شاق من حيث العمل" (٥).
- أنهم لم يقصدوا بهذه التعريفات حقيقة التعريف الإصطلاحية وإنما قصدوا بيان أهمية هذه الخصلة أو مراعاة ظروف القائل أو المستمع.
- ولذلك جاءت تفسيراتهم وكأن في ظاهرها شيئا من التباين والاختلاف وهي في حقيقتها أجزاء من المعنى الكلي للتوكل أو من لوازمه وآثاره.

ج - تعريف التوكل لغة:

يقال رجل وَكَلَّ بالتحريك ووكله مثل همزه وتكلة على البذل، ومواكلٌ عاجز كثير الاتكال على غيره.

- (١) الجرجاني، التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٣هـ)، ص ٧٤.
- (٢) ابن القيم، الفوائد، تخريج وحواشي أحمد راتب عرموش، (تط ١٤٠٦هـ)، بيروت، دار النفائس، ص ٩٢.
- (٣) ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد الفقي، (تط الثانية ١٣٩٣هـ)، (٨٢/١) بتصرف؛ وانظر لأحمد المقرئ، تجريد التوحيد (مكتبة السلام العالمية) ص ٢٨.
- (٤) سبقت ترجمته، ص ١٠.
- (٥) الإمام الغزالي، كتاب التوحيد والتوكل، تهذيب وتعليق زهير الكبي، دار الفكر العربي، (تط ١٩٩١م)، ص ١٠.

يقال وَكَلَهُ أي عاجز بكل أمره إلى غيره ويتكل عليه .
 ووكل فلان فلانا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته أو عجزا عن القيام بأمر نفسه .
 والوَكْلُ والوَكِيلُ : البليد الجبان، وقيل العاجز الذي يكمل أمره إلى غيره،
 ويقال اتكل عليك فلان وأوكل عليك فلان بمعنى واحد .
 ورجل وَكَلَهُ إذا كان يكل أمره إلى الناس .
 وواكلت فلانا مواكله إذا اتكلت عليه واتكل هو عليك، وتواكل القوم مواكله
 ووكالوا: اتكل بعضهم على بعض .
 ويقال رجل وَكَلَهُ إذا كثر منه الاتكال على غيره منهي عنه لما فيه من التنافر
 والتقاطع^(١) .
 وبهذا فإن التواكل لا يقره الإسلام ولا يرضاه لما فيه من الإهمال وعدم البذل
 والاتكال على الغير .

د - وتعريف التواكل اصطلاحاً:

هو ترك الأسباب وعدم بذلها والعجز عنها، وهذا المعنى مأخوذ من حديث
 رسول الله لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه - حين قال له " **يا معاذ، أتدري ما حق الله على
 العباد وما حق العباد على الله؟**" قال معاذ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: " **فإن
 حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله عز
 وجل ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً**"، قال: قلت يا رسول الله أفلا أبشر
 الناس؟ قال " **لا تبشروهم فيتكلوا**"^(٢)، وهنا يضع الرسول ﷺ أصلاً ثابتاً هو أن
 كل ما يؤدي إلى ترك العمل أو ما يكون مظنة للاتكال أو التواكل ليس من التوكل في
 شيء. ع.

(١) ابن منظور، لسان العرب، (٧٣٤/١١)، ٧٣٥، ٧٣٦).

(٢) مسلم، (٥٩/١) (٣٠)، كتاب الإيمان.

المطلب الثاني : موارد التوكل في القرآن والسنة وبيان المراد والمقصود منه:

إن القرآن الكريم فيه من علم الوجوه والنظائر الكثير فهو علم يبحث في بعض ألفاظ القرآن الكريم ويوضح ماورد في أكثر من آية، وكانت دلالاته على معناه في واحد منها غير معناه في الآية الأخرى التي ورد فيها^(١).

فلقد ورد لفظ التوكل على الله تعالى في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وبأساليب مختلفة من أمر به وثناء على أهله وحسن عاقبتهم ومعونة الله للمؤمنين، وغير ذلك من أساليب.

لهذا العلم أهميته في التفسير والتعبير عن المعنى الواحد بأساليب متعددة وألفاظ مختلفة حسب ما يقتضيه الحال، والقرآن هو النواة الأولى للعلوم الشرعية فهو فسيح المجال للنظر والفكر الواسع في رياضه الفسيحة وما هذا إلا من بلاغة القرآن وفصاحته وبيانه المعجز.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنت لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٥١﴾﴾
 ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾^(٢).

ففي الآيتين الأمر محمول على الوجوب في التوكل على الله وحده وجعله شرطاً للإيمان، فالآيتين وإن كانت أمر في التوكل على الله تعالى فقد تضمنت كذلك معنى الثناء على المتوكلين وحسن عاقبتهم من وعد الله تعالى بنصرهم ورضا الله

(١) انظر: للسيوطي بتصرف، الاتقان في علوم القرآن، قدم له وعلق عليه محمد شريف سكر وراجعته مصطفى القصاص (بيروت: دار إحياء العلوم، ط الثالثة ١٤١٦هـ) (١/٣٨١)؛ انظر للزركشي بتصرف، البرهان في علوم القرآن، (بيروت: دار الفكر، ط الثالثة)، (١/١٠٢).

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٩-١٦٠.

تعالى عليهم بمحبته سبحانه ومن أحبه الله عصمه الله^(١).

كذلك ورد التوكل بألفاظ أخرى منها على سبيل الاختصار:

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾^(٥).

ففي معرض الحديث عن التوكل نجد أنه لفظ قرآني له ألفاظ ترادفه منها :

(١) انظر: لمحمد بن أحمد الكلبى بتصرف، التسهيل في علوم التنزيل، (بيروت، دار الكتاب العربى، تط الرابعة ١٤٠٣هـ) ص ١٢٢؛ وانظر: لمحمد رشيد رضا بتصرف، تفسير المنار (بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية)، (٢٠٥/٤).

(٢) سورة المائدة، آية ٢٣.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٧٣.

(٤) سورة النساء، آية ٨١.

(٥) سورة الأعراف، آية ٨٩.

١- الاستعانة بالله :

وهي طلب العون^(١).

يقول ابن تيمية^(٢): "والتوكل والاستعانة للعبد هي الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة، فإن العبد يحب ويريد ما يراه ملائماً له، والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية من المقصودة في رضاه، ويحب الوسيلة تبعاً لذلك، وإلا فكل مأمور به، فممنفعته عائدة على العبد، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه"^(٣).
فالمؤمن يقصد الأمر ويستعين بشيء، ويعتمد عليه في تحصيل مراده والمستعان هذا قسمان :

القسم الأول: ما يستعين به المرء لنفسه فيكون هو الغاية التي يعتمد عليها العبد ويتوكل عليها .

القسم الثاني : هو أن المرء يثق ويعتمد على المستعين في نيل مراده سواء كان ذلك هو الله أم غيره، فإذا كان المستعان به هو الله فمن هنا يأتي صلاح العبد والاستعانة بغيره هو الهلاك والفساد.

وقد سوى ابن القيم بين التوكل والاستعانة فقال "التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة"^(٤).

قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٥).

فالله تعالى يأمر بإخلاص العبادة له وأن نستعين به على الأمور كلها لأن العبادة له هي المقصودة والاستعانة وسيلة إليها^(٦).

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٣١٧٩/٥ .

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تقي الدين، أبو العباس، لقب بشيخ الإسلام لوافر وواسع علمه، توفي سنة ٧٢٨هـ؛ انظر: وفات الوفيات، (٦٢/١).

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (طبعة الرئاسة العامة للحرمين) (٢٠/١).

(٤) ابن القيم، مدارج السالكين، ج ٢، ص ١١٨ .

(٥) سورة الفاتحة، آية ٥ .

(٦) انظر: ابن كثير بتصرف، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر، تط ١٤٠٨هـ)، (٤٢/١).

فآية الكريمة فيها " اعترافا بالعجز والفقر وأنا لانستعين إلا بالله وحده أي نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا" (١).

فآية الكريمة في ظاهرها لاتحمل معنى التوكل على الله تعالى ولكن إذا نظرنا لمعنى (نعبد) فالعبادة: "هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه منه الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام والحج... وكذلك حب الله ورسوله، وخشيته والإنابة إليه، وإخلاص الدين له،... والرضى بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك: هي من العبادة لله" (٢).

فعلى الخلق أن يعبدوه فيطيعوا أمره، ويستعينوا به، فيجتهدون في إقامة الدين مستعينين به، فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله وكل ذلك من العبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا لَأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٥).

فإنه تعالى أمر المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية... فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلاسبيل لغير الصابر، أن يدرك مطلوبه، وخصوصا

(١) الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، ص ٣٣.

(٢) ابن تيمية، العبودية، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط الخامسة ١٣٩٩ هـ)، ص ٣٨.

(٣) سورة البقرة، آية ٤٥.

(٤) سورة البقرة، آية ١٥٣.

(٥) سورة الأعراف، آية ١٢٨.

الطاعات الشاقة... والبلاء إن استمر فهذا تصفق معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها، وهو التسخط إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله، والتوكل عليه، **مُجَاباً إِلَيْهِ، وَالْإِفْتِقَارَ عَلَى الدَّوَامِ**^(١).

فالعبد المؤمن يفعل من الأسباب ما يستطيع عند العجز، ويصبر ويستعين بالله تعالى ويتوكل عليه.

فالآيات القرآنية كلها فيها معنى "مسألتهم الله المعونة على العبادة"^(٢).

وفي التوكل معنى المعونة بعد بذل السعي والعمل في تحقيق أمر العبادة.

وفي الحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: **(إِنَّ الدِّينَ بَيْسَرٌ، وَلَنْ يَشَادَ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرُّوحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ)**^(٣).

إن الأعمال الصالحة من الإيمان فالمرء يجتهد فيها حسب استطاعته فما من عمل يقوم به المؤمن إلا وطلب الله المعونة فيه حتى لا يجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع بل يعمل بتلطف وتدرج ليدوم العمل ولا ينقطع.

ففي الحديث معنى السعي والعمل مع طلب المعونة من الله تعالى في جميع الأوقات والأحوال.

وعن عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: كنت خلف رسول الله -ﷺ- يوماً فقال: **"يَا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو**

(١) انظر: لعبد الرحمن السعدي بتصريف، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، حققه محمد النجار، (بيروت: عالم الكتب، تط الثانية ١٤١٤هـ)، (٢/١٣١-١٣٢).

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير آي القرآن، هذبه وحققه وضبطه وعلق عليه بشار معروف - عصام الحرساني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، تط الأولى ١٤١٥هـ)، (٧٠/١).

(٣) الفتح لابن حجر العسقلاني، حققه ابن باز، رتبته ورقم أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الكتب، تط الأولى ١٤١٠هـ)، (١٢٧/١).

اجتمعنا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتب الله لك، ولو
اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتب الله عليك،
رفعت الأقلام وجفت الصحف" (١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : " المؤمن القوي خير
وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك،
واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا
ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتن عمل الشيطان" (٢).

فحفظ الله الوقوف عند أوامره بالإمتثال وعند نواهيه بالإجتنب فمن فعل ذلك
فهو من الحافظين لحدود الله فحفظ الجوارح عن المعاصي وتركها في الطاعات أمر
محبوب ومأمور به فيجد المؤمن بذلك الله في كل أحواله حيث توجه وانطلق يحوطه
بعلمه وينصره ويسدد خطاه، فالحرص على ما ينفع من الأعمال هو الأولى وهو
طاعة لله ولرسوله ﷺ.

فأحاديث الرسول تؤيد معنى التوكل على الله ألا وهو الاستعانة به سبحانه
فالمؤمن يحتاج إلى الله وهو فقير إليه، وهذا هو المقصود.

والاستعانة بالله والتوكل عليه سبحانه وسيلة إلى الاحتياج وعبادة الله
فالشعور بالقوة وثقة الصلة بالله تعالى هي نتائج الاستعانة والتوكل على الله.

٢- الاعتصام :

إن الاعتصام بالشئ هو الاستمسك به، والاعتصام بالله تعالى هو
الاستمسك بحبله المتين (٣).

فإن الاستمسك بحبل الله يمنع المرء المؤمن من الضياع ومن الوقوع في
السوء والبدعة والآفات في العمل.

(١) الترمذي (٢٥١٦) واللفظ له، وقال هذا حديث حسن صحيح، أحمد في المسند، ٢٩٣/١،

٣٠٣، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، ٢/٢٦٩، ٢٠٧، ح (٢٧٦٣).

(٢) مسلم (٢٠٥٢/٤)، ح (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٣) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، (القاهرة، تط ١٩٦٩م)، ص ٣٣١.

"الاعتصام بالله هو التوكل عليه والامتناع به والاحتماء به وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه"^(١).

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).
وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٣).

ففي الآيتين حض على الاستمسك بالدين الحق الذي بينه سبحانه بآياته على لسان رسوله ﷺ وهو الإسلام والتوحيد^(٤).

وقد قال ابن الجوزي^(٥) في تفسيره للآية أن سبب نزولها أن الأوس والخزرج كان بينهما حرب في الجاهلية، فلما جاء النبي ﷺ أطفأ تلك الحرب بالإسلام... فالاعتصام الاستمسك بحبل الله وفي الحبل: ستة أقوال هي:

- ١- كتاب الله.
- ٢- الجماعة.
- ٣- دين الله.
- ٤- عهد الله.
- ٥- الإخلاص.
- ٦- أمر الله وطاعته.

فيظهر أن الأقوال كلها متقاربة المعنى لأن كتاب الله فيه الحث على الترك

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، (١/٤٩٥ - ٤٩٧).

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠١.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٠٣.

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (بيروت: دار الفكر)، (١/٣٩٣).

(٥) ابن الجوزي: أبو الفرج ابن أبي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن عبد الله الجوزي الفقيه الحنبلي، ولد سنة ٥١١ أو ٥١٢، توفي سنة ٥٩٧هـ؛ انظر: لابن كثير، البداية والنهاية، (٢٨/١٣)؛ ولابن خلكان، وفيات الأعيان، (٢/٣٢١).

بالجماعة وبدين الله وبعهده وبالإخلاص وبأمر الله وطاعته...^(١)

ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباحدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد وحصول المراد^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

فالآية السابقة فيها أن العبد المؤمن عليه أن يتجرد عن الشوائب قليلها وكثيرها لأن الشيطان قد يحاصر العبد ويحبط له عمله ولا يكاد يخلص له عمل فدلّت الآية على أن تبديل الرياء بالإخلاص يدخل صاحبه في الصلاح.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾^(٤).
فالاعتصام التمسك بما يعصم ويحفظ... وهو القرآن الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة^(٥).

قال ابن كثير في تفسيره للآية "أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن... وهذه صفة

(١) ابن الجوزي بتصرف، زاد المسير في علم التفسير، (بيروت: المكتب الإسلامي، تط الثالثة ١٤٠٤هـ)، (١/٤٣١-٤٣٣).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر - تط ١٤٠٨هـ)، (١/٥٧٩).

(٣) سورة النساء، آية ١٤٦.

(٤) سورة النساء، آية ١٧٥.

(٥) انظر: المراغي، تفسير المراغي، (بيروت: دار الفكر)، (٣٧/٢).

المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات^(١).

فالآيات جميعها فيها معنى التوكل على الله، وذلك بالاحتماء به وسؤاله سبحانه بدفع الآفات والعقبات عن الطريق للوصول إلى الغاية والمراد.

وفي الحديث عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما - قال: **إن رسول الله - ﷺ - مكث تسمع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة: أن رسول الله - ﷺ - حاج... الحديث وفيه "وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله..."**^(٢).

وعن سفيان بن عبدالله الثقفي - رحمه الله - قال: قلت: يا رسول الله: حدثني بأمر اعتصم به، قال: **"قل ربي الله ثم استقم" قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: "هذا"**^(٣).

وهنا يرد سؤال هل الاعتصام بكتاب الله فيه توكل على الله أو فيه معنى التوكل؟ نعم إن القرآن الكريم شامل للعقيدة والعبادة، والمعاملة، وآيات الله تتلى فتطرق القلب حتى يسلم ويستسلم قلبه ونفسه لأوامر الله تعالى ونهيه، فكما أشرنا سابقاً أن القرآن هو حبل الله المتين، وبذلك يستقيم حال المؤمن فيمسك أوامر الله تعالى ويمتثل لها ويجتنب نواهيه وعلى ذلك فالتمسك بكتاب الله من الاعتقادات والأعمال والأقوال هو الأساس وجميعهم يحتاج إلى التوكل.

فالاعتصام يوجب القيام بطاعة الله والمحافظة على طاعته ورسوله - ﷺ -.

(١) ابن كثير، المصدر السابق، (٩٠٢/١).

(٢) مسلم، (٨٩٠/٢)، (١٢١٨) كتاب الحج.

(٣) الترمذي (٢٥٢٢) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٢) وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، (٣٢٠٨).

٣- الرجاء :

" تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل" ^(١)، وهذا التعلق يحتاج إلى عمل والعمل يحتاج إلى توكل على الله .

فالرجاء يسلك بصاحبه لطريق الجد وإمكان الوقوع للمتأمل فيه ولولا الرجاء لما تحركت الجوارح للعمل بالطاعة .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ^(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ^(٣).

وقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ ^(٤).

فالآيات القرآنية السابقة دلت على أن القيام بأعمال الهجرة والجهاد وغيرها من الأعمال وبذل الأسباب لتقربهم إلى الله، ومع هذا فلا يعتمد على تلك الأعمال والأسباب ويعول عليها بل رجاء رحمة الله ورجاء قبول الأعمال فيها إظهار لمعنى العبودية بالتوكل على الله وبالفاقة والحاجة إلى ما يرجوه العبد من ربه وفيها أيضا معنى الترقب والتوقع لفضل اله بعد العمل ودوام الالتفات إليه ^(٥).

(١) الجرجاني، التعريفات، ص ١٠٩.

(٢) سورة البقرة، آية ٢١٨ .

(٣) سورة النساء، آية ١٠٤ .

(٤) سورة الإسراء، آية ٥٧ .

(٥) انظر: لعبد الرحمن السعدي بتصرف، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،

(١/١٩٦ - ٢/٨٩).

وفي الحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: "يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فأني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة" قال: ما عملت عملاً أرجى عند من أني لم أنظر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا طليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي^(١).

إن الصلاة من الأعمال الصالحة التي يرجو بها العبد دخول الجنة إن أحسنها وقام بأركانها وشروطها ويرجو الله بها حصول المراد والمحبوب .

وعن أنس -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال "كيف تجدك؟" قال: يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: "لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف"^(٢).

فالرجاء عمل قلبي والتوكل كذلك فكلاهما من القلب وبذلك يتصلان إتصالاً وثيقاً ولا ينفكان أبداً.

فالحديثان يظهران معنى من معاني التوكل، وهو الرجاء الذي يطيب العمل ويزيد معرفة العبد بالله ويزيد التعلق به سبحانه .

٤- الرضا :

إن الرضا هو أن لا يكره العبد ما يجريه القضاء عليه ويرفع الجزع عن نفسه عند نزول مر القضاء^(٣).

(١) البخاري، الفتح ، ج ٣ (١١٤٩).

(٢) الترمذي (٩٨٣) وقال: هذا حديث حسن غريب، وقال النووي إسناده جيد.

(٣) انظر: الراغب الأصفهاني بتصرف، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٠٢؛ وللجرجاني، التعريفات، ص ١٤٨.

فالمرء يعمل ويبذل جهده في العمل ويرضى بكل مايفعل به لكي يكمل له الانقياد والاستسلام المطلق لله، ولحكمه ولو كان الحكم مخالفا لمراد نفسه.

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(١).

إن الآية الكريمة " نزلت في صهيب بن سنان الرومي وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل فتخلص منه وأعطاهم ماله، فأنزل الله هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى الحرة، فقالوا له: ربح البيع، فقال وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وماذاكم؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية"^(٢).

فهذا الصحابي الجليل تجرد من ماله وهاجر إلى رسوله الكريم خائفا على دينه وقد فعل ما فعل وهو في رضا تام لأنه يعلم أن الله تعالى لا يضيع ذلك أبدا فشرى نفسه ابتغاء مرضاة ربه وتوكل عليه ليعينه على كفار قريش .

وقال تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجْرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة، آية ٢٠٧ .

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١/٣٧٠).

(٣) سورة النساء، آية ١١٤ .

(٤) سورة الحشر، آية ٨ .

وقال تعالى: ﴿ تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ عَنِئُهَا وَلَا يَحْزَنَ وَبَرِّضِينَ بِمَا أَتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝ (١) 》

إن الأعمال ينبغي أن يقصد بها وجه الله تعالى، وإخلاص النية له فيها ليحصل الأجر العظيم ويتعود المؤمن الإخلاص في كل جزء من أجزاء الأعمال صغيرها وكبيرها وإذا لم يتم المقصود فالنية قد اقترن بها الإخلاص واقترن معها ما يمكن من العمل.

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً، ثم قال "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل، وإذا رجع قالهن وزاد فيهن "أيبون تائبون عابدون لربنا حامدون" (٢).

فقوله ﷺ: (ومن العمل ما ترضى) أي عمل ممكن أن يكون في السفر من جهاد لا يتخلله رياء - من تجارة يرجوا بها الربح، طلب علم يرجو به الأجر والثواب... الخ، وغير ذلك من الأعمال وجميعها ينبغي أن تكون على منهاج الله تعالى وعلى طريقة رسوله ﷺ فيرضى الله عنها إذا انعقد التوكل فيها على الله تعالى.

قال عبدالله بن المبارك: قال داود لابنه سليمان عليهما السلام: "يا بني، إنما تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: لحسن توكله على الله فيما نابه، [ولحسن]

(١) سورة الأحزاب، آية ٥١ .

(٢) مسلم، (٢/٩٧٨)، (١٣٤٢) كتاب الحج .

رضاه فيما أتاه [ولحسن] زهده فيما فاتته" (١).

فالرضا معنى من معاني التوكل على الله ومورد من موارده ومظانه فهو دليل ومظهر من مظاهر صلاح وكمال الإيمان .

٤- اليقين :

إن اليقين قرين التوكل على الله لذلك قرن الله تعالى بينه وبين التوكل .
وفسر التوكل بقوة اليقين، ومتى وصل اليقين الى القلب امتلأ نورا وامتلاً محبة لله وتوكلاً عليه (٢).

واليقين يأمر دائماً بالاستمرار على ركوب الأخطار والصعاب (٣).
قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٥).

أي بلغ الإيمان بهم إلى أن وصل إلى درجة اليقين الداعي للعمل وكمال السعي (٦).

(١) السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور عن ابن أبي الدنيا، (بيروت: دار الفكر، تط الأولى، ١٤٠٣هـ)، (٦٢/١).

(٢) انظر: لابن القيم بتصرف، مدارج السالكين، (٤١٤/٢).

(٣) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (بيروت: المكتبة العلمية) مصورة من طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٣٨٣هـ، (٤٠٠/٥)؛ ابن القيم، مدارج السالكين، (٤١٣/٢).

(٤) سورة النمل، آية ٣ .

(٥) سورة لقمان، آية ٤ .

(٦) انظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٤٦٤/٣).

وعن عبدالله بن عمر بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال:
**“القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتهم الله عز وجل أيها الناس
 فاسألوهم وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر
 قلب غافل”**^(١).

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: **كان أخوان على عهد النبي - ﷺ - فكان أحدهما
 يأتي النبي - ﷺ - والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه إلى النبي - ﷺ -
 فقال "لعلك ترزق به"**^(٢).

ففي الحديثين تظهر درجة من درجات اليقين وهي ("الدرجة الأولى: علم
 اليقين، وهو قبول مظاهر من الحق، وقبول ما غاب للحق، والوقوف على مقام
 بالحق". فالصحابه رضوان الله عليهم تيقنوا خبر رسول الله ﷺ وانقادوا وأذعنوا له
 إيماناً وتصديقاً وإيقاناً، بحيث لا يخالج القلب فيه شبهة، فحديث الرسول لهم يلزمهم
 بصدقه وأن ذلك حاصل منه إجابة دعائهم - ورزق الآخر لأنهم سكنوا إلى خير
 المخبر وتوثقه به)^(٣).

فهذا اليقين يمثل لنا معنى من معاني التوكل ومورداً من موارده في الكتاب
 والسنة فهو نواة الدين وبه كمال الإيمان والعزة، والمباعدة عن مواطن الذلة
 والضعف بمعرفة العبد ويقينه بالله تعالى .

٥- التفويض :

إن التفويض من معاني التوكل، فالتوكل شعبة منه ومعنى له، فالتوكل
 والتفويض كلاهما تبرء من الحول والقوة لصاحب الأمر سبحانه .

(١) أحمد، ١٧٧/٢ واللفظ له، ذكره المنذري في الترغيب والترهيب، ٤٩١/٢ وقال: رواه أحمد
 بإسناد حسن.

(٢) الترمذي (٢٣٤٥) واللفظ له وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم، ٩٣/١، ٩٤
 هذا حديث صحيح على شرط مسلم ورواته عن آخرهم ثقات: ولم يخرجاه ووافقه
 الذهبي.

(٣) انظر: لابن القيم بتصرف، مدارج السالكين، (٤١٦/٢-٤١٨).

والتفويض " هو روح التوكل ولبه وحقيقته" (١).

قال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢).

ومعنى قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ (أي: ألجأ إليه وأعتصم، والقى أموري كلها لديه واتوكل عليه في مصالحه...) (٣).

وجاء في الحديث عن البراء بن عازب - رضي الله عنهما - أنه قال: قال النبي ﷺ: "إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: "اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم أمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به" (٤)... الحديث.

فقوله ﷺ (وفوضت أمري إليك) أي أتبرأ من حولي وقوتي إلى حولك وقوتك وتسليم الأمر كله إلى مالك الأمر سبحانه.

(١) المصدر السابق، (١٢٧/٢).

(٢) سورة غافر، آية ٤٤ .

(٣) انظر: للسعدي، المصدر السابق، (٣٤٦/٤).

(٤) صحيح البخاري، (٨٣/١)، (٢٤٧)، كتاب الوضوء واللفظ له، ومسلم، (٢٠٨١/٤)، (٢٧١٠)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

المطلب الثالث : الفرق بين التوكل والتواكل :

إن التواكل صفة من الصفات الخلقية المذمومة، التي نهى عنها الشرع الحنيف، ويرفضه المؤمن اللبيب.

فالأخذ بالأسباب مع التسليم، وتفويض أمر التوفيق لله والثقة واليقين بأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا هو من التوكل المأمور به شرعا.

أما القعود عن العمل والأسباب وعدم البذل والجهد فليس من التوكل وإنما هو اتكال وتواكل حذرنا منه المصطفى ﷺ .

وقد يظن بعض الجاهل الغافلين أن ترك الكسب من التوكل، وهذا فهم سقيم مريض لأن ارتباط المسببات بالأسباب من سنن الله في خلقه .

فلا يعقل أن يظهر النبات دون إلقاء الحب في الأرض والعمل على رعايته فينتج لنا الثمر والزهر.

فعن عمر بن الخطاب " أنه لقي ناسا من أهل اليمن فقال من أنتم؟ قالوا نحن المتوكلون، فقال بل أنتم المتكلمون^(١)، إنما المتوكل الذي يلقي حبة في الأرض ويتوكل على الله.

وفي ذلك رد بليغ على من يتركون الأسباب تقاعسا بدعوة التوكل على الله، ولو صدقوا لأحسنوا العمل.

كذلك من يمرض ويظن أنه يشفى بدون تدوي فهو تارك لأسباب الشفاء فقد حض الإسلام على التدوي وأمر به النبي - ﷺ -، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: " ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء"^(٢).

" إن إثبات الدواء من الأسباب التي لا تنافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وتقديره، وأنها لا تتجح بذواتها بل بما قدره الله تعالى فيها"^(٣).

(١) خرجه ابن أبي الدنيا، التوكل على الله، تحقيق: مجدي إبراهيم، (القاهرة: مكتبة القرآن، بدون تط)، ص ٢٦ .

(٢) البخاري، الفتح، كتاب الطب، ص ١٦٦، (٥٦٧٨).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (١٠/١٦٧) .

فإهمال الأخذ بالأسباب وترك العمل يسمى تواكلا وليس ذلك من الإيمان والتوكل على الله هو الأخذ بالأسباب مع العمل؛ لأن العمل بما أمر الله وبذل الأسباب أمر لازم لصحة التوكل على الله ، وهذا ما يفهم من قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝ ﴾^(١).

وقد أمر تعالى عباده بالسعي والعمل وطلب الرزق، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾^(٣).

(١) سورة النساء، آية ١٢٣-١٢٤.

(٢) سورة الجمعة، آية ١٠ .

(٣) سورة الأنفال، آية ٦٠ .

المطلب الرابع : فضل التوكل على الله :

إن التوكل على الله تعالى له مقام عظيم، وهو من أقوى الأسباب التي تدفع المرء المؤمن إلى تحمل أقدار الله .

ولا تظهر هذه المنزلة والمقام إلا عند شدة المصائب وهوله، وبهذا فإن المؤمن إذا أصابه أمر من الأمور فزع إلى الله، وتوكل عليه وأتاب فالتوكل في كل خطوة من خطوات المؤمن هو حق واجب وعقيدة وخلق، فالتوكل من لوازم الإيمان .

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ (١) 》

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (٢) 》， ﴿ إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (٣) 》

والتوكل على الله هو أساس من أسس التوحيد وركن من أركانه؛ لأن أكثر العبادات تنفرع عنه .

والمرء يطمئن إلى تلك العقيدة وهذا الخلق؛ لأنه يعرف أن ما وراءه هو لصاحب الأمر والتدبير سبحانه .

" والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا لا يتصور وجوده بدونها" (٣) .

(١) سورة المائدة، آية ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران، آية ١٢٢، ١٦٠ .

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، (١/١٣٦) .

وهو " الأصل الجامع الذي تتفرع عنه الأفعال والعبادات وهو خلاصة التقرير ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء والرضا به ربا وإلهاً، والرضا بقضائه بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء وعده من النعماء" (١).

ومن فضل التوكل أنه سبحانه سمي نفسه الوكيل .

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (٥).

ومن فضل التوكل أنه تعالى أمر به في أكثر من موطن في كتابه العزيز:

(١) سليمان بن عبدالله بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد، شرح كتاب التوحيد (المكتب

الإسلامي، الطبعة ٤) ص ١١٠ .

(٢) سورة النساء، آية ١٣٢.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٧٣.

(٤) سورة النساء، آية ١٧١ .

(٥) سورة الإسراء، آية ٦٥ .

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾^(٣).

وغيرها من الآيات الكثيرة التي حثت وأمرت بالتوكل عليه سبحانه .
ومن فضل التوكل أنه من صفة الأنبياء والمؤمنين الصادقين :

قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝﴾^(٦).

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩ .

(٢) سورة النساء، آية ٨١ .

(٣) سورة المائدة، آية ١١ .

(٤) سورة آل عمران، آية ١٢٢ .

(٥) سورة آل عمران، آية ١٦٠ .

(٦) سورة الأنفال، آية ٢ .

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوُا عَلَيْهِمُ آلَ الذِّكْرِ أَوْحِينَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾^(١).

ومن فضله كذلك أنه تعالى جعله في جميع الشرائع السابقة والخاتمة:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَلْقَوْنِي إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّأْتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ﴾^(٤).

(١) سورة الرعد، آية ٣٠ .

(٢) سورة المائدة، آية ٢٣ .

(٣) سورة الأعراف، آية ٨٨-٨٩ .

(٤) سورة يونس، آية ٧١ .

وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبْنَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ (١).

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تدل على فضل هذا الخلق فهو عدة المؤمنين في المعرفة والنصرة والتأييد .

ومن فضل التوكل أنه سبحانه قرن بينه وبين العبادة في مواضع عدة من كتابه:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا أَبِيهِ لَا أَتُغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٤﴾﴾.

(١) سورة هود، آية ٥٣-٥٤-٥٥-٥٦ .

(٢) سورة هود، آية ١٢٣ .

(٣) سورة الممتحنة، آية ٤ .

(٤) سورة المزمل، آية ٩ .

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ۝﴾^(١).

ومن فضل التوكل أنه سبحانه قرن بينه وبين الإيمان :

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٧﴾﴾^(٤).

وكذلك من فضله أن قرن بينه وبين الإسلام :

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ۝﴾^(٥).

ومن فضله أن قرن بينه وبين التقوى والهداية :

(١) سورة الرعد، آية ٣٠ .

(٢) سورة الملك، آية ٢٩ .

(٣) سورة المائدة، آية ٢٣ .

(٤) سورة آل عمران، آية ١٢١-١٢٢ .

(٥) سورة يونس، آية ٨٤ .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝١﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣﴾ (٣).

فمن خلال الآيات القرآنية يتضح لنا أن التوكل على الله فضله عظيم وهو زاد المتقين العابدين المؤمنين، والغاية القصوى لكل مؤمن هي: معرفة الله تعالى وعبادته ويدخل في ذلك التوكل، فمن عرف الله تعالى توكل عليه. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٤﴾ (٤).

(١) سورة الأحزاب، آية ١ - ٣.

(٢) سورة الطلاق، آية ٣.

(٣) سورة إبراهيم، آية ١٢.

(٤) سورة الزمر، آية ٣٦.

المطلب الخامس : التواكل وأثاره السلبية على الفرد والمجتمع :

إن الإسلام دين ينظم الحياة البشرية في مختلف ميادينها، كما يرسم الطريق للحياة على أساس العقيدة والشريعة والأخلاق.

والإسلام يدعو إلى العمل ويبيح ويرغب في المكسب الحلال الذي لا استغلال فيه وبهذا فهو دين عمل وحياة يريد من المسلم أن يعيش حياة هنيئة في ظل الإسلام وبهذا فقد وهب الله الإنسان قوة التفكير والتدبير بواسطة العقل والعلم، وبواسطة العلم تعددت مصادر الرزق وأصبح للإنسان القوة للعمل .

ومن شرف العمل أن يكون وفق ما جاء به الإسلام، فالعمل بجد ونشاط إيمان بما ينوط بالإنسان من مسئولية .

قال تعالى : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(١).

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾^(٢).

وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾^(٣).

فالعمل الصالح هو المعيار الحقيقي للجزاء الحسن، وهو يهيا المؤمن للدرجات العلى في الجنة .

فالعمل فريضة على كل مسلم ومسلمة بقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ

(١) سورة التوبة، آية ١٠٥ .

(٢) سورة هود، آية ١٢٣ .

(٣) سورة المؤمنون، آية ٥١ .

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾.

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ ﴿٢﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿٣﴾.

فالمسلم هنا يطمح ويعمل دائما ليصل للأمل المنشود في الدنيا والآخرة، فيدون العمل يصبح الإنسان عاجزا لنيل أدنى مراداته.

لذلك أمرنا الإسلام بالعمل حسب شروطه حتى يكون العمل موقفا متقنا، ومن ضمن هذه الشروط هي أن يكون المؤمن متوكلا على الله في عمله أيا كان صغيرا أو كبيرا يريد به الدنيا أم الآخرة.

"فالتوكل على الله في العمل موقف ينشأ عما يقوم بنفس المؤمن من أن الله حق وماخله باطل، وأن هدى الله هو الهدى ليس بعده إلا الضلال، فإذا استقر هذا العلم بالنفس وصار اعتقادا جازما وبقينا حاسما أورث المؤمن حالة من الثقة المطلقة بصحة الطريق الذي يسلكه مقبلا على ربه وعاملا في سبيله، وذلك يدعوه للإقدام بثبات نحو الغاية المنصوبة أمامه على صراطها المستقيم" ﴿٤﴾.

فالتوكل شعبة من شعب الإيمان تهيء المؤمن في واقع الدنيا لحياة عامرة بضروب العمل الصالح مفعمة بوجوه الخير.

(١) سورة النحل، آية ٩٧ .

(٢) سورة الكهف، آية ١ - ٢ .

(٣) سورة الكهف، آية ٣٠ .

(٤) د.حسن الترابي، الإيمان وأثره في حياة الإنسان، (بيروت: دار القلم، تط الأولى

١٣٩٤هـ)، ص ٤٠ .

والتواكل على ذلك نقيضه تماما فقد أخذ بعض الناس معتقدات، وتصورات واهية لمعنى التوكل، فقد أخذوا من التوكل معنى التعطل، ومن القضاء والقدر معنى الجبر المحتوم، فانتهوا إلى القعود والتواكل عن العمل في الحياة اعتذارا بأن القدر محتوم، ومكتوب مهما فعلوا، واتكالا على أن الله سيدبر لهم الخير مهما تركوا.

وبهذا كان القعود عن العمل تواكلا لأنهم تركوا الأسباب وعجزوا عنها فوهنت وضعفت عقيدتهم في العمل بذلك .

فالإتكال على الله لن يخرق العوائد، ويجعل السماء من فوق تمطر الذهب والفضة، والأرض من تحت تخرج الخبز والعسل، بل الجهد والاسعي والتفكير ولاعمل.

ولقد جاء الأعرابي إلى رسول الله - ﷺ - فقال يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ فقال رسول الله: "أعقلها وتوكل" ^(١).

فالأعرابي سأل رسول الله ﷺ هل يطلق ناقته ويتوكل أم يعقلها ويتوكل؟ فأجابه الرسول ﷺ بالمنهج السديد الرشيد الذي يجمع بين الأخذ بالأسباب وبين التوكل على الله وذلك سمة من سمات المنهج النبوي في التربية والتوجيه للأمة، فقال النبي ﷺ قولته التي سرت مسرى الأمثال السائرة " أعقلها وتوكل".

وحديث عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله - ﷺ - : " لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا" ^(٢).

(١) الترمذي (٢٥١٧)، وهذا لفظه وقال: هذا حديث غريب من حديث أنس، والحاكم، ٦٢٣/٣، وقال الذهبي في التلخيص: إسناده جيد، البيهقي في الشعب، ١٤١٤/٣ من حديث عمرو بن أمية الضمري، وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء بعد أن عزاه للترمذي: رواه ابن خزيمة في التوكل والطبراني من حديث عمرو العمري وقال: إسناده جيد، وذكره الألباني في صحيح الجامع (٤٨٠٩) وقال: حسن.

(٢) الترمذي (٢٣٢٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤١٦٤) وهذا لفظه، وأحمد، ٣٠/١ وقال أحمد شاكر، ٣/١: إسناده صحيح، والبيهقي في شعب الإيمان، ٣٧٨/٣.

فهذا الحديث هو في الواقع حجة فإنه سبحانه لم يضمن لها الرواح ملى البطون، إلا بعد غدوها وسعيها لامع بقائها في أوكارها.

ولكن حين يصاب المؤمن بعة في الاعتقاد والخلق يكون عرضه لأن تعثره النوائب.

فالتواكل لا يقره الإسلام لأنه يهدم أحكام الإسلام وله من الآثار السلبية على الفرد والمجتمع الكثير فمناها :

- ١- البطالة ، فيصير الفرد والمجتمع الى طريق الكسل والعجز والعيش بلاهدف.
 - ٢- تصاب عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، بالخلل، فيقع الفرد مكتوف اليد، وهذا مالا يقبله الإسلام؛ لأنه قد حث على بذل الأسباب، ثم بعد ذلك يرضى بما قضى الله له، وما قدر عليه إيماننا بأن الله تعالى لا يفعل شيئا عبثا، ولا يقضي أمرا يريد به عسرا لعباده .
 - ٣- لا يكون الفرد والمجتمع قانعا بما وهب الله، فما جاء هو في حدود ما قدر له من نشاط وطموح وعمل، فيعيش الفرد والمجتمع متمنيا متطلعا إلى ما وهب لغيره.
 - ٤- يصبح الفرد والمجتمع نتيجة للعود عن العمل والاتكال رمزا للعجز والترزق بأفضال الناس وصدقاتهم.
 - ٥- يصبح الفرد والمجتمع مخالفا لسنن الله الكونية، ومخالفا لتعاليم دين الإسلام الذي يرغب في العمل والكسب.
 - ٦- يصبح الفرد والمجتمع في ذلة ومهانة ومسكنة وهذا ماتأباه النفوس العزيزة.
 - ٧- يفتقد الفرد والمجتمع معنى العبادة لله، لأن الشمول والتكامل هو في أن يسلم المؤمن سعيه وحياته كلها لرب العالمين فيلتزم صراطه المستقيم الذي دل عليه، ولا يحيد عنه بشيء من عمله مجردا وجوه سعيه جميعا نحو القبلة الواحدة التي تنتهي إلى الله .
- " إن العمل للدنيا والآخرة كفتي ميزان لا ترجح إحداهما إلا بمقدار ماتحمل الأخرى.

فالمطلوب من المؤمن أن يعمل ويجهد ويكافح، ويبني ويعمر ويشيد ويتلمس أسباب الرزق على أن تكون الآخرة نيته وغايته، وأمله.

فالمؤمن يتخذ الدنيا مزرعة للآخرة التي تحتاج الى عمل وسعي، ولكن الثمرة إنما تقطف كاملة في الآخرة، وإن أدرك بعضها في الدنيا.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

ذلكم هو المؤمن يسخر الدنيا لنفسه، ولا يسخر نفسه للدنيا، والمؤمن لا يتخذ الدنيا ربا فتتخذ الدنيا عبداً^(٢).

٨- قلة الانتاج بقلة الأيدي العاملة، فيقل الدخل ويترتب على ذلك قلة في الادخار والاستثمار، ثم أخيراً يحصل التضخم الاقتصادي.

٩- انخفاض مستوى المعيشة، وإهمال الموارد الطبيعية لقلة العاملين.

١٠- استيراد عمالة وبذلك يصبح المجتمع في نمو سالب لا هدف له.

(١) سورة الأعراف، آية ٣٢.

(٢) انظر: يوسف القرضاوي بتصرف، الإيمان والحياة، (القاهرة: مكتبة وهبه، طط الخامسة ١٣٩٧هـ)، ص ٢٩٥؛ الأرقام (٨ - ٩ - ١٠)، مجلة الحرس الوطني، السنة الرابعة، العدد ١٢٢، ربيع الأول ١٤١٤هـ، "التوكل على الله ودعوى القعود عن الكسب" بقلم د. أحمد الجنيدل.

الفصل الأول

التوكل على الله وعلاقته بالإيمان بالله

وفيه :

تمهيد.

المبحث الأول : التوكل على الله جزء من عقيدة المؤمن .

المبحث الثاني : التوكل على الله من أعمال القلوب .

المبحث الثالث : أحوال المتوكلين .

الفصل الأول

التوكل على الله وعلاقته بالإيمان

التمهيد :

إن التوكل على الله خصلة من خصال الإيمان وثمره من ثمار المعرفة بالله وهو نتيجة صدق التوحيد، الذي هو اعتقاد تفرد الله تعالى بالربوبية وإخلاص العبادة له، وإثبات ماله من الأسماء والصفات^(١)؛ لذلك فإن التوحيد هو الغاية المحبوبة والمرضية لله سبحانه وتعالى فلا بد من التصديق والتسليم والاستسلام والانقياد والإذعان .

والعقيدة هي من العقد، والتوثيق، والإحكام، والربط بقوة^(٢)؛ وعلى هذا فالتوكل على الله جازم الإيمان به ولا يتطرق إليه شك .

والعقيدة الصحيحة السليمة هي العقيدة التي بعث الله تعالى بها الرسل جميعاً، وارتضاها الله تعالى لخلقه جميعاً، وهي عقيدة واحدة لا تتجزأ؛ لأنها منزلة من عند العليم الخبير، وهي في أصله - الكتاب والسنة - ندية طرية صافية تقنع العقل بالحجة والبرهان، وتملأ القلب إيماناً و يقيناً و حياة.

ولقد خلق الخلق من أجل تحقيق هذه العقيدة، وهذا التوحيد، ولا يكون ذلك إلا بتوجيه العمل والنية والعبادة لمن يستحقها، والخضوع له عن رضا وتذلل ومحبة وإخلاص.

ومن الأعمال التي لا ينبغي توجيهها إلا له سبحانه وتعالى التوكل عليه فهو من لوازم الإيمان به جل شأنه، بل هو من صميم الإيمان، فالتوكل عليه من الطاعات الواجبة فمن آمن عمل الطاعات واجتنب النواهي .

(١) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني ومعه التوضيح، بقلم زهير الشاويش، (بيروت: المكتب الإسلامي، تط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، ص ٧٤-٧٦.

(٢) انظر: لابن منظور، لسان العرب: عقد، (٢٩٦/٣) .

فا "التوكل" نصف الدين، والنصف الثاني "الإجابة" فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإجابة هي العبادة^(١).

لذلك يجب صرف العبادة والاستعانة لله تعالى حتى يتم إيمان العبد ويخلو من شوائب الشرك وأدران الجاهلية إذ أن صرفه لغير الله شرك .

" والإيمان وراء ذلك كله، وهو حقيقة مركبة من معرفة ماجاء به الرسول ﷺ علما، والتصديق به عقدا، والإقرار به نطقا، والالتقياد له محبة وخضوعا، والعمل به باطنا وظاهرا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان"^(٢).

إذ لابد في هذا التوكل أن يترجم إلى واقع عملي ملموس؛ مطبق بالقول والعمل، والسلوك، والمظهر، والقيم والمبادئ؛ لأنه عقيدة لابد أن تعبر وتعلن عنها الجوارح ويترجمها السلوك والمظهر .

فالتوكل ليس مجرد عمل قلبي بل هو مع ذلك قول باللسان، وعمل بالجوارح، إذا فالتوكل عمل القلب، ولا ينافي حركة الجوارح، لأن القلب قد سكن إلى من له الأمر والتفت إليه وانقادت لذلك الجوارح فالتوكل فروعه منتشرة في كل مجال .

وبما أن التوكل تصديق وعمل فقد قرن الله تعالى الإيمان بالتوكل في آيات كثيرة مباشرة منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، (١١٨/٢).

(٢) ابن قيم الجوزية، الفوائد، تخريج وحواشي أحمد راتب عرموش، (بيروت: دار النفائس، تط ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، ص ١٤٠.

(٣) سورة المائدة، آية: ١١ .

(٤) سورة التوبة، آية: ٥١ .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(١).
 وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٤).

فالآية الكريمة التي في سورة آل عمران (١٢٢) نزلت في غزوة أحد^(٥) ونحن نعلم مالهذه الغزوة في نفوس المؤمنين فقد كلفتهم الكثير الكثير من الجراحات والآلام، وكلفتهم أن يروا رسولهم الحبيب وقد وقع وحصل له ما حصل في تلك الغزوة إلا أن الله حكما عظيمة في ماوقع للمؤمنين منها أنه أراد أن يمحس ويختبر صدق النفوس في القول والعمل والطاعة لله ولرسوله، ومدى تحملها للتكاليف الإيمانية، والاستعداد لالتزام الطاعة والاتباع ورد الأمر كله لله سبحانه.

لذلك جاءت الآية مناسبة للواقعة، وهي تستجيش وتربي النفس المؤمنة على الاعتماد على الله وحده (فالتوكل هنا تفويض الأمر إلى الله تعالى ثقة بحسن تدبيره فأمر الله عباده المؤمنين أن لايتوكلوا إلا عليه وأن لايفوضوا أمرهم إلا إليه)^(٦).

(١) سورة المجادلة، آية: ١٠ .

(٢) سورة التباين، آية: ١٣ .

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٢ .

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٦٠ .

(٥) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٩٨/١) .

(٦) علاء الدين علي بن محمد الشهير بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل وبهامشه تفسير

البغوي، ٤ ج، (بيروت: دار الفكر تط ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م)، (٤١٣/١).

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

الجزء من الآية يتضمن حادثة المجموعة التي همت يوم الحديبية أن تغدر برسول الله ﷺ وبالمسلمين وتأخذهم على حين غفلة ولكن اطلع الله النبي ﷺ على ماتمالئوا عليه^(٢).

فالله تعالى "يحذر المؤمنين، أن يخالفوا أمره وميثاقه، فيستوجبوا بذلك العقاب، وعلى الله فلنلق أزيمة أمورنا ونسلم لقضائه، ونثق بنصرته وعونه المقرون بوحدانيته ورسالة رسوله فذلك هو كمال الدين وتمام الإيمان"^(٣).

وفي الآيتين السابقتين فائدة عظيمة حينما قرن التوكل بوحدانية الله سبحانه وتعالى في لفظ الجلالة (الله) المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين؛ وذلك لتحفيز المؤمنين على التوكل عليه سبحانه، وفي كلمة التوحيد والإيمان استجاشة وتقوية على النهوض بتكاليف الشريعة، والتكاليف العليا، وحتى يكون هناك صلة عظيمة مع الله متجردة من كل النوازع المعوقة، وفي هذا الخطاب يظهر معنى التقوية للمؤمنين وطمانينتهم، وأن الله راعيهم وكالئهم وناصرهم على عدوهم لامحال.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

(١) سورة المائدة، آية: ١١ .

(٢) انظر : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥١/٢)؛ أحمد مصطفى المراغي، (٧٠/٢).

(٣) ابن جرير الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٤٧/٣).

(٤) سورة المائدة ، آية: ٢٣ .

تتضمن الآية الكريمة المعنى التالي " وعلى الله تعالى خاصة "توكلوا" بعد ترتيب الأسباب، ولا تعتمدوا عليها فإنها لا تؤثر من دون إذنه "إن كنتم مؤمنين"، المراد بهذا الإلهاب والتهييج، وإلا فإيمانهم محقق، وقد يراد بالإيمان التصديق بالله تعالى وما يتبعه من التصديق بوعده " إن كنتم مؤمنين " به تعالى مصدقين لوعده فإن ذلك مما يوجب التوكل عليه حتماً^(١).

" فإن في التوكل على الله - وخصوصاً في هذا الموطن - تيسيراً للأمر، ونصر على الأعداء، ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد؛ يكون توكله"^(٢).

كما أن هذه الآية الكريمة خبر من الله عز وجل وترغيب منه سبحانه وتعالى في المضي لأمره ثقة به وطاعة لأمره، فشرط الإيمان التوكل، ومن هنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف منه، وهذه قاعدة عظيمة ومهمة في علم القلوب ومنطق الإيمان ومقتضاه هو التوكل عليه سبحانه وهو خاصية الإيمان وعلامته.

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(٣) دليل إخلاص الاعتقاد والعبادة لله عز وجل فلا يمكن أن يجتمع في قلب واحد، توحيد الله، والتوكل على أحد غيره سبحانه؛ فالمؤمن الحق هو من يرجف قلبه عند ذكر ربه والقلب المؤمن يجد في آيات القرآن ما يزيده إيماناً وينتهي به إلى الاطمئنان، ثم إلى التوكل على الله وحده فنجد هنا الإيمان في صورة مشاعر وحركات فتجد الوجل، والخوف يملأ القلب، ويظهر الإيمان

- (١) العلامة الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٣٠ ج (بيروت: دار إحياء التراث العربي تط الرابعة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) ح (٥-٦) (١٠٧/٦).
- (٢) عبدالرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (١/٥١٥).
- (٣) سورة الأنفال، آية: ٢.

والإتكال على الله وحده سبحانه وتعالى ذلك أن الإيمان تصديق القلب وعمل الجوارح بمعنى هو كل ما وقر في القلب وصدق العمل، فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان الذي لا بد من ظهوره في المشاعر والجوارح، والمراد من الآية:

" أن حصول الخوف من الله والفرع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملين الإيمان، المخلصين لله فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان" (١).

فالآية متضمنة التحريض والإلهاب على طاعة الله ورسوله وهذه مزية لمن كمل إيمانه، فالمعنى أن المؤمنين الكاملين هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت آياته زادتهم وجلًا يفوضون أمورهم كلها إلى مالكهم ومدبرهم خاصة لا إلى أحد سواه.

فذلك الذكر بالقول والعمل يزيدهم علما مالم يكونوا قبل ذلك علموه، وتزيدهم الآيات عملا بذلك العلم، وتزيدهم تذكرا لما كانوا نسوه، وعملا بتلك التذكرة. فهذه الصفات المذكورة في الآية القرآنية لا يجدها في نفسه وعمله إلا المؤمن الحق، فمن لم يجدها جملة لم يجد صفة الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

(١) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، الجامع بين فني الرواية: والدراية: من علم التفسير، (بيروت: دار الفكر، الطبعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٥١.

(٣) سورة المجادلة، آية: ١٠.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

ففي الآيات الكريمة السابقة أن التوحيد والتوكل على الله تعالى هو اختصاص المؤمنين الموحدين المتوكلين فهم يفعلون ما هو حقهم من اختصاصه جل شأنه بالتوكل الكامل، وما هذا إلا نتاج الإيمان المتغلغل في قلوب المؤمنين^(٢).

"إن الألوهية مقتضية للتبطل إليه تعالى بالكلية، وقطع التعلق بالمرء عما سواه من البرية، وذكر بعض الأجلة أن تخصيص المؤمنين بالأمر بالتوكل، لأن الإيمان بأن الكل منه تعالى يقتضي التوكل، ومن هنا قيل: ليس في الآيات لمن تأمل في الحث على التوكل أعظم من هذه الآية لإيمانها إلى أن من لا يتوكل على الله تعالى ليس بمؤمن وهي على ما قال الطيبي كاختمه، والفذلكة لما تقدم، وكالمخلص إلى مشرع آخر"^(٣).

فتوحيده سبحانه وإخلاص العمل له والتوكل عليه إيماء إلى أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه ولا يتقوى إلا به في جميع أموره، فلا قادر إلا هو عز وجل فمن خلال الآيات القرآنية علم أن التوكل مقام من مقام المؤمنين الذين يعملون لتحقيق معنى التوحيد لله، وإخلاصه له سبحانه؛ فعلم أن في ربط التوكل بالإيمان وقرنه به من المبالغة في الحث عليه؛ لأنه من توابعه ومقتضياته، فالتوكل على الله له منزلته، والتوكل على الله لا بد أن يصفو به اليقين ويثبت بحقائق العمل، ويثبت في عقود الإيمان؛ لأن الإيمان الصادر من القلب لا يساويه في القوة والتأثير أي باعث آخر.

فالإيمان المتعمق في القلب هو في ظاهره يدل على سلامة إيمان المرء الذي يؤمن أن هناك ربا لا بد من توحيد ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ونعمل بهذا

(١) سورة التغابن، آية: ١٣

(٢) انظر: ناصر الدين أبي سعيد عبدالله الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (دار الجيل بدون تط) ص ٢٥٦ .

(٣) الألوسي - روح المعاني، ج (٢٧-٢٨)، (١٢٦-١٢٥/٢٨) .

التوحيد لننال سعادة الدنيا والآخرة، ولا يتحقق معنى التوكل الكامل إلا على وجه يوافق الشرع، وما جاء في الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ فهو القدوة والمثل الأعلى، وهو المبين والمفسر لما أجمل وخفي على أمته، ثم من أتى بعده واحتذى بسنته، فهم من رأوا وحضروا الوقائع والأحداث ومن جاء بعدهم من السلف الصالح الذي كان يتحرى الأخبار الصحيحة فعرف وعرف ما علموه وأوضحوه لنا.

المبحث الأول

التوكل على الله جزء من عقيدة المؤمن

إن عقيدة المؤمن مليئة بقضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل، وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(١).

فقضية الخلق من القضايا المسلمة بالعقل، فهو الرب العظيم الذي خلق وربى ودبر وهدانا إلى التقوى.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(٢)، وبهذه الآية الكريمة نستدل على أنه سبحانه وتعالى الخالق لهذا الكون الفسيح ومنه :

"تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود"^(٣)، وكذلك من قضايا الحق علم الله وقدرته وغناه وإفتقار العبد إليه سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثُوبَكُمْ﴾^(٤).
وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(٥).

(١) سورة الأنعام، آية ١٠٢.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦١.

(٣) البيضاوي، تفسيره، ص ٥٣٣.

(٤) سورة محمد، آية: ١٩.

(٥) سورة طه، آية: ٧.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢).

فالآيات القرآنية السابقة دالة على أن الله هو المعبود ذو العلم والقدرة المحيطة بكل شيء، والغني عن خلقه، وخلق في حاجة إليه فبالله وحده عليه توكله واعتماده وإنابته إليه.

قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٣).

فالتوكل قضية مهمة في عقيدة المؤمن فلا بد من عقد هذه القضية وتوثيقها وإحكامها وربطها بقوة في قلب المؤمن، فمنها يصلب ويشتد المؤمن ويقوى على امتثال أمر الله وسننه في الكون؛ لذا تقرر على الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان أن تزن الأمور جميعها بميزان الإيمان والعقيدة، وأن تدرك الأمور ببصيرة المؤمن وقلبه وترى بنور الله، ولا تستهين بذلك لأنه في :

" ظل العقيدة الإسلامية الصحيحة يتحقق الأمن والحياة الكريمة، ذلك أنها تقوم على الإيمان بالله، ووجوب إفراده بالعبادة القلبية والعملية دون سواه، وذلك بلا شك - سبب الأمن والخير والسعادة في الدارين. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤). فهذا مصير أهل الإيمان"^(٥).

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٩ .

(٢) سورة فاطر، آية: ١٥ .

(٣) سورة النمل، آية: ٧٩ .

(٤) سورة الأنعام، آية: ٨٢ .

(٥) انظر: لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، في ظل الشريعة الإسلامية يتحقق الأمن والحياة الكريمة للمسلمين، (الرياض: دار إمام الدعوة تط الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، ص ٦-٣٠.

فمتى سلمت العقيدة يسلم معتنقها من الانحراف واتباع الهوى وينشرح صدره للنور المبين.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾^(٢).

فهذا النور يلمسه المؤمن ويشعر به، ويؤمن أن هناك قوة مدفونة في قلبه ألا وهي الثقة في الله والتوكل عليه في أموره كلها.

وقضية التوكل ثابتة بالكتاب والسنة المطهرة ولا بد من اليقين الجازم، والرضى، وإعلان هذه القضية العقدية الأخلاقية بالقول والعمل بمعنى أن يكون الظاهر مطابقاً للباطن.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

والتوكل من لوازمه أن يصدر من أعماق قلب الشخص، وتكون قوة اليقين بحسب تغلغله في القلب، وبمقدار مافيه من صدق خال من الشكوك، والعوارض المرضية فعمل المؤمن لا يخرج عن اثنين: أحدهما: أعمال قلبية، وثانيهما: أعمال مختصة بالجوارح بينهما من الارتباط ما هو معلوم، فالتوكل من الأعمال والعبادات

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢.

(٢) سورة النساء، آية: ١٧٤.

(٣) سورة فصلت، آية: ٣٣.

التي تظهر على الجوارح بعد ثبوته في قلب العبد المؤمن ، يقول الإمام ابن قيم الجوزية^(١) في معنى التوكل:

قال أبو تراب النخشي^(٢): (هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية. فإن أعطى شكر، وإن منع صبر)^(٣).

فالإيمان بالله تعالى من أعمال القلوب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٤).

فالآية دليل على أن دخول الجنة منوط بما هو معقود من إيمان صحيح بالقلب يتبعه العمل الصالح معاً، فالمؤمن برحمة ربه جدير بدخول الجنة جزاء وفاقاً لإخباته، وإنابته، وتوكله، وإخلاصه لربه في السر والعلن، وفي هذا يكون (الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان، وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب، وانقياده، ومحبه فلا ينفع ظاهر لا باطن له، وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف وهلاك. فتخلف العمل ظاهراً مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته، فالإيمان قلب الإسلام ولبه، واليقين قلب الإيمان ولبه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول، وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول)^(٥)، (وقد روي أن النبي ﷺ قال لسفيان بن

(١) هو شمس الدين، أبو عبدالله، محمد بن أبي بكر ابن أيوب الزرعي، ولد سنة ٦٩١ هـ، وتوفي سنة ٧٥١ هـ، من كتاب الفوائد ترجمة في المقدمة .

(٢) أبو تراب النخشي أحد أعلام المتوكلين؛ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني، مج ٩-١٠، (١٠/٤٥).

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، (١٢١/٢).

(٤) سورة البقرة، آية: ٨٢.

(٥) ابن القيم، الفوائد، ص ١١٢.

عبدالله^(١) الثقفى وقد قال له يارسول الله: " قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: قل آمنت بالله ثم استقم"^(٢)،
(فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب
وصدقته الأعمال)^(٣).

وقد ظهر في خطاب القرآن الكريم للمؤمنين أن معظم التكاليف والأخلاق والآداب الشرعية السلوكية مبنية على تحقق القاعدة الإيمانية لدى المخاطبين بها، فأكثر هذه التكاليف نجدها مصدرة بنداء الله عز وجل المحبب للمؤمنين: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

فمنها قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ...﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٥) وغيرها كثير.

فالعقيدة كما اتضح لنا لها تأثير على السلوك بوجه عام فهي حافز في عمق كل مؤمن والرسول - ﷺ - هو المثل والقوة في ذلك .

ومن وجهة نظري فإن الإيمان الحق هو الذي يشتمل على ركيزتين هامتين والله أعلم في ذلك :

(١) سفيان بن عبدالله الثقفى ولد سنة ٩٧، توفي سنة ١٦١؛ من كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر، (٣/ ٤٠٠).

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم، (القاهرة: دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ، وببيروت: دار الكتب العلمية ١٣٤٩هـ)، (٣٨).

(٣) انظر: الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، تحقيق ناصر الدين الألباني، (الكويت: دار الأرقم بدون تظ) ص ٤٣.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٨ .

(٥) سورة الأنفال، آية: ٢٤ .

أولاهما: العقيدة الثابتة التي لا يخالطها شك.

وثانيهما: العمل الذي يصدق العقيدة وهو ثمرتها.

فالتوكل عمل قلبي إذا صدق ظهر على جوارح العبد المؤمن، وهذا مانراه

في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١).

فتدل الآية على أن مقولة الناس لهم زادتهم إيماناً بالله وثقة به "فزادهم ذلك من تخويف من خوفهم يقينا إلى يقينهم، وتصديقاً لله، ولوعده ووعده رسوله إلى تصديقهم فقالوا ثقة بالله وتوكلاً عليه "حسبنا الله ونعم الوكيل" يعني يكفيننا و"نعم الوكيل" ونعم المولى لمن وليه وكفله"^(٢).

فالقلب المؤمن إذا انطوى على اليقين والثوق به سبحانه وتعالى، تأكد من أن الله لن يضيعه، وما تلك المقولة إلا تعبير صادق عن إيمانهم. أي أن الله كافينا ما يهمننا من أمر الذين جمعوا لنا فما علينا إلا العمل بما أمر، والتوكل عليه، وتفويض جميع أمورنا إليه سبحانه عز وجل .

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٢) ابن جرير الطبري، تفسيره، (٣٦٤/٢).

(٣) سورة النساء: آية: ٨١ .

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

ففي الآيتين بيان أن مقام التوحيد لا يتحقق إلا بفعل الطاعات، وطاعتنا لأمر رسول الله ﷺ هي من العبادات؛ لأنه مرسل من رب العباد، ومقام التوحيد العظيم هو طاعة الله الذي أمر به وهو من طاعة رسوله المبلغ عنه .

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾^(٢).

فطاعته قد تغلغت في أعماق النفوس، وتجذرت في القلب، وبهذا يكون الإيمان والعقيدة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنفوس، وهذا ما دلت عليه الآيتان .

والقرآن العظيم كله دعوة إلى التربية والأخلاق التي لا يمكن الاستغناء عنها بل هي من الأمور الأساسية التي لا بد منها لاستقامة الإنسان في الحياة لينال سعادة الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣).

فإنه تعالى يرغب عباده في العمل الصالح المبني على الإيمان بالله الذي هو أساس في قبول الأعمال، ويترتب عليه سعادة الدارين، فالعمل إذا لم يكن مقروناً بالإيمان لا ينفع صاحبه.

ومن هذه الأعمال والأخلاق والعبادات ما تدعو إلى صفاء النفس وتهذيبها أو إلى حسن السلوك مع الآخرين.

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٩ .

(٢) سورة الحشر، آية: ٧ .

(٣) سورة النحل، آية: ٩٧ .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝﴾ (١).

"فهذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام... (٢)؛ فالسورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله تعالى، أو مع الرسول ﷺ أو مع غيرهما من أبناء جنسهم... (٣)".

فهذه الآداب والأخلاق قواعد يتعامل بها المؤمنون مع أنفسهم أولاً، ثم مع الآخرين ولاسيما إذا كان من يتعاملون معه هو الرسول النبي الأمي ذو المكان والمقام الرفيع عند الله تعالى.

والآداب القرآنية كما ذكرنا كثيرة وفي اتجاهات عديدة، ولهذا نرى الإسلام يأمر بالأدب في المأكل والمشرب والمشى وفي التواضع، وعند الكلام، وعند المقابلة، وتجميل الباطن وتحسينه، والسعي إلى معالي الأمور مثل الأعمال العلمية، وعمل الخيرات ومكارم الأخلاق التي يمدح فيها الناس.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٤).

(١) سورة الحجرات، آية: (١-٣).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣١٥/٤).

(٣) انظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار الفكر، ط الثالثة ١٤٠٥هـ)، (مج ١٤) (١١٨/٢٨).

(٤) سورة المطففين، آية: ٢٦.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ...﴾ (١٩).

وقال الرسول الكريم لأبي سلمة "يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك" (٢).

وعن الكلام، قال تعالى: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (٣).

وعند المقابلة والنهي عن تصغير الخد، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ (٤).

فهذه الآداب إذا ركزت فهي قواعد، وإذا صلبت فلن تحيد ولن تضطرب وإذا لم يهتم الإنسان بتلك القواعد ولم يعرها اهتمامه فستحكم حياته الفوضى ويعمها اللامبالاه وذلك لأن الحافظ والمؤثر الأساسي مفقود.

فالأخلاق السابقة عظيمة تدعو إلى الإيمان مع ربطها بخلق إسلامي عظيم فإن أخلاق الإسلام منتشرة في رحاب كتاب الله الخالد إلى يوم القيامة تدعو إلى أنبل قصد وأسمى غاية، ونخص بالذكر هنا خلق التوكل، فالقرآن يدعو إليه بشتى الأساليب.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١).

(١) سورة لقمان، آية: ١٨-١٩ .

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني، (٤٥١/١١)، كتاب الأطعمة.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٩ .

(٤) سورة لقمان ، آية: ١٨ .

ففي الآية المؤمن الحق هو المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس تذكر أن الله وليه فيفر اليأس منه، ويعلم أن الله له ملكوت كل شيء.

"فكفاية الله تجلت في الهدوء والطمأنينة فأصبح ضبط النفس وسماحة القلب، وإقامة العدل ميسورة، ويستحي المسلمون أن لا يفوا بميثاقهم مع الله، وهو يرعاهم ويكفؤهم، ويكف الأيدي المبسوطة إليهم" (٢).

وهناك أساليب دعت إلى التوكل على الله مستوحاة من التربية القرآنية نذكر منها هنا مايفيد البحث على سبيل الإيجاز والقصر فمن أهمها:

١- الأمر الصريح بالتوكل على الله تعالى.

٢- ثناء الله على المتوكلين .

٣- أنه من صفات الأنبياء والمرسلين .

٤- وعد الله بكفاية من توكل عليه .

٥- كونه شرطاً في تحقيق الإيمان .

أولاً: الأمر الصريح بالتوكل على الله :

التوكل من خلق رسولنا الكريم ﷺ فقد رسخ عقيدة وخلقاً، فأمر تعالى رسوله بالتوكل عليه، فسأذكر آيات فيها أسلوب الأمر على سبيل الإيجاز لا الحصر.

(١) سورة المائدة، آية: ١١ .

(٢) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٨ مج (جده: دار العلم للطباعة، تط ١٢-١٤٠٦هـ) —

١٩٨٦م، (٢/٨٥٤).

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

والتوكل من خلق رسولنا الكريم ﷺ فقد رسخ عقيدة وخلقا وربى الرعيل الأول رضوان الله عليهم على التوكل على الله فرسخ وتمكن من قلوبهم.

فالآيات الكريمة السابقة جميعها أمر من الله تعالى لنبيه بالتوكل عليه وللمؤمنين تبع له.

فالآية من سورة النساء أمر من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم بالإعراض عن المنافقين .

"فاعرض عنهم قلل المبالاة بهم أو تجاف عنهم وتوكل على الله في الأمور كلها لاسيما في شأنهم وكفى بالله وكيلا يكفيك معرفتهم وينتقم لك منهم"^(١).

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٢) سورة النساء، آية ٨١.

(٣) سورة الأنفال، آية ٦١.

(٤) سورة هود، آية ١٢٣.

والآية من سورة هود أمر بالتوكل فالله تعالى كافي رسوله كل ماكره ومعطيه كل ما يحب، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة، والتوكل على أن مرجع الأمور كلها إلى الله سبحانه^(٢).

فها هو القرآن منهج تربية للنفس والمجتمع ولاسيما إذا كانت تلك النفس هي نفس محمد ﷺ ومجتمع كمجتمع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فالآية تتضمن معنى " لا تهتك سترهم ولا تفضحهم ولا تذكرهم بأسمائهم، وإنما أمر الله ستر أمر المنافقين إلى أن يستقيم أمر الإسلام، ثم قال (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) في شأنهم، فإن الله يكفيك شرهم وينتقم منهم (وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) لمن توكل عليه"^(٣).

والرسول ﷺ من أكثر الناس توكلا على ربه العلي القدير وهذا مايدل عليه موقفه ﷺ يوم الخندق ومابلغهم من تأمر قريش وأحزابهم وحلفائهم، فوقف ﷺ موقف المتوكل على الله في اموره وأحواله.

قال تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ (٤)﴾.

(١) البضاوي، تفسيره، ص ١١٩ .

(٢) الشوكاني، فتح القدير، (٥٣٥/٢).

(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، (٢٠١/١٠).

(٤) سورة الأحزاب، آية ١-٣.

"واكتف بالله وكيلا أي حافظا موكولا إليه كل أمر. أو المعنى: وكفى به
وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه"^(١).

(١) ابن عاشور، الأساس في التفسير، (دار السلام، تط الثانية، ١٤٠٩هـ)، (٤٣٨٦/٨).

ثانياً: ثناء الله على المتوكلين :

إن القرآن تنزيل من رب العالمين، وفيه ما يثير النفس ويدعو للتتبع والتأمل ففي ثناء الله ما يدعوا إلى الحث على فعل الشيء والقرآن حين يستخدم أسلوب الثناء فإنه يخبر بأن العاقبة حسنة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١).

إن الله تعالى إذا أحب عبداً رزقه طاعته فيمتلئ قلب العبد معرفة بالله وخوفاً ومهابة وإنابة وتوكلاً ولا يبقى في القلب إلا الله ولا تستطيع الجوارح إلا موافقة المحبوب.

فإن الله تعالى يحب الراضون بقضائه والمستسلمين لحكمه المتوكلين عليه في أمورهم جميعها^(٢).

وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٣).

"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ففوض أمرك إلى الله يا محمد، وثق به فيها، فإنه كافيك "إنك على الحق المبين" لمن تأمله، وفكر مافيه بعقل، وتدبره بفهم، أنه الحق"^(٤).

فالآية فيها تعليل صريح للتوكل عليه بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق المبين^(٥).

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان، (٣٥٥/٢).

(٣) سورة النمل، آية ٧٩.

(٤) المصدر السابق، (٥٨١/٥).

(٥) أبي السعود، إرشاد العقل السليم، مزايا الكتاب الكريم، (٢١٥/٤).

وبهذا فالقرآن يغرس الإيمان والتوكل ويربي ويعلم كيف يكون حسن الإيمان والتوكل، والآيات والشواهد القرآنية كثيرة لايسمح المجال لذكرها لذلك كان الاختصار على بعضها .

ثالثاً : كونه من صفات الأنبياء والمرسلين :

أمر تعالى الأنبياء السابقون بالتوكل عليه وجعلوه نبراس حياتهم ليمضوا في طريق الدعوة.

قال تعالى: ﴿ وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّأْتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾^(١).

وقال تعالى على لسان موسى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَتَقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾^(٢) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٣)، وفي الآية من قول نوح :

" خبره مع قومه إذ قال لقومه إن عظم عليكم وشق كوني إقامتي بينكم مدة مديدة أو قيامي على الدعوة وتذكيري إياكم بآيات الله (فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ) وثقت به (فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ) فاعزموا عليه وشركاءكم أي مع شركائكم فاجمعوا من الجمع والمعنى أمرهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم، ثم لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ستره، واجعلوه ظاهراً مكشوفاً من غمة إذا ستره (ثُمَّ لَا

(١) سورة يونس، آية: ٧١.

(٢) سورة يونس، آية: ٨٤-٨٥.

يَكُنْ) حالكم عليكم غما إذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري ثم (أَقْضُوا) أدوا إلي ذلك الأمر الذي تريدون ثم انتهوا إلى بشركم أو ابرزوا إلي (وَلَا تُنْظِرُون) ولا تمهلوني فإن أعرضتم عن تذكيري فما سألتكم من أجر يوجب توليكم إن أجري وثوابي على الدعوة والتذكير إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره" (١).

وفي الآية الثانية من نفس السورة قول موسى: "يا قوم إن كنتم آمنتم بالله عليه توكلوا فثقوا به واعتمدوا عليه إن كنتم مسلمين مستسلمين لقضاء الله مخلصين له، ولأنهم كانوا مؤمنين مخلصين قالوا توكلنا على الله، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيهه على أن الداعي ينبغي أن يتوكل أولا لتجابه دعوته" (٢).

وأمر هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣).

وأمر شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ ارْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَّا مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٤).

(١) البيضاوي ، تفسيره ، ص ٢٨٤ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٦ .

(٣) سورة هود، آية ٥٦ .

(٤) سورة هود، آية ٨٨ .

وأمر إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

وأمر يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٢).

وأمر نبي الرحمة المهداة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾^(٣).

فالآيات جميعها دالة على أمر الله تعالى لأنبيائه بالتوكل والاعتماد عليه سبحانه في سبيل نشر دعوتهم دعوة الحق وبذل الجهد والسعي لأجل إعلانها.

(١) سورة الممتحنة، آية ٤.

(٢) سورة يوسف، آية ٦٧.

(٣) سورة الرعد، آية ٣٠.

رابعاً : وعد الله بكفاية من توكل عليه :

إن القرآن الكريم بهذا الأسلوب يدعو إلى التمسك بالتوكل على الله، فمن أصاب التوكل في أعماله جاءت به بعد ذلك كل الوعود التي وعد بها سبحانه عباده لمن تمسك بالتوكل وجعله صبغة أفعاله، فالمؤمن يتلقى أوامر ربه ويلقيها على جميع جوارحه، فإن أطاعته هذه الجوارح وخضعت نال مراده من رب العباد عاجلاً أم آجلاً.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(١).

فإنه تعالى في هذه الآية يكفل لحبيبه ﷺ أموره تجاه مخالفيه وأعدائه من أهل الكتاب والمنافقين .

"(وتوكل) أنت يا محمد "على الله" يقول أو فوض أنت أمرك إلى الله، وثق به في أمورك، وولها إياه، "وكفى بالله وكيلاً" يقول وكفاك بالله . أي: وحسبك بالله. "وكيلاً" أي فيما يأمرك، ووليا لها، ودافعا عنك وناصرًا"^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ

(١) سورة النساء، آية ٨١ .

(٢) ابن جرير، جامع البيان، (٥١٢/٢).

(٣) سورة النساء، آية ١٣٢ .

أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا^(١).

ففي الآيتين معنى اتخاذ سبحانه وكيلًا ولانتوكل على غيره^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٤).

وفي الآيتين معنى أنه سبحانه متصرف بكيفية كفايته تعالى للمؤمنين في سلب قدرة الأعداء من الإنس والجن على الإغواء^(٥).

"أن الوكيل: من يتوكل عليه، فتفويض الأمور إليه، ليأتي بالخير ويدفع الشر، وهذا لا يصح إلا لله وحده جل وعلا، ولهذا حذر من اتخاذ وكيل دونه، لأنه لانافع ولاضار، ولاكافي إلا هو وحده جل وعلا، عليه توكلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل"^(٦).

فأقول وبالله التوفيق: إن التوكل على الله هو أن يعلم المؤمن أن الله قد ضمن وكفي له الرزق وغيره فيصدق الله فيما ضمنه وكفاه إياه ويثق بقلبه ويحقق الاعتماد عليه سبحانه فيما ضمنه وكفاه.

(١) سورة النساء، آية ١٧١.

(٢) انظر: ابن جرير، المصدر السابق، (١٧٠/٢).

(٣) سورة الإسراء، آية ٦٥.

(٤) سورة الأحزاب، آية ٣.

(٥) أبو السعود، إرشاد العقل، (٣٤١/٣)؛ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، (المكتب

الإسلامي، تط الثالثة ١٤٠٣هـ)، (٦٠/٥).

(٦) الشنقيطي، أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، (بيروت: عالم الكتب)، (٤٠٤/٣).

خامسا: كونه شرطا في تحقيق الإيمان وشعبه:

إن المتتبع لآيات القرآن الخاصة بالتوكل يلحظ أن الله تعالى كثيرا ما ربط التوكل بالإيمان وبالإسلام.

ففي قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ اللَّهُ وَعَلَىٰ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِأَيَّتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ١١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢٣.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٤٩.

أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَاقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ فقالوا على الله توكَّلنا ربَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾

فمن خلال هذه الآيات التي استعرضناها نجد أن الله تعالى قد قرن بين التوكل ومراتب الدين: الإيمان، والإسلام، والإحسان، فعلى ذلك نقول إن التوكل هو جماع الإيمان، وما هذا إلا إشارة إلى علو منزلة التوكل على الله، والتوكل كما أشرنا عمل قلبي، والقلب موضع الإيمان الأصلي .

" فاصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لاتنفع بدونها؛ والدين القائم بالقلب من الإيمان علما وحالا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع، وهي كمال الإيمان، فالدين أول ما يبتديء بأصوله ويكمل بفروعه" (٣).

وكذلك الآيات دالة على أن المؤمن الحق هو من يتذكر أن الله تعالى وليه ووكيله، فينصره بما يستفيد من الإيمان والذكر والتقوى، ولاتحصل حقيقة التوكل إلا بالسير على سنن الله في نظام الأسباب والمسببات؛ لأن من يوكل الأمر إلى الله يجب أن يطاع، ومن تتكبد سنن الله سبحانه وتعالى في العالم خالف شرعه فيما أمر به من عمل نافع ونهى عنه من عمل ضار لا يصح أن يسمى متوكلا عليه وانقا به فكل من تابع وأطاع أمر الرسول ﷺ ووافقه فسيكون الظفر والنصر وكلما دخل الكم الهائل من طاقة لطاعة الرسول في القلوب فسوف يصل إلى الكسب؛ لأن الأمر منه وإليه

(١) سورة يونس، آية: ٧١ .

(٢) سورة يونس، آية: ٨٤-٨٥.

(٣) أحمد بن تيمية شيخ الإسلام، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد (تط الأولى ١٣٩٨هـ)، (١٥/١٠).

سبحانه وتعالى، " فعلى الله وحده يتوكل المؤمن، وهذه خاصة الإيمان وعلامته، وهذا منطوق الإيمان ومقتضاه" (١).

قال تعالى: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (٢)، إن خلق التوكل لا يكون إلا بعد بذل الوسع في مراعاة السنة وامتثال الأمر، والله تعالى هو الموكول إليه كل شيء ولا يكون ذلك إلا بالإيمان والإذعان والاستسلام والاطمئنان، قال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٣)، والتوكل هنا بالتفويض وترك الاختيار.

كذلك ربط الله سبحانه وتعالى آيات الوجدانية والعبادة له وإخلاص الأمر والتقوى بالتوكل.

قال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤).

والمعنى في جملة " إني توكلت " تعليل المضمون " فكيدوني " وهو التعجيز والاحتقار بمعنى أنه واثق بعجزهم عن كيدته؛ لأنه متوكل على الله، فهذا معنى ديني قديم، وأجرى على اسم الجلالة صفة الربوبية استدلالاً على صحة التوكل عليه في دفع ضررهم عنه، لأنه مالكهم جميعاً يدفع ظلم بعضهم بعضاً وجملة { مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا } في محل صفة لإسم الجلالة أو حال منه، والغرض منها مثل الغرض من صفة الربوبية ... وجملة { إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } تعليل لجملة { إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ } أي توكلت عليه لأنه أهل لتوكلي عليه، لأنه متصف بأجراء أفعاله على طريق العدل والتأييد لرسله (٥).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٢/٨٧٠).

(٢) سورة هود، آية: ١٢٣.

(٣) سورة هود، آية: ٨٨.

(٤) سورة هود، آية: ٥٦.

(٥) انظر لمحمد طاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٢/١٠٠-١٠١).

فذكر التوكل أولاً لأنه من أعلى مقامات التوحيد ومن لوازمه ومقتضياته.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٤).

فهذه المواضع جمعت العبادة والتوكل والاستعانة، فالله تعالى لم يأمر بالتوكل فقط، بل أمر بالتوكل وعبادته التي تتضمن فعل مأمور وترك مانهى فالعابد لله عبودية تامة متوكل عليه فهذا هو من عرف الطريق ولزم الجادة^(٥)، فالتوكل لن يكون صحيحاً إلا إذا وجدت العبادة الحقة لله سبحانه، وقام العبد بخصائصها على أكمل وجه.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٦) وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٦).

(١) سورة هود، آية: ١٢٣.

(٢) سورة الممتحنة ، آية: ٤ .

(٣) سورة الرعد، آية: ٣٠.

(٤) سورة الشورى، آية: ١٠.

(٥) انظر: لشيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٥٢٧/٨).

(٦) سورة إبراهيم، آية: ١١-١٢.

ومفهوم الآية أن المؤمن لن يبلغ ماله من خلافة إلا بإذن ربه؛ لأن جماع الأمر كله بيده سبحانه. وقد قرن التوكل بالمؤمنين تأكيداً على اقتران التوكل بالإيمان تأكيداً على اقتران التوكل بالإيمان وبه تخلص الأعمال من وساوس الشيطان.

وليس للشيطان سبيل على المؤمنين المتوكلين وهذا ما دللت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١).

"إنه لا تسلط للشيطان على الذين يصدقون ببقاء الله ويفوضون أمورهم إليه، وبه يعوذون وإليه يلتجئون، فلا يقبلون ما يوسوس به ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته"^(٢).

إن الاعتراف بالعبودية لله تعالى وتوحيده عز وجل لهو مخرج لكل إنسان من الابتلاء، ولا سيما إذا كان هذا العبد هو المؤمن، فما من سراء أو ضراء إلا ويعلم المؤمن أنها من الله ويحسبها على الله تعالى وهذا هو خلق المتوكلين، وهذا ما دللت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٤).

(١) سورة النحل، آية: ٩٩ .

(٢) المراغي، تفسيره، (١٤٠/٥).

(٣) سورة الزمر، آية: ٣٨ .

(٤) سورة الشورى، آية: ٣٦.

وفي رواية " عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: " **إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يقال حينئذ: هديت وكفيت ووقيت فتنتجى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي؟**"^(١).

فجميع المواضع التي ذكرت التوكل مقرونا بالوحدانية والعبودية في القرآن فيها معنى عظيم؛ أنه بعد إقرار الوحدانية والعبودية له سبحانه وتعالى، لاتمنع التوكل عليه، بعد أن أرانا الهدى والطريق القويم وعلى ذلك فليس للشيطان ولاية ولا طاعة على العبد المؤمن لأنه قد آمن وأقر بالوهية الله سبحانه وتعالى وأخلص له الجنب، وهذا كله من أحوال القلب وأعماله وما يكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه لذلك فإن التوكل محض العقيدة الصحيحة؛ لأنه فريضة على العباد.

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾^(٢)، وفي هذا أمر لرسول ﷺ ولأمته من بعده إلى يوم القيامة.

" فالعبادة هي مايراد به وجه الله من كل عمل لا يكمل إلا بالتوكل الذي يكمل به التوحيد"^(٣).

والناس تتفاضل في التوكل، وكذلك في الإيمان، ويكون ذلك على قدر اليقين الذي عندهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٤).

(١) أبوداود (٥٠٩٥) واللفظ له؛ الترمذي (٢٤٢٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وقال محقق "جامع الأصول" ٢٧٤/٤: وهو حديث صحيح.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٥٨.

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٢٠ مج (بيروت: دار الفكر، تط الثانية بدون)، (١٩٧/٢).

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢.

فعلى قدر الإيمان واليقين يزيد التوكل رسوخا وثباتا في القلب " والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية" ^(١) وصية منه لعباده المؤمنين بالتوكل الذي هو ذروة الإيمان، ومن أعلى درجاته، فعلى أن نقيم العهد على رسوخه والعمل به في أمورنا كلها دنيوية ودنيوية، فهو يهيئ صاحبه للفوز بصحبة الأخيار في الفردوس الأعلى " فالله لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك" ^(٢).

فالتوكل عقيدة لا بد من الحرص على سلامتها ونبذ كل شبهة؛ لأن العقيدة لا تسلم إلا بإخلاص العبودية لله تعالى ويكون المرء بعد ذلك محققا مضمون تلك العبودية إرادة ومحبة وتوكلا، وإنابة وإخباتا وخشية ورجاء، كما حققها سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم علما وعملا.

(١) ابن قيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، مجلد (الرياض: المطابع الإسلامية

العربية، تط ١٤١٣هـ)، ص ٢٥٥.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١/١١٣).

المبحث الثاني

التوكل على الله من أعمال القلوب

لما كان القلب للأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، كانت جميع الأعمال صادرة منه يستعملها فيما شاء فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم^(١)، "وسمي القلب قلباً لتقلبه في الأمور، أو لأنه خالص مافي البدن، وخالص كل شيء قلبه، أو لأنه وضع في الجسد مقلوبا وفي الحديث "عن النعمان بن بشير يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول إلا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"^(٢).

"فالقلب خص في الحديث لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية ويفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على إصلاحه"^(٣).

فالأصل في الاتقاء والوقوع هو ما كان بالقلب، لأنه عماد ذروة البدن؛ قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٤).

(١) انظر: لابن رجب الحنبلي، وابن القيم، أبي حامد الغزالي، تركية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف، جمع أحمد فريد، تحقيق ماجد بن أبي الليل (بيروت: دار القلم تط الأولى، ١٤٠٥هـ)، ص ٢٤.

(٢) انظر: لصحيح البخاري مع فتح الباري، (١/١٦٨) كتاب الإيمان، ومسلم في المساقاة من حديث النعمان بن بشير.

(٣) انظر: لابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (١/١٧١).

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٤.

فالآية: دليل على أن الإيمان من عمل القلب والإسلام من عمل اللسان، وإذا كان عمل القلب لم يدخل ويستقر فليس ذلك إيمان لأنه سبحانه وتعالى قد عبر بكلمة " في " وهي دالة على أن الإيمان لا بد أن يغشي القلوب ويأسرها^(١).

فالقلب ملك، منفذ يأمر النفس، وهو المسئول عنها؛ لأن كل راع مسئول عن رعيته ويستدل من قوله تعالى: ﴿ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾^(٣)، "على أن العقل في القلب، وعبر عنه بالقلب لأنه محل استقراره، وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب، فمن هنا يمكن أن ترد جميع الأحكام إليه"^(٤)؛ لأن القلب يوصف بالحياة وضدها، وهو بذلك ثلاثة أقسام:

(الأول: القلب الصحيح السليم، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾^(٥) إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾^(٦)، وهو القلب الذي خلص لله في عبوديته إرادة، ومحبة، وإنابة، وإخباتاً، واستعانة، وتوكلاً.

الثاني: القلب الميت وهو القلب الذي لا يعرف ربه، ولا ياتمر بأمر الله، لا يستجيب إلا لشيطانه وهو اه .

الثالث: القلب المريض وهو القلب الذي به حياة وبه علة تمده هذه مرة وهذه أخرى. وهو لما غلب عليه منهما وفيه ماهو مادة حياته من محبة الله، والإيمان به، والاخلاص له والتوكل عليه، وفيه ماهو مادة هلاكه وفساده من محبة الشهوات، وإيثارها، والحرص على تحصيلها)^(٧).

(١) انظر: للإمام الرازي، مفاتيح الغيب، مج ٤، (١٤٢/٢٨).

(٢) سورة الحج، آية: ٤٦ .

(٣) سورة ق، آية: ٣٧ .

(٤) انظر: لابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (١٧٢/١).

(٥) سورة الشعراء، آية: ٨٨-٨٩.

(٦) انظر: لجماعة من العلماء، تزكية النفوس، ص ٢٥ .

فالقلب الأول : حي مخبت، لين واع، والثاني: يابس ميت، والثالث: مريض؛ فإما إلى الفلاح أدنى، وإما إلى الهلاك أدنى فمن أراد صفاء قلبه وإخباته وسلامته فليؤثر الله على شهوته وشيطانه فالقلوب آنية الله في بدن المؤمن فإذا غذي ونضح هذا الإناء بالتذكر، وسقي بالتفكر ونقي من الفساد، رأي العجائب وألهم الحكمة^(١).

فالقلب يمرض ويهلك من الغفلة، ويعمر ويحيى من الخشية والذكر فالقلوب تمرض وشفؤها في الرجوع إلى الله، وتعري ولباسها التقوى وتجوع وطعامها المحبة والإنابة والتوكل على الله، وتكسل ونشاطها في العمل، وعمل القلب المقصود منه هو النية، والإخلاص والانقياد، والإذعان، والإقبال، والإنابة، والاعتصام والتوكل على الله سبحانه ولوازم ذلك وتوابعه.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾^(٤).

وما هذا الإخلاص إلا القصد بالعبادة إلى أن يعبد الله وحده دون سواه، ويكون هذا الإخلاص والقصد بالقلب، والعمل، والتبري عن كل مادون الله تعالى، فإذا اجتمع في المرء المؤمن قول القلب، وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح تكون النتيجة الحتمية التصديق المطلق.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ يُؤْتِكُمْ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٥).

(١) انظر: لابن القيم في الفوائد، ص ١٢٨.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣.

(٣) سورة البينة، آية: ٥.

(٤) سورة الزمر، آية: ١٤.

(٥) سورة الزمر، آية: ٣٣.

هذا كله نابع من محبة العبد المؤمن لربه عز وجل فمتى تمكنت المحبة القلب فهي لا تنبعث إلا على طاعة الرب سبحانه " إن أعمال الجوارح لا تستقيم إلا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب أن يكون ممتلئاً من محبة الله تعالى، ومحبة طاعته وكرهه معصيته ... فحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته، فإن كانت حركته، وإرادته لله وحده فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله لحركة القلب وإذا كانت حركته، وإرادته لغير الله فسد وفسدت حركات الجسد بحسب فساد القلب" (١).

وهذا ما يدل عليه الحديث " عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته" (٢).

فالتوكل على الله عمل قلبي يستقر أولاً في القلب حتى يستولي على جوارح العبد المؤمن وهذا ثانياً.

فسر التوكل على الله هو اعتماد القلب على الله وحده، ولا ينفع قول العبد "توكلت على الله" مع اعتماده على غيره سبحانه وتعالى وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء، وهذا كمن تاب عن المعصية ويصر عليها،

(١) انظر: لابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم (المدينة المنورة: مكتبة طيبة، تط الأولى، ١٤٠٨هـ)، ص ٧٤.

(٢) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (١١/٦٥٠٢).

ويرتكبها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(١).

والتوكل على الله عمل قلبي مستور، عن أعين العباد، لأن العبد يتوكل على الله قائماً، وقاعداً، ومضطجعاً، وهذا لا يكون إلا لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقيوداً وعلى جنوبهم، فهم أهل إنكار الإعلان عن أعمالهم الذين عبدوا الله عبادة لم تظهر منهم.

فالله تعالى أمر بالعمل الصالح النافع لأنه الترجمة العملية للإيمان بالله، وصورة من أفضل صور عبادته ودائرته تتسع لتشمل الحياة كلها، ولا يكفي أن يؤدي المؤمن عمله، بل عليه أن يتقنه، ويحسنه، ويتفوق فيه، ويتوكل به على الله؛ فالله مطلع عليه ويحاسبه ويجازيه؛ وعلى ذلك فإن المسلمين إن أهملوا العمل، وتجويده، وتحسينه، وإتقانه فقد خالفوا أمر دينهم، وتخلفوا عن غيرهم فيتسلط عليهم من لا يؤمن بالله ولا بدينه فتضيع دنياهم وآخرهم، والعمل الواجب على كل مسلم يختلف من شخص لآخر تبعاً لقدرته، وما يتقنه فلنعزم على العمل بالمأمور به من الله تعالى بشروطه، وأركانه، وواجباته؛ حتى نصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

والتوكل على الله تعالى يجمع في ذاته أصليين هما: " (علم القلب)، وعمله، أما علم القلب: فيقينه بكفاية: وكيله وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، وأما عمل القلب، فسكونه إلى وكيله وطمأنينته إليه، وتفويضه، وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه، فبهذين الأصليين يتحقق التوكل، وهما جماعه"^(٢).

فكلما كان القلب على الحق، وعلى طريقه كان واثقاً بالله منيباً إليه متوكلاً عليه، ساكناً إليه سبحانه وإذا كان على الباطل لم يكن مطمئناً ولا متوكلاً ولا ساكناً إليه.

(١) سورة الحديد، آية: ١٦.

(٢) ابن قيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين (الرياض: المطابع الإسلامية العربية، بدون تط)، ص ٢٥٧.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾^(٢).

فالآيتان دليل على استسلام القلب والخضوع والإخلاص لله تعالى، والإخبات إليه، والتوكل عليه، واليقين بما عنده.

فالعبد كلما كان أكثر معرفة واستحضارا لمعاني أسماء الله وصفاته كان أشد استسلاما، وإنابة له عز وجل - وقد أفردت مبحثا بهذا الشأن في معرفة أسماء الله وصفاته سيأتي ذكرها بإذن الله - " قال بعض الحكماء صفة أولياء الله تعالى : ثلاث خصال " الثقة بالله في كل شيء، والفقر إلى الله في كل شيء، والرجوع إلى الله في كل شيء " ^(٣)، فهذه الخصال ليست حصرا لأولياء الله تعالى، ولكن سبقت هنا هذه الثلاث بحسب المقام المذكور .

فالثقة بالله في كل شيء هو الإيمان؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٤).

فالآية: دلالة واضحة على الثقة بالله " أي فزادهم قول الناس لهم إيمانا بالله وثقة به من حيث خشوه ولم يخشوا الناس الذين خوفوا منهم بأنهم جمعوا لهم الجموع واعتمدوا على نصره ومعونته، وإن قل عددهم، وضعف جلدتهم فإنه هو العزيز القوي وذلك من شأن المؤمنين..... وكان من قوة إيمانهم وزيادته أن أقدموا وهم عدد

(١) سورة الملك ، آية: ٢٩ .

(٢) سورة الرعد، آية: ٣٠ .

(٣) انظر: للشيخ نصر بن محمد السمرقندي، تنبيه الغافلين وبهامشه بستان العارفين (بيروت:

دار المعرفة للطباعة بدون تط)، ص ١٦٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٧٣ .

قليل قد أثنوا بالجراح على محاربة الجيش الكبير، فالزيادة كانت في الإذعان النفسي، والشعور القلبي، وتبعثها الزيادة في العمل، بعد ذلك القول الدال على ما انطوت عليه النفس من اليقين بوعد الله ووعيده، والشعور بعزته وسلطانه" (١).

والله العلي القدير لا يضيع من وثق، وحسن ظنه به، ففقر العبد المؤمن إلى ربه، أمر نابع من عجز الإنسان، وضعفه الفطري فلا حول ولا قوة إلا بالله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢).

"فإن الله سبحانه يخبر بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه فهم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات فهو المتفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقول، ويقدره، ويشعره" (٣).

أما الرجوع إلى الله في كل شيء فما من عبد إلا ويعلم أنه إلى ربه راجع محتاج إليه في كل لحظة كيف لا؟! ووجودهم به، وبقاؤهم به.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤).

فإلى الله مصير أمر جميع خلقه، الصالح منهم والطالح، والمحسن، والمسيء، فيجازي كلا على قدر استحقاقهم منه الجزاء بغير ظلم منه لأحد، فهو

(١) انظر: لمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٢٤٠/٤).

(٢) سورة فاطر، آية: ١٥.

(٣) لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٨٧٧/٣).

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٩.

المالك للعباد المتصرف في شؤونهم فالحكمة كل الحكمة أن ترجع الأمور جميعها إليه، فهذه من سننه التي لها غاية: تنتهي إليها لاتبديل لها ولا تحويل^(١).

إن أولياء الله تعالى لهم من الخصال التي لايسع المجال لذكرها وماذكر كان في معرض التمثيل.

فنعود ونقول إن العبد المؤمن يستوجب الثواب إذا كان عمله خالصا، ويكون ذلك في المقصود والنية؛ ولذا يأتي العمل على قدر النية: إما مخلصا، وغير مخلص، فمن كان قصده من عمله الرياء أو شأبته شائبة دنيوية خرج العمل عن الإخلاص، ومن قصد التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص عابد.

فكل عمل استراح إلى حظ الدنيا زال بذلك إخلاص عمل المرء ومن انتهز لحظة من عمره خالصة لوجه الله، نجا؛ لأن تنقية القلب أمر عسير إلا لمن يسره الله تعالى له.

فالأيات التي وردت في قضية وموضوع التوكل تدل دلالة أكيدة على أن التوكل على الله لا بد أن يكون صادرا من القلب.

"فالتوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب، فلا بد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، ولا بد فيه من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغض الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان، ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، ولا يمكن أن يتخلف البدن عما يريد القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح - السابق الذكر - "إن الله قال لي من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء

(١) انظر: لابن جرير، جامع البيان، (٣٠٣/٢)؛ ولمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٥٥/٤).

أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٢).
وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

وبهذا فإن التوكل على الله إيمان مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقلب، والإيمان قول وعمل لا ينفكان عن بعضهما، فالإيمان بالله وسيلة لطلب معرفته، ولحبه، وتعظيمه، وطاعته، وخشيته، والإنابة إليه والتوكل عليه بعزم وإرادة قوية متينة.

(١) انظر: للإمام أبي حامد الغزالي سلسلة إحياء علوم الدين، (٤/٣٦٨).

(٢) سورة هود، آية: ٨٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢٣.

المبحث الثالث

أحوال المتوكلين

قال الغزالي: أن التوكل هو اعتماد القلب على الموكل^(١).

فالتوكل عند المؤمن تتفاوت أحواله في قوة الطمأنينة والثقة بالله تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى الأمر والعلم اليقيني.

قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢).

ففي الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة لأن غيره ليس بيده الأمر^(٣)، وعلى هذا فإن النفس تسكن إلى الله عز وجل وتطمئن بذكره وتطيب إليه وتشتاق إلى لقائه وتأنس بقربه فتطمئن.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٤).

والمؤمن يطمئن إلى قدر الله فيسلم له ويرضى، فلا يخطئ ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، وتلك الطمأنينة هي طمأنينة كذلك إلى امتثال أمره إخلاصاً ونصحاً، فإذا اطمأن المؤمن من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم، كانت نفسه مطمئنة.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٥).

(١) الغزالي، كتاب التوحيد والتوكل، ص ٤٢.

(٢) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٣) انظر: لمحمد الأمين الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: عالم الكتب بدون تط) (٣٥/١).

(٤) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٥) سورة هود، آية: ٨٨.

ولا يأتي التوكل الحق والإخلاص فيه والعمل بمضامينه إلا بعد المحبة التامة التي تستلزم الإرادة والقوة في حصول الأوامر.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (١).

فالرسول ﷺ لا يأمر إلا بما يحب الله ولا ينهى إلا عما يبغضه الله ولا يفعل إلا ما يحبه، ولا يخبر إلا بما يحب الله التصديق به؛ لذلك فإن القلب المؤمن لا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه وتوكله وإنابته لربه عز وجل، ولو حصل له كل ما يلتذ به أو لم يحصل لم يطمئن ولم يكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من جهة العبادة، ومن جهة التوكل والاستعانة.

فالأمة أحوالهم في التوكل مختلفة:

١ - منهم من لا يتوكل إلا على الله وحده. وهؤلاء هم المؤمنون الخالص. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢).

٢ - ومنهم من لا يتوكل على الله البتة وهؤلاء هم الملحدون الخالص.

٣ - ومنهم من يتوكل على الله وعلى غيره فهؤلاء هم المخلصون فمنهم المشرك ومنهم دون ذلك.

ففي هذه الأقسام نرى أن الحالة الأولى هي لمن لزم الحق والصواب ولم يبقى في القلب تشويش أو اضطراب.

قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٢) سورة الأنفال، آية ٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٢.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١).

فموافقة المؤمنين وامتنالهم لأمر الله ورسوله واستجابتهم لله ورسوله ﷺ جعلهم في حالة يقينية بحتة إلى درجة أن جعلوا الله حسبهم وكفيلهم وكانوا على كلمة التوحيد، والإخلاص، والتوكل "حسبنا الله ونعم الوكيل" والمؤمن الحق من يخشى الله ويتقيه حق التقوى والخشية فيكون تبعاً لذلك الأثر في سكون، وقوة الاعتماد، وحسن الظن بالله تعالى، أنه ناصرهم لامحالة إن عاجلاً أو آجلاً، وهذا مجمل معنى الآية الكريمة التي يرد في نصها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٣).

فحال المؤمن أن يأوى ويلجأ إلى ربه لأنه عالم بقوته وخزائنه ملأى فسبحان الله العلي العظيم .

فلا يدفع الشر ولا ينصر إلا الله ومن أظهر العجز لله وقام بما عليه ضمن الله له ما وعده إياه^(٤).

فالمؤمن إذا اعتقد أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله اعتمد قلبه واتكل عليه، فإذا لم يكن به ذلك فهذا سبب لضعف اليقين الذي يمازج القلب، ويشوب النفس؛ وما هذا إلا لجهل العبد، وعدم معرفته لله سبحانه؛ ومن هنا يأتي الاضطراب والفوضى والتخبط في العبادة، وفي الاستعانة والإنابة، والتوكل، فلا بد من معرفة وعلم بالله نابعة من الطريق الصحيح حيث تنزل المعرفة والعلم في سويداء القلب فيوقن بصدقها العبد؛

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٣ .

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٩ .

(٤) انظر للإمام أبي الفرج جمال الدين الجوزي البغدادي، زاد المسير في علم التفسير،

(١/٤٥٠، ٤/٤٧) .

لذلك فكلما ارتقى علم الإنسان ومعرفته بالله ازداد بصيرة ويقينا يغنيه عن غير الله وينزع من قلبه الإنابة والتوكل على من سواه .

قال تعالى: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾^(١).

" فأول ما أراد الله تعالى من العباد أن يعرفوه عن الوجوه التي تعرف إليهم منها، فإنه قد تعرف إليهم من خلقه للخلق، وتدبيره في الخلق، ومن قدرته على الخلق، وتكلفه بأرزاق الخلق، وإماتته الخلق، وإحيائه للخلق ألا له الخلق والأمر تبارك الله أحسن الخالقين" ^(٢).

لذلك فإن المعرفة هي أساس وأصل كل شيء، ويأتي بعدها الإرادة وهي لازمة لانتفك عن المعرفة. والإرادة: هي تحقيق العمل والأخذ والعطاء، والحب، والكره في الأعمال كلها، ولنعلم أنه سبحانه جعل نجاة العبد أولاً في المعرفة، ثم في الإرادة.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَابِئًا بِالْقَسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).

" فالمراد أنه سبحانه دل على وحدانيته وسائر كمالاته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره" ^(٥).

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦).

(١) سورة هود، آية: ١٢٣.

(٢) عبدالله الحارث المحاسبي، آداب النفوس، دراسة وتحقيق عبدالقادر عطا، (بيروت: دار الجيل تط، ١٩٨٤م)، ص ١٦٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٨.

(٥) الألويسي، روح المعاني، (١٠٤/٢).

(٦) سورة الأعراف، آية: ٥٤.

فالله سبحانه وتعالى تفرد بالوحدانية والألوهية وتعظم بتفرد الربوبية.

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ جَعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(١).

"فالاختلاف في تفسير هذه الآية كله محتمل، فقليل: المعنى ما عرفوا الله تعالى حق معرفته؛ وقيل: ما عظموا الله تعالى حق تعظيمه، وقيل: ما وصفوه حق صفته"^(٢).

فالعباد جميعهم مختلفون ومتفاضلون في الإيمان والاعتقادات والأخلاق والمعاملات؛ لذلك هم يختلفون كذلك في التوكل، وتتفاوت أحوالهم فيه من ناحية قوة الطمأنينة والثقة وتتفاوت في القوة والضعف.

والتوكل في ذلك ثلاث محطات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده سبحانه، والمسلم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه، وهذا إشارة إلى تفاوت درجاته ومحطاته، فإن العلم هو الأصل، والوعد يتبعه، والحكم يتبع الوعد، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك.

(١) سورة الأنعام، آية: ٩١.

(٢) المصدر السابق، (١٠٤/٢).



الفصل الثاني

التوكل على الله وعلاقته بالجانب الأخلاقي

وفيه :

تمهيد .

المبحث الأول: التوكل على الله من أخلاق الأنبياء .

المبحث الثاني: التوكل على الله من أخلاق المؤمنين.

الفصل الثاني

التوكل على الله وعلاقته بالجانب الأخلاقي

التمهيد :

إن التوكل على الله خلق من أعظم أخلاق الإيمان وهو خلق رباني، فقد أمر الله به سبحانه وتعالى وحث عليه.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

فالخلق : السجية والطبع، والمروءة والدين، والخلق الطبيعة وجمعها أخلاق وحقيقته أنه وصف لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه، وأوصافها، ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة^(٢).

وفي ضوء ذلك يمكن تحديد مفهوم الأخلاق بأنه: " عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعا بسهولة، سميت الهيئة: خلقا حسنا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خلقا سيئا"^(٣)، فالقرآن يوضح تكاليف الإيمان ويدعونا للقيام بتكاليفه والتزام الطاعة في كل خطوة من الخطوات، وفي كل أمر، وفي كل اتجاه حتى تكون هناك نتيجة عظيمة تستقر في قلوب الجماعة المسلمة من خلال تلك التوجيهات القرآنية، وقد كانت لنا عبر ودروس مستفادة من قصص الأنبياء، وما كانوا يتحلون به من أخلاق عظيمة بها اختيروا ليكونوا قدوة لجماعتهم، وأقوامهم، وأممهم، فكان رسولنا ﷺ من أعظم الناس خلقا، كان قرأنا يمشي على الأرض.

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

(٢) انظر: للفيروز آبادي، القاموس المحيط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، تط ١٤١٣هـ)، ص ١١٣٧؛ انظر لابن منظور، لسان العرب، كلمة الخلق فيه.

(٣) الجرجاني علي بن محمد بن علي، التعريفات، حققه إبراهيم الابياري، (بيروت: دار الكتب العربي، تط الرابعة ١٤١٨هـ)، ص ١٣٦ مادة رقم ٦٦٧.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(١).

" عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أن سعد بن هشام سألها فقال: يا أم المؤمنين: أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: أليس تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: "فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن" ^(٢)، فمنه ﷺ نأخذ ونتعلم وندرس.

ومن أخلاق المؤمنين الاتباع والافتداء بالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في سلوكهم، وعاداتهم فعلم أن التوكل عمل قلبي متعلق ومرتبط بالجوارح، فاستقامة هذه الجوارح مرهون بسلامة القلب واستقامته؛ وعلى هذا فإن هناك تلازماً عميقاً بين أعمال القلوب؛ وأعمال الجوارح؛ فالجوارح ترجمان لما في قلب العبد المؤمن.

" فما من عمل أو خلق إلا وارتبط بالإيمان لأنه الأصل، ثم يذكر العمل الصالح، فإنه أيضاً من تمام الدين فلا بد منه، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح" ^(٣).

والجانب الأخلاقي من قضية التوكل أمر بالغ الأهمية، وقد أخذ حقه من العناية: في القرآن الكريم، ومن هنا تكمن عظمة الإسلام وشريعته في تكامل كل التعاليم والأخلاق الإنسانية الشاملة التي تسمو بالمؤمن إلى آفاق العلا، وقد تجسدت هذه الأخلاق في شخص رسولنا الكريم الحبيب ﷺ، ومن سبقه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وعموم القول أن القرآن الكريم يأمر

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١ .

(٢) أبوداود (٤٨٠٠) واللفظ له، قال النووي (٢٣٣) حديث صحيح بإسناد صحيح، وقال محقق رياض الصالحين (٢٣٣): سنده قوي وله شاهد من حديث معاذ بن جبل عند الطبراني في الصغير (١٦٦).

(٣) شيخ الإسلام ابن تيمية، الإيمان، تحقيق محمد الزبيدي، (بيروت: دار الكتاب العربي تط الأولى، ١٤١٤هـ)، ص ١٨٦.

بكل خلق فاضل، وينهى عن كل خلق ذميم، وخلق التوكل الذي نحن بصدد الكلام عنه هو خلق إسلامي أمر الله به رسله الكرام، وأمر به المؤمنين عامة، وجعله من الأوصاف الأساسية للمؤمنين الصادقين، فهو الركن والحصن الذي يلوذ به المؤمن في مواجهة الصعاب وتذليلها.

فالتوكل هو سجية العبد المؤمن وسلوك ينغرس في قلبه ويتعمق بقدر إيمانه فهو عقيدة عظيمة، والتوكل على الله من الأخلاق العقدية التعبدية؛ التي تربط العبد المؤمن بربه فهو يتصف بذلك الخلق لأنه تعالى قد أمر بالتوكل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾^(١)، وحث عليه رسولنا ﷺ في ما رواه (عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-) قال: قال رسول الله ﷺ: "لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروم بطاناً"^(٢).

فلزم علينا الطاعة، والحرص، والاستمرار على العمل وتعظيم هذا الخلق العقدي التعبدية، والتسليم، والرضا بالقدر، ونوطن أنفسنا عليه قدر المستطاع حتى نظفر بما وعدنا به الله عز وجل من ثواب وجزاء.

(١) سورة الفرقان، آية: ٥٨ .

(٢) سبق تخريجه، ص ٣٢ .

المبحث الأول

التوكل على الله من أخلاق الأنبياء

إن التوكل على الله سبحانه وتعالى لا يتحقق إلا بالفعل، والعمل، والسعي والحركة حتى يعتاد المؤمن على ذلك الخلق الرباني، ويمارسه باستمرار في جميع جوانب حياته حتى يكون خلقاً، وعقيدة دائمة لا تتفك عنه، وسمة واضحة عليه، ولا سيما إذا كان هذا العبد المؤمن هو من صفوة خلقه نبي أو رسول، ولقد ذكر القرآن الكريم صفات، وأخلاق الأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وضمن هذه الأخلاق خلق التوكل عليه سبحانه وتعالى، فقد حثوا عليه أقوامهم تبعاً لأمر خالقهم جل وعلا، من نوح أول المرسلين إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ .

يقول تعالى على لسان نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمِرْ أِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾^(١).

فالمعنى "إن كان عظم عليكم مقامي بين أظهركم وشق عليكم، "تذكيري بآيات الله" يقول: ووعظي إياكم بحجج الله، وتنبيهي إياكم على ذلك. "فعلى الله توكلت" يقول: إن كان شق عليكم مقامي بين أظهركم، وتذكيري بآيات الله فعزمت على قتلي أو طردي من بين أظهركم فعلى الله اتكالي وبه ثقتي وهو سندي، وظهري "أجمعوا أمركم"، يقول: فأعدوا أمركم، واعزموا على ما تنوون عليه في أمري"^(٢).

(١) سورة يونس، آية: ٧١ .

(٢) ابن جرير الطبري، تفسيره، (٢٢٨/٤).

فنوح عليه السلام كان يقابل بغضهم وتجمعهم عليه بالتوكل على الله تعالى، يقول صاحب كتاب مفاتيح الغيب في قوله: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾:-

"يعني إن شدة بغضكم لي تحملكم على الإقدام على إيذائي، وأنا لأقابل ذلك الشر إلا بالتوكل على الله، واعلم أنه عليه السلام كان أبدا متوكلا على الله تعالى، وهذا اللفظ يوهم أنه توكل على الله في هذه الساعة، لكن المعنى أنه إنما توكل على الله في دفع هذا الشر في هذه الساعة" (١).

فالحلقة التي تعرض هنا من قصة نوح هي الحلقة الأخيرة حلقة التحدي الأخير، بعد الإنذار الطويل، والتذكير الطويل، والتكذيب الطويل ولا يذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة، ولا من ركب فيها، ولا الطوفان ولا التفصيلات في تلك الحلقة؛ لأن الهدف هو إبراز هذا التحدي، والاستعانة بالله وحده فعليه وحده هو حسبه دون النصراء والأولياء، فنجى الله نوحا ومن معه من جميع الأخطار، والله موف وعده لرسوله وللمؤمنين (٢).

فنوح صلوات الله وسلامه عليه قد بلغ الغاية في التوكل، قاطعا بأنه لا يصل إليه من مكرهم شيء، ولن ينفذ بإذن الله فكان مستسلما لكل ما يصل إليه من الله استسلام المؤمن لله لأجل الدعوة مع أنه في قلة، وضعف، وقومه في كثرة ومنعة، وكان بينهم وحيدا فريدا، ولكن وحدته ما كان يوهنها، ويكرسها إلا توكله على العزيز المقتدر، ومن هنا أخذ نوح عليه الصلاة والسلام خلق التوكل ومارسه في دعوته لله عز وجل إلى أن وافاه الأجل ولقي ربه .

وهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٣).

(١) الإمام محمد الرازي ، مج ٩ ، (١٤٣/٧).

(٢) انظر: السيد قطب، في ظلال القرآن، (٣/١٨١٠-١٨١٢).

(٣) الممتحنة، آية: ٤ .

" فالله تعالى يخبرنا أن إبراهيم عليه السلام ومن معه فارقوا قومهم وتبرعوا منهم، فلجأوا إلى الله، وتضرعوا إليه فقالوا: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ، أي توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك، وإليك المصير أي المعاد في الآخرة" (١).

وهناك معنى آخر تضمنته الآية: الكريمة: " يقول جل ثناؤه : مخبرا عن قول إبراهيم وأنبيائه صلوات الله عليهم: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ يعني: وإليك رجعنا بالتوبة مما تكره إلى ما تحب وترضى ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ، يقول: إليك مصيرنا، ومرجعنا يوم تبعثنا من قبورنا، وتحشرنا في القيامة إلى موقف العرض" (٢).

ومن هذا المعنى نفهم، ونستدل على استسلام إبراهيم عليه السلام لخالقه، ومنجيه سبحانه.

" ففي إبراهيم عليه السلام لنا الأسوة والقدوة في كل شيء فعله، قوله، خلقه... وقد كان من دعائه {ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير} وفي هذا القول تعليم للأجيال المؤمنة وتتميم لما وصاهم به، واتساء بإبراهيم عليه السلام" (٣).

" فها هو الماضي الطويل الذي لنا فيه أسوة ممتدة على آمد الزمان راجع إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام في عقيدته، وتجاربه فهي إذا قافلة ممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله الواقعين تحت راية الله، ومالهم غير التسليم المطلق لله، وهنا يثبت أن إبراهيم فوض الأمر كله لله، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/٥٤٣).

(٢) ابن جرير الطبري، تفسيره، (٧/٢٧٥).

(٣) الإمام الرازي، تفسيره، مج ١٥، (٢٩/٣٠٠-٣٠٢).

كل حال، وهي السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا؛
ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين كحلقة من حلقات التربية الخلقية،
والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه بإبراز مافي ثنياه من ملامح،
وسمات، وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم^(١).

فما علينا إلا الاقتداء بهذه الأسوة ليتحقق لنا وعد الله، فالتوكل من المقومات
الكبرى في العقيدة والأخلاق.

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ
رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

والمعنى أنه سبحانه بيده الملك والتصرف قاهر حاكم، عادل قيم على جميع
خلقه فسبحانه، فمن كانت هذه صفاته فعليه توكلت^(٣).

فقد دعا هود عليه الصلاة والسلام قومه أولاً إلى التوحيد، ودعاهم إلى
الاستغفار في هذا المقام، ولكن اشتغلوا بغير ذلك من تكذيب، وكيد له فقد بين
سبحانه وتعالى أن تصريف الأمور كلها بيده فما من أحد إلا وهو تحت قدرته ومنقاده
له، فهنا ترغيب في التوكل على الله على لسان نبي الله هود عليه السلام، وقد ظهر
من خطابه لقومه مدى ثبات إيمانه، وتوحيده فهو لا يقول ذلك: " " فكيدوني جميعاً
ثم لا تنظرون " إلا إذا كان واثقاً بأن الله يحفظه ويصونه من كيد الأعداء^(٤).

" إن الثقة بالله والاعتصام به هو ما واجه به هود عليه السلام قومه
فعقب التوكل عليهما تقريراً لهما، والمعنى أنكم وإن بذلتم غاية:
وسعكم لم تضروني فإني متوكل على الله واثق بكلماته^(٥).

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣٥٤٢/٦).

(٢) سورة هود، آية: ٥٦.

(٣) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٩٦/٢)؛ ولابن جرير، جامع البيان عن تفسير
آي القرآن، (٢٨٦/٤).

(٤) انظر الإمام الرازي، مفاتيح الغيب، مج ٩، (١٤/١٨).

(٥) الإمام البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص ٢٩٩.

هذا المقام نستشعر منه قوة إيمان هود عليه السلام، وعزته، واستعلائه مع ثقة الإيمان، واطمئنانه "وحقيقة ربوبية الله، وصورة القهر، والقدرة، وسر الاستعلاء، وسر التحدي؛ فهو رب الخلاق قوي قاهر" ^(١)، وفي هذا بيان أنه قادر على كل شيء، ولا يعامل إلا بالإحسان، والعدل فمن اعتمد عليه فقد اعتمد على الصراط المستقيم، ومن سلكه سيكون له السطوة، والغلبة، فكل من اعتمد وتوكل على الله الخالق القاهر سينال ما وعد به من الله تعالى.

وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام آمن وصدق ولا عجب من ذلك فهو ابن أبي الأنبياء، إن دعوة جميع الرسل هي الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وكذلك الإيمان بأقدار الله خيره وشره؛ لأن ذلك من أصول الإيمان، فمن آمن بقدر الله لا يأسى صاحبه ولا يصيبه الحزن؛ لأنه يلجأ إلى خالقه لمعرفة بعجزه، وحاجته لخالقه، وتراه صادقاً في توكله على ربه يطلب العون من ربه على ما أعجز من تنفيذه، يردد في يقين قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(٢)، وهذا ما كان من نبي الله يعقوب عليه السلام، مع علمه أن الحكم، والاعتماد كله لله، وعلى الله، وهو على علم أن إرادة الله نافذة، فقد أوصى أبناءه بقوله: ﴿وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمُّ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ^(٣).

"صرح يعقوب عليه السلام بأنه لا حكم إلا لله سبحانه لا غيره ولا يشاركه فيه مشارك في ذلك فعليه التوكل في كل إيراد وإصدار لا على غيره فعليه الاعتماد والثوق لا على غيره" ^(٤).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٤/١٨٩٩).

(٢) سورة التوبة، آية: ٥١.

(٣) سورة يوسف، آية: ٦٧.

(٤) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، (٤١/٣).

" إن هذا التدبير إنما هو تثبث بالأسباب العادية التي لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى، وأن ذلك ليس بدافع للقدر بل هو إستعانة بالله تعالى وهرب منه إليه (عليه توكلت) أي عليه دون غيره، ودون حولي وقوتي اعتمدت في كل ما أتى وأذر وفي هذا إيماء إلى أن الأخذ بالأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافي بالتوكل" (١).

لقد تضمنت الآية: معاني جمة، فجميع الممكنات معتمدة على قضاء الله، وقدره ومشينته، وحكمه إما بواسطة أو بغير واسطة، فثبتت من الآية: أن الإصابة بالعين كلام حق لا يمكن رده (٢).

وعلى ذلك نقول إن بالتوكل، يحصل المطلوب، ويندفع المكروه كما حصل لنبي الله يعقوب عليه السلام الذي خفي عليه، - وهو أهل علم -، من الحكمة فقد أبناؤه، فجمع الفرقة بعد سنين، وما أتمه الله ليوسف من تمكين، فحصل المطلوب، واندفع المكروه.

وقال تعالى على لسان شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٣).

إن قصة شعيب عليه السلام تضمنت الدعوة إلى الله، ومناقشة قومه، ورده عليهم، وإنذاره بالعذاب، ووقوعه، ونجاة المؤمنين، فشعيب عليه السلام طلب من الله تعالى التوفيق لإصابة الحق، والاستعانة، والإقبال عليه سبحانه، فهذا هو يقول لقومه: أَرَأَيْتُمْ ياقوم { إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي } أي على بصيرة فيما أدعو

(١) المراغي، تفسيره، مج ٥، (١٧/١٣).

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٧٤٩)؛ وانظر: للإمام الرازي، مفاتيح الغيب، (١٨/١٧٨-١٧٩)؛ وانظر: لعبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٢/٤٣٨).

(٣) سورة هود، آية: ٨٨.

إليه "ورزقني منه رزقا حسنا" قيل أراد النبوة، وقيل أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين، {مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنَّهُكُمْ عَنْهُ} أي لأنهم عن شيء وأخالف أنا في السر فافعله خفية عنكم، {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} أي فيما أمركم وأنهم إنما يريد إصلاحكم جهدي وطاقتي {وَمَا تَوْفِيقِي} في إصابة الحق فيما أريده {إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} في جميع أموري {وَالَيْهِ أُنِيبُ} أي أرجع^(١).

فهذا بيان أن إصابة الحق والإصلاح هو بتوفيق الله، فهو المعين على ذلك فعليه وبه نتق، ونفوض، ونعتمد عليه في أمورنا كلها صغيرها، وكبيرها.

إن شعيبا عليه السلام "بين بهذا أن توكله، واعتماده في تنفيذ كل الأعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته، واعلم أن قوله عليه الصلاة والسلام "توكلت" إشارة إلى محض التوحيد، لأن قوله عليه السلام توكلت يفيد الحصر، وهو أنه لا ينبغي للإنسان أن يتوكل على أحد إلا على الله تعالى، وكيف وكل ماسوى الحق سبحانه ممكن لذاته، فإن بذاته، ولا يحصل إلا بإيجاده وتكوينه، وإذا كان كذلك لم يجز التوكل إلا على الله تعالى"^(٢).

فقد تضمنت الآية: معاني عظيمة، وهي أن كل ما آتاه الله تعالى لنبيه شعيب عليه الصلاة والسلام من العلم والهداية، والدين والنبوة، والمال من الله القادر المعطي لامن غيره فلا يسع شعيبا عليه السلام وغيره من البشر إلا أن يطيع الله عز وجل في أمره لتبليغ الرسالة لقومه، وقد أقر قومه له بالحلم والرشد، وقد كان مشهورا به في قومه فكان من اللازم لهم أن يتبعوه فهو لن يترك الرسالة، والدعوة العظيمة، وهذا ما أفاده قوله {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنَّهُكُمْ عَنْهُ}، لأنه سيواظب، ويدوم على دعوته غير تارك لها في شيء من الأحوال، وبين أن

(١) انظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان، (٣٠٣/٤)؛ وانظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٧٠٦/٢).

(٢) الإمام الرازي، مفاتيح الغيب، مج ٩، (٤٨/١٨).

عمله كله هو بتوفيق الله عز وجل، وفي الآية: نوع من تركية النفس، وهذا في قوله {وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ} أي ما يحصل من التوفيق لفعل الخير بحول الله وقوته لا بحولي ولا قوتي.

كذلك التوكل والإنابة من أنواع العبادة التي بها تستقيم أحوال العباد.

لقد كان شعيب عليه السلام يدعو قومه إلى المعاملة العادلة، والأمانة، وشرف البيع والشراء، والأخلاق العظيمة الاجتماعية، وحين اختاره الله تعالى لتبليغ رسالته زاده ذلك إلى أن يسند تلك المعاملات والأخلاق إلى أصل ثابت يحكم بها تلك المعاملات والأخلاق، فصار عليه الصلاة والسلام يتلطف مع قومه ويشعرهم أنه على حق ولا ينهأهم عن شيء، ثم يفعله إنما هي دعوة للإصلاح.

" فالإصلاح العام للحياة، والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه، وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي، ويضيع بعض الفرص القذرة، ويعوز عنها كسبا طيبا، ورزقا حلالا، ومجتمعاً متضامنا، متعاوننا لاحد فيه، ولا غدر، ولا خصام، وماتوفيقى إلا بالله، فهو القادر على نجاح مسعاى في الإصلاح بما يعلم من نيتي، وبما يجزي على جهدي " عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ " عليه وحده لا أعتمد على غيره " وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " إليه وحده أرجع فيما يجزيني من الأمور، وإليه وحده أتوجه بنيتي، وعملي، ومسعاى " (١).

ومضى عليه السلام في دعوته ومارس جميع أساليبها، وأخيرا اتصل من الإعتزاز برهطه، وقومه لسوء خلقهم، وعدم أدبهم مع الله تعالى فأنذرهم بالعذاب الذي ينتظر أمثالهم وطويت صفحاتهم بصاعقة من الله تعالى، نعم! لقد قام عليه الصلاة والسلام بكل ما في طاقاته من الأعمال الكسبية مع التوكل على الله فقال

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٤/١٩٢١).

أخيراً ﴿... وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(١).

"فإلى الله وحده وكلنا أمورنا مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من الحفاظ على شرعه ودينه، فهو الذي يكفيننا تهديدكم، وماليس في استطاعتنا من جهادكم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾"، إذ من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية، ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية، فمن يترك العمل بالأسباب فهو الجاهل المغرور لا المتوكل المأجور"^(٢).

وقال تعالى حكاية: عن موسى وقومه ﴿وَقَالَ مُوسَى يَلْقَوْمُ إِنَّ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ فقالوا على الله تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

إن وعد الله ماض لرسله وأقوامهم، وهذا موسى عليه السلام، وقومه يخبر الله تعالى عنهم وقال موسى لقومه قوموا بوظيفة الإيمان بالله واعتمدوا عليه، والجاؤا إليه واستنصروه فقالوا ممثلين لذلك {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا} فالله تعالى كاف كل من توكل عليه^(٤).

وهذه الأمور موقوفة على امتثال أمر الله، والثقة، وحسن الظن بالله تعالى، ولن يخلف الله وعده أبداً "إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا وبوعده فثقوا إن كنتم مستسلمين مذعنين؛ إذ لا يكون الإيمان يقينا إلا إذا صدقه العمل وهو الإسلام، ... ذاك أن التوكل على الله وهو أعظم علامات الإيمان لا يكمل إلا بالصبر على الشدائد، والدعاء

(١) سورة الأعراف، آية: ٨٩ .

(٢) المراغي، تفسيره، مج ٣، (٦/٩).

(٣) سورة يونس، آية: ٨٤-٨٥.

(٤) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢، ٦٦٣)؛ وانظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن

في تفسير كلام المنان، (٣٥٤/٢).

لايستجاب إلا إذا كان مقرونا باتخاذ الأسباب بأن تعمل ماتستطيع عمله، وتطلب إلى الله أن يسخر لك ماتستطيع^(١)، ويصرف الشيطان حتى لا يكون له حظ لأن التوكل لا يكون مع التخليط^(٢).

فموسى عليه السلام يعلم قومه ويريد من قومه التحمل والصدق بالله وترك الأمور بيد الله تعالى، وبذل الجهد على التحمل والصبر، والرضا بقضائه وقدره، وحثهم على التوكل، وكرر الشرط تأكيدا لينالوا المقصود.

فهؤلاء الأنبياء جميعهم من أولهم إلى آخرهم اتفقوا على عقيدة التوكل لأنها لازمة ويستشعر بها العارف ربه المقرب إليه يعلم علم اليقين أن التوكل بعد الإيمان به، فإنه يتحكم بكل مايحدث لهم، فوجب التوكل لأنه يعد أمرا يقينيا له مسوغاته الواقعة وقد فعلوا عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

فهؤلاء هم صفوة الخلق، وهاهي أخلاقهم، وهاهو توكلهم على ربهم العلي العزيز، التي ترى من خلال تلك الآيات التي وصفت خلق التوكل في أنبياء الله السابقين، وربطه بالعقيدة، وماهذا إلا من منطق ومقتضى الإيمان أن يكون المؤمن متوكلا على ربه لا على غيره فالمؤمن دائما يسعى إلى التحلي بالأخلاق القرآنية، ومحاسن السجايا حتى يكتمل إيمانه.

" فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل.....، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام، وهو إشارة إلى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى، وإظهار الخضوع وترك التمرد، وأما الإيمان عبارة عن صيرورة القلب عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد.....، وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلى الله تعالى، ويحصل في القلب نور التوكل على الله.....، والتوكل على الله عبارة عن تفويض الأمور بالكلية إلى الله تعالى، والاعتماد في كل الأحوال على الله تعالى.

(١) المراغي، تفسير المراغي، (٤/١٤٤-١٤٥).

(٢) انظر للشوكانى، فتح القدير، (٢/٤٦٦).

واعلم أن من توكل على الله في كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١)... إن هذا الذي أمر موسى قومه به، وهو التوكل على الله هو الذي حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام حيث قال {فعلى الله توكلت} وعند هذا يظهر التفاوت.... بين التوكل عند نوح عليه السلام أنه قال {فعلى الله توكلت} وعند موسى فنوح عليه السلام كان تاماً، وموسى عليه السلام فوق التمام^(٢)، وهذه من لطائف القرآن الكريم في معان التوكل عند الرسل الكرام.

وقد عشنا مع أنبياء الله من خلال بعض الآيات القرآنية نهلنا من تجاربهم وتعلمنا من أخلاقهم، فهم القدوة، وتاريخهم تاريخ حافل بالعظمة، وحياتهم مليئة بالكفاح، وفي شخصهم سمو النفس، وكمال الخلق، وفي عقيدتهم رسالة الهدى والخير فكانوا بحق مفخرة الأزمان، وأهلاً لقيادة الأمم.

فمن خلال قصصهم نستلهم الصبر والعظمت، ونستضيء ونسير على منهجهم خاصة في مقام الدعوة إلى الله، وفي الدعوة إلى الأخلاق، قال تعالى: ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣)، وفي قصصهم ذكر عاطر يصفهم به الله تعالى بأسمى الصفات، والمواهب العقلية، والخلقية كل ذلك ليبدل على أنهم الصفوة المختارة من خلق الله، والمثل الأعلى الكامل للبشرية فالقرآن الكريم حين يتحدث عن الأنبياء الكرام ينعتهم بأكمل الأوصاف فيصفهم تارة بالطاعة، وتارة بالإنابة، وتارة بالتوكل، فكل ذلك يشير إلى علو شأنهم، ورفعة مكانتهم، فكانوا هداة العالم، وقادة البشرية.

قال تعالى: ﴿وَأِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾^(٤).

(١) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٢) الإمام الرازي، مفاتيح الغيب، مج ٩، (١٥٢/١٨).

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٧٦.

(٤) سورة ص، آية: ٤٧.

هذا هو توكل الأنبياء والرسل حكاة عنهم القرآن الكريم، فتحدوا أقوامهم وملوكهم، فواجهوهم بقوة التوكل، ثابتين واثقين.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(١).

إن موقفهم عليهم السلام من عدم التراجع، وعدم اليأس من روح الله جعلهم يمشون في طريقهم موقنين أن الله ولي المؤمنين كافيهما ما يهملهم، فرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم قدوتنا في الحياة فما بالناس بخاتمهم نبي الرحمة نموذج الكمال البشري، عنوان الفضل، حامل مشعل النور والضياء، قائد سفينة البشرية المؤمنة على مدى الدهر، أفضل الرسل وخاتمهم محمد ﷺ، ختم الله به النبوة والرسالة، فكان ختام مسك، إذ هو آخر المرسلين، وأولهم رتبة، سيد ولد آدم.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٢).

اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون أكمل البشر خلقا وخلقاً، أفضلهم علماً، أشرفهم نسباً، فكان القدوة، والأثر الحسن، فكان المربي، والموجه والمرشد لكل خلق جميل "عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"^(٣).

(١) سورة إبراهيم، آية: ١٢ .

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٤٠ .

(٣) رواه أحمد (٣٨١/٢)، واللفظ له، والحاكم (٦١٣/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه؛ ووافقه الذهبي؛ وقال محقق جامع الأصول (٤/٤): قال الزرقاني: رواه أحمد وقاسم بن أصبغ والحاكم والخراطي برجال الصحيح عن محمد بن عجلان... عن أبي هريرة، وقال ابن عبد البر: هو حديث مدني متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة.

فقد حرص عليه الصلاة والسلام على توكيد وترسيخ الأخلاق، خاصة الأخلاق التعبدية في قلب أمته، فهو عليه الصلاة والسلام من خير المتوكلين وأفضلهم، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكل في آيات كثيرة منها :

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾.

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ١٦٠﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٦١﴾.

وقال تعالى لخليله محمد - ﷺ - : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٦٢﴾.

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ١٦٣﴾.

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) سورة النساء، آية: ٨١.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٦١.

(٤) سورة هود، آية: ١٢٣.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٥٨.

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٤).

فهذه تسع آيات بينات أمر الله تعالى فيها حبيبه، وخليله، وصفيه رسول الله ﷺ بالتوكل في كتابه العزيز؛ ذلك أنه ﷺ أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل، وكان مربيا، وهاديا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطبق عليه فقد أحسن سبحانه وتعالى تأديبه وتربيته فكان المثل الأعلى في الكمال البشري، وفي كل خلق وسلوك فقد كان قرآنا يمشى على الأرض وكان تطبيقا حيا، ومشاهدا، فالآيات الكريمة هي حسب رسولنا الكريم ويكفيه ولآية:، ونصر، وإعانة الله تعالى له بعد توكله، وإنابته له سبحانه وتعالى^(٥).

فكان ﷺ في كل أمر قصده، وأمضاه توكل على الله، ورسولنا الكريم يعلم أنه لناصر له إلا الله، وأن من نصره الله فلا غالب له، ومن خذله لناصر له، لذلك فوض أمره إليه وتوكل عليه، ولم يشتغل بغيره^(٦).

فالآيات المشيرة إلى التوكل ماهي إلا توجيه وتطمين، وعزم، وحسم في التوكل على الله، وفي كلاءة الله وحفظه، فقد كان ﷺ يأخذ توجيهاته من لدن حكيم عليم، وخلق التوكل استمده ﷺ من تلك

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٧.

(٢) سورة النمل، آية: ٧٩.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٤٨.

(٥) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١/ ٨٠١).

(٦) انظر للشوكانى، فتح القدير، (١/ ٣٩٤).

التوجيهات والأوامر الربانية، فالتوكل على الله هو الأصل في استشعار القلب لجلال الله، والاستسلام المطلق لإرادته، واتباع المنهج الذي اختاره فإن رد الأمر إلى الله في النهاية:، والتوكل عليه وحده هو القاعدة الثابتة المطمئنة التي يفيء إليها القلب، فيعرف عندها حدوده، وينتهي إليها ويدع ماوراءها لصاحب الأمر والتدبير، في ثقة، وفي طمأنينة وفي يقين^(١).

فرسولنا الكريم وقدوتنا ومعلمنا وأسوتنا من خلال سلوكه ﷺ يتعلم الحاكم أن في المشاورة خير يليه العزم فالتوكل على الله .

ويتعلم الداعي إلى الله أن في التوكل على الله الكفاية: والنصير. ويتعلم المحارب والمقاتل أن في التوكل على الله النصر والغلبة، ويتعلم العبد المؤمن أن في التوكل على الله الخير الكثير لأنه عبادة لرب العالمين، وفي التوكل يجد المؤمن الركن الركين، والحصن الحصين يلوذ به في مواجهة الصعاب وتذليلها، وعلى هذا فإن الرسول ﷺ يعلم أصحابه وأمته من بعده، وهو إمامنا ونبينا مثلاً أعلى للخلق الذي يدعو إليه فيغرس الخلق السامي من خلال سيرته العطرة، عطره بحكمه، وعظاته، ونصائحه.

وقد أمر الله تعالى رسوله - ﷺ - بالتوكل في أسلوب الإعلان ، والدعاء، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾^(٢).

إن الله تعالى هنا أمر نبيه ورسوله محمد - ﷺ - بعد أن مضى في رسالته ولقي الصد والإعراض والكفر من قومه أن يتوكل عليه لما لقيه منهم من المواقف، والحوادث، والقوارع فصمد لها نبي الأمة لاعتماده وارتكازه على ربه مطمئناً إلى حماه معتمداً على الله وحده، والمعنى :

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (١/٤٩٦)، (٢/٧٤٠)، (٥/٢٨٣٢).

(٢) سورة الرعد، آية: ٣٠ .

فهو خالقي، وأنا مؤمن به معترف له مقر له بالربوبية والألوهية عليه لا على غيره، توكلت في جميع أموري وإليه أرجع، وأنيب، وأتوب فإنه لا يستحق العبادة والإيمان سواه وهو متولى أمري ومبلغى مراتب الكمال^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرَّهُ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٢).

فدعاء الحسيلة دعاء رسولنا الكريم ﷺ، ودعاء كل عبد مؤمن استقرت في قلبه الحقيقة حقيقة لا كاشف للضرر، ولا مانع للرحمة إلا هو العلي القدير، فدعاء رسولنا هذا جاء بعد ذكر السموات والأرض وخلقهن، فالله تعالى خلق السموات والأرض وهي أعظم وأكبر من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣)، إن الإنسان لضعيف أن يلجأ إلى الله تعالى ويكل أموره، ويصرفها لله العلي بلى! إن الإنسان مأمور بتصريف أموره كلها لخالقه، ورازقه فهذا رسولنا الكريم - ﷺ - يدعو ربه، ولا بد أن يكون هذا حال العبد المؤمن يدعو الله، ويلجأ إليه متى استقر في قلبه الإيمان وحقيقته، فهو سبحانه الحامي وكاشف الضر، ومنزل رحمته على عباده، والمعتمد عليه والمعتصم به هو الله، والمتوكل عليه هو الله ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٤).

(١) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٧٩٦)؛ وللشوكاني، فتح القدير، (٣/٨٢)؛ وللمراغي، تفسيره، (١٠٤/٥).

(٢) سورة الزمر، آية: ٣٨.

(٣) سورة غافر، آية: ٥٧.

(٤) سورة الزمر، آية: ٣٨.

" إنه متى استقرت هذه الحقيقة في قلب مؤمن، فقد انتهى الأمر بالنسبة إليه، وقد انقطع الجدل، وانقطع الخوف، وانقطع الأمل، إلا في جناب الله سبحانه، فهو كاف عبده، وعليه يتوكل وحده، ثم إنها الطمأنينة بعد هذا والثقة، واليقين، والطمأنينة التي لاتخاف، والثقة التي لاتقلق، واليقين الذي لايتزعزع، والمضى في الطريق على ثقة بنهاية: الطريق" (١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٢).

وما اختلفتم أيها الناس فيه من شيء فتنازعتم بينكم فإن الله هو الذي يقضي بينكم، ويفصل فيه الحكم قل لهؤلاء المشركين بالله هذا الذي هذه الصفات صفاته ربي لا آلهتكم التي تدعون من دونه، التي لاتقدر على شيء " عليه توكلت " في أموري، وإليه فوضت أسبابي، وبه وثقت " وإليه أُنِيب " وإليه أرجع في أموري وأتوب من ذنوبي (٣).

" فالقرآن يحكي قول الرسول ﷺ ، مسلما أمره كله لله منيبا إلى ربه بكليته فتجيء هذه الإجابة، وذلك التوكل، وذلك الإقرار بلسان رسول الله ﷺ في موضعها النفسي المناسب، للتعقيب على تلك الحقيقة في أن المرجع إلى كل اختلاف هو الحكم الإلهي، فها هو رسول الله، ونبيه يشهد أن الله هو ربه، وأنه يتوكل عليه وحده، وأنه ينيب إليه دون سواه" (٤).

فالمؤمن يجب أن تستقر هذه الحقيقة في قلبه حتى يضاء الطريق أمامه وتتحدد معالمه فرسلنا الكرام من أولهم إلى آخرهم هم القدوة والمثل والأسوة الحسنة الصالحة للبشرية؛ أمرنا الله عز وجل بالافتداء والسير على منهاجهم، وجعلهم نماذج

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٣٠٥٤/٥).

(٢) سورة الشورى، آية: ١٠.

(٣) انظر لابن جرير، جامع البيان عن تفسير آي القرآن، (٤٨٢/٦-٤٨٣).

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٣١٤٦/٥).

للكمال، وعنوانا للفضل؛ لأنهم أكمل الناس عقلا وخلقا، وأطهرهم سلوكا، وأشرفهم رتبة ومنزلة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتِهِمْ آقَتَدَةُ...﴾^(٢).

إن رسولنا الكريم مأمور بالافتداء بمن سبقه من رسل؛ قد هداهم الله هداية: كاملة في الأخلاق والصفات، فكان ﷺ مهتديا بهداهم كلهم، فكانت مناقبه، وفضائله الكسبية أعلى من مناقبهم، وفضائلهم؛ لأنه اقتدى بها كلها فاجتمع له من الكمال ماكان متفرقا فيهم، وشهد ربه بذلك فقال ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

فهذا رسولنا الكريم يقتدي، ويهتدي بمن سبقه، فما بالنا نحن، فلزم علينا الاقتداء والامتثال لأمر الله تعالى، والسير على نهج الأنبياء، والعلماء من الكسب، والعمل، والأخلاق لتكون على طريق الحق، والاستقامة ونمضي ونسير عليه^(٤).

فالمؤمن تزيد قيمته عند ربه بقدر عمله بالعبادات ومدى إخلاصه فيها؛ لأن العبادات من أهم مايميز المؤمن عن غيره.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ﴾^(٥) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٥).

فكل من احترم إنسانيته وكرامته وأعطاهما حقها من اتباع الأمر واجتناب النهي، وأعطى الله حقه، ويتبعون طريق الخير فإن الله بهذا يرفع كل ذي فضل على قدر فضله ويؤتي أجره بقدر مايعمل من الأعمال والعبادات.

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١ .

(٢) سورة الأنعام، آية: ٩٠ .

(٣) سورة القلم، آية: ٤ .

(٤) انظر للمراغي ، تفسيره، (٣/١٨٤-١٨٥).

(٥) سورة التين، آية: ٤ - ٦ .

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

فهذا التوكل من الأعمال والعبادات التي يأخذ المؤمن أجره فيه من الله تعالى في الآخرة وفي الدنيا فإن للتوكل قيمة عملية، فهو يدعو الإنسان أن يكون نشيطاً مجداً يكسب رزقه بشرف، ويدعو إلى الجلد، والصبر، والثقة بالنفس وقوة الإرادة، والسعي لمزيد من الإنتاج لمزيد من الانفاق والخير، وكل ذلك يؤدي إلى الصبر والشجاعة دون تبرم أو ضجر.

فما سبق أشرنا إلى هدي الرسل الكرام في توكلهم على الله تعالى، فكتاب الله تعالى يطالعنا بصور ونماذج لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون... ونرى أسلوب القرآن في الحديث عن الرسل الكرام، الصفوة المختارة من البشر يتدفق بالحياة، ويفيض بالبشر، وينم عن الحب والإيثار فيذكر بالثناء العاطر، ويصفهم بأسمى الصفات، والمواهب العقلية والخلقية، والتعبدية؛ كل ذلك ليدل على أنهم الصفوة، من خلق الله... ولنقرأ ما قال تعالى في حقهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ﴾^(٢).

هكذا نجد القرآن العظيم حين يتحدث عن الأنبياء والرسل الكرام، يصفهم بأسمى الصفات العالية، وتظهر من خلال سطورهم معالم الحب والتكريم والاصطفاء والاجتباء، فيصفهم تارة بالطاعة والإنابة، وأخرى بالتوكل والإيمان، ويذكرهم في بعض المواطن بالصدق والنزاهة والصبر والتحمل؛ فكل ذلك ليشير إلى علو شأنهم، ورفعة مكانتهم، وسمو الرسالة التي بعثوا من أجلها، فكانوا هداة وقادة البشرية؛ لأنهم كما أسلفنا الذكر هم أكمل البشر خلقاً، وأفضلهم علماً، واقتضت حكمته أن يحفظهم بعنايته، ويكلأهم برعايته، ويربيهم على عينه تبارك وتعالى، كما قال جل

(١) سورة الأنعام، آية: ١٣٢.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧٣.

ثناؤه مخاطباً سيد الرسل الكرام ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(١)،
وكما قال لموسى عليه السلام ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾^(٢)، هؤلاء هم الرسل
الكرام سادة البشر، استحقوا أن يحملوا اللواء في سبيل عزة الإنسانية، وانتشالها من
برائن الشرك، والضلال، إلى نور التوحيد والإيمان.

(١) سورة الطور، آية: ٤٨.

(٢) سورة طه، آية: ٣٩.

المبحث الثاني

التوكل على الله من أخلاق المؤمنين

إن مقتضى الإيمان بالله تعالى أن يكون المؤمن ذا خلق، ولقد وجدنا أن الإسلام ربط بين الإيمان والأخلاق والسلوك بوجه عام، والسلوك والأخلاق بوجه خاص ربطاً لا انفصام فيه، ونجد ذلك في نصوص كثيرة يصعب حصرها.

فلفظ الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر، ولفظ التقوى، ولفظ الدين، فكل ما يحبه الله يدخل في اسم الإيمان، وأصل الإيمان هو تصديق بالقلب وعمل القلب، وإذا كان هذا حال القلب تصديق وعمل سرى ذلك إلى البدن بالضرورة؛ لأن الظاهر تابع للباطن لازم له فمتى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد^(١).

والإيمان شعب كثيره، فلفظ الإيمان يطلق على سلوك، وأخلاق... الخ.

(فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الإيمان بضع وستون شعبة والحياة شعبة من الإيمان")^(٢).

(وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه")^(٣). وغيرها من الأحاديث كثير.

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ۚ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ﴾^(٤).

(١) انظر لشيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١٧٩/٧ - ١٨٦).

(٢) البخاري مع فتح الباري لابن حجر، ح (٩)؛ مسلم (٣٥) (٦٣/١) كتاب الإيمان، وعند مسلم بلفظ آخر هو (الإيمان بضع وسبعون شعبة).

(٣) البخاري مع فتح الباري لابن حجر، ح (١٣) (١٣/١) (١٣/١)؛ ومسلم (٤٥)، (٦٧/١) كتاب الإيمان.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤٣-٤٤.

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١).

ولهذا كان المسلمون الأوائل إذا سمعوا بنزول أمر أو واجب سارعوا إليه وإذا نزل تحريم أمر انتهوا عنه فمن هنا نستطيع أن نعرف مدى إيمان المرء بمقدار ما يتحلى به من مكارم الأخلاق، فعندما يطالب القرآن أتباعه بالتوكل، بذكر وصف الإيمان؛ فهو إشارة إلى أن الإيمان يقتضي التوكل، إلى أن من يؤمن هو من يتوكل على الله لا على غيره.

والإيمان في القرآن الكريم يقترن كذلك بالعمل الصالح لفظاً أو معنى ويراد به الإذعان والتصديق.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧٧.

(٤) سورة المائدة، آية: ٩.

فإيثار صيغة أمر الغائب وإسنادها إلى المؤمنين؛ لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهاني؛ للإيدان بأن ما وصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان داع إلي ما أمروا به من التوكل والتقوى والخير وازع عن الإخلال بهما^(١).

فالتوكل على الله خلق تعبدي يصل بين المرء وربّه فهذه العبادة الخلقية هدفها وغايتها السمو الخلقي بالمؤمن، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

ومما أشرنا إليه في المبحث الأول نرى أن الله تعالى قد ربى في أنبيائه جميعهم بخاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين على الخلق الحسن، والعبادة الحقة له سبحانه، وأعطاهم على ذلك الجزاء وأوفاهم بالثوبة وأخبرهم بها، وهكذا كان على المؤمن أن يتحلى ويقتدي بأفعالهم حتى ينال الثواب، فقد حث سبحانه وتعالى في كثير من آياته الكريمة إلى التوكل بأسلوب المثوبة المادية، والمعنوية لتحقيق منهج لغرس هذا الخلق العظيم، فالتوكل على الله يسطع شعاعه على جوارح العبد المؤمن، وقلبه أشد مايكون تألقاً في الشدائد المحرجة، فالإنسان عندها ينسلخ من أهوائه، ويتبرأ من أخطائه، ويقف في ساحة الله أواباً، يرجو رحمته ونصرته.

قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٤).

إن الأمر بالتوكل جعل شرطاً لكمال الإيمان، وجعله سبحانه وتعالى من السمات الأساسية للمؤمنين الصادقين لذلك فإن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته^(٥).

(١) انظر لأبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (١٥/٢).

(٢) سورة المائدة، آية: ١١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٢-١٢٣.

(٤) انظر: للألوسي، روح المعاني، مج (٣-٤) (٤٣/٤)؛ انظر لأبي السعود، المصدر السابق، (٤٠٨/١).

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

إن التوكل على الله تعالى متعلقه واسع جدا، وشامل لكل ما يطلبه الخلق من أمور دينية، ودنيوية، فالتوكل على الله تعالى داخل في أمور الحرب والقتال، وهذا ما دلت عليه آيتا آل عمران فعلى كل محارب ومقاتل أن يلزم نفسه بالتوكل على الله والرضى بمقدوره إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ويطمئن بوعد الله تعالى ويثق به، فالمؤمن يتوكل على ربه أن ينصره على ظالمه وعدوه وهذا من مكارم أخلاق المؤمنين؛ لأن مواطن التوكل كثيرة؛ والتوكل مطلوب في كل شؤون الحياة، فطلب النصر والفرج من الله والتوكل عليه هذا موطن، وموطن آخر في الإعراض عن الأعداء، وليكن التوكل رفيقا وصاحب درب، وإذا تكالب الأعداء ونصبوا شباكهم فالتوكل له هنا مكان، فليكن التوكل أيها المؤمن لك، وعليك ليكون الله لك في شؤونك كلها صغيرها وكبيرها.

وفي آية المائدة يأتي التوكل بعد ذكر التقوى، فهي آية الإيمان الصحيح والعقل السليم الذي يدفع إلى كل خلق كريم؛ لأن التقوى "عند أهل الحقيقة هي الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته وهي صيانة للنفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك"^(٣).

فمن هنا فالتقى هو من يتوكل على ربه، ويعرف المؤمن من ذلك أن من كان تقيا متوكلا هو الأقوى إيمانا وحبا لله، وهو الأحرى بمزيد فضله، وعظيم أجره

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

(٢) سورة المائدة، آية: ١١.

(٣) الجرجاني، التعريفات، ص ٩٠.

سبحانه وتعالى، وبهذا كان التقى ملازماً للأداب والأخلاق الشرعية وبجانب كل ما يبعده عن الله تعالى .

ومن المهم هنا أن نشير إلى ارتباط التوكل مرة بالإيمان، ومرة بالتقوى فلا يعتقد أحد أن الإيمان غير التقوى، فالإيمان فعل وعمل وإقرار^(١)، والتقوى هي الإخلاص في العمل^(٢)، فكل مؤمن على هذا تقى وكل تقى مؤمن.

فالمتوكل مؤمن تقى، لأن في عمله يقر ويصدق ويخلص في توكله على ربه سبحانه وتعالى.

إن إقبال الأنبياء والرسل الكرام والمؤمنين على التوكل ديدنهم، وكذلك الدعاء الذي هو من مضامين التوكل سمتهم فالفتح والنصر كله بيد الله تعالى، فالدعاء منهجهم عليهم الصلاة والسلام بعد أن شعروا من أقوامهم الكبر والعصيان لعبودية الله وحده والخضوع لرب العالمين.

فبدون التوكل على الله لا تستطيع أمة ولا جماعة ولا فرد أن تحقق هدفاً يفرضه الإسلام أو تتخلص من أوضاع ظالمة^(٣) مثل الإغترار بالرضاء، والاستهزاء بالإنذار واستعجال العذاب، والطغيان والتهديد، وإيذاء المؤمنين.

فإن جميع رسل الله يعرفون مصدر قوتهم، وملجأ الأمان ويعلمون أن الله سبحانه وتعالى - هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والكفر، ويتوكلون على ربهم وحده في خوض معركة لهم لا مفر منها مع أقوامهم إلا بدعاء وفتح من الله، فكل مؤمن داعياً إلى الله تعالى في حاجة ماسة إلى التوكل واللجوء لله سبحانه وتعالى، فقد أطلق كل الدعاة المؤمنين الحقيقة الدائمة، وهي على الله وحده دون سواه يكون التوكل ولا لجوء، ولا عون، ولا إنابة إلا له العزيز الحكيم، فعلى كل داعية أن يواجه

(١) انظر للكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق الفردية، قابله على نسخة خطية عدنان درويش ومحمد المصري، (بيروت: مؤسسة الرسالة، تط الأولى ١٤١٢هـ)، ٥ مج، (٢١٣-٢١٧).

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص ٩٠.

(٣) سعيد حوى، الأساس في التفسير، ١٢ مج (القاهرة: دار السلام تط الثانية، ١٤٠٩هـ)، (٢٤٩٩/٥).

الكبرياء بالإيمان، والأذى بالإعراض فالتوكل هي كلمة المؤمنين الذين ملئوا قلوبهم بالثقة من نصر الله تعالى وتأييده، والمؤمنون هم الذين يشعرون ويحسون أن يد الله تعالى تقودهم وتهديهم إلى الصراط المستقيم .

" وهذه الحقيقة - حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية: الله وبين بديهية التوكل عليه لا تستشعرها إلا القلوب التي تزاوِل الحركة فعلا في مواجهة طاغوت الجاهلية، التي تستشعر في أعماقها يد الله سبحانه وتعالى وهي تفتح كوى النور فتبصر الآفاق مشرقة، وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة، وتحس الأنس والقربى وحينئذ لا تحفل بما يتوعد بها طواغيت الأرض، ولا تملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد، وهي تحتقر طواغيت الأرض، ومافي أيديهم من وسائل البطش والتنكيل، وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد؟^(١) .

هذا ما دلت عليه الآية الكريمة في سورة إبراهيم :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَازَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾^(٢) .

إن نبوة ورسالة جميع الرسل وأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كانت منة من الله، أذن لهم بها وأيدهم بالحجة وتوكلوا على الله وقصدوه فإنه سبحانه لم يضيرهم وهو أعلم بما ينفع أوليائه، فكل شيء متعلق بأمر ومشئنة الله وإذنه، فالطاعات أذن بها الله تعالى وأمرنا بالسعي والتوكل عليه فيها حتى تكون على أكمل وجه لنرضي بها خالقنا .

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٢٠٩٢/٤) .

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١١-١٢ .

فرسل وأنبياء الله توكلوا في جميع أمورهم على الله تعالى، فكيف بنا إذن؟! فالأولى والأحرى أن نكون نحن أيضاً من المتوكلين على الله؛ ليهدينا إلى أقوم الطرق وأوضحها وأبينها^(١) وقد أمر الرسل المؤمنين كافة بالتوكل وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً.

هكذا كان الإسلام وسيظل بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأعماله يحث على كل ما هو نافع مزك للقلوب مطهر للأخلاق والسلوك نافع للدين والدنيا، والقرآن الكريم يربي في النفوس ويعدّها لأدوار عظيمة ضخمة لبناء مجتمع إسلامي ذي أخلاق وعادات ترفع من لواء المؤمنين جميعاً، فهو يخاطب المؤمنين بنداء حبيب إلى نفوسهم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا} لينهاهم أو ليأمرهم بأمر ما، فما على المؤمن إلا اتباع تعاليم ومنهجية الشارع سبحانه وتعالى فيما أمر ونهى، وتقرير موقفه من ربه وثقته به وتوكله عليه.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢).

عليه لا على غيره أصلاً لعلنا بأن ما عداه كائناً ما كان بمعزل من النفع والضرر وعليه توكلنا في جميع أمورنا^(٣).

والتوكل على الله أساساً أمر مبني على أسس أخلاقية، وهذا ما كان في قول حاتم الأصم^(٤) "عندما سأل رجل علام بنيت أمرك في التوكل على الله؟ قال: على خصال أربع: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي، وعلمت أن

(١) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٨١٣).

(٢) سورة الملك، آية: ٢٩.

(٣) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/٦٢٤)؛ ولأبي السعود، إرشاد العقل السليم، (٥/٧٥١).

(٤) حاتم الأصم، أبو عبد الرحمن، التقى بالإمام أحمد، وقال عنه الإمام أحمد بعد أن سمع كلامه "وما أعقله من رجل"؛ وفيات الأعيان، (٢/٢٧)؛ حلية الأولياء، مجلد (٧-٨)، (٨/٧٣) رقم ٣٦٩.

عملي لأعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره، وعلمت أنني لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مستحي منه^(١).

فالأساس الأول : الرزق، فالمؤمن لا بد أن يوقن أن الله تعالى قد كتب لكل مخلوق رزقه، ولا تموت نفس حتى تستوفي رزقها الذي كتبه الله عليها، ولا يمكن لمخلوق أن يأخذ رزقا قد كتبه الله لمخلوق آخر، والإنسان يعيش ويمارس هذه الحقائق الكبرى فتطمئن بذلك نفسه، ولا يقلق بكثرة الانشغال والخوف على رزقه.

الأساس الثاني : العمل ، فالتوكل على الله في الأعمال الصالحة من أشرف أنواع التوكل إذ أن القائم فيها لا يبتغي عرضا من أعراض الدنيا بل يريد وجه الله، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٢).

الأساس الثالث: الموت، فهذا الأساس له صلة بالأساس السابق، من حيث المؤمن حينما يستيقن ويستحضر دائما أن الموت يأتي من غير ميعاد، فإنه دوما سيكون مستعدا ويسابق الموت بالأعمال الصالحة، فإذا ماجاء الموت، كان المؤمن قد أعد الزاد ليوم الرحيل.

الأساس الرابع: المراقبة، لا يمكن للمؤمن أن يتوكل على الله حق توكله حتى يشعر رقابة الله عليه، مما يجعله يستحي أن يفوض أمره لغيره وهو يؤمن بقدرته على قضاء حوائجه، لهذا كان هذا الأساس من أهم الأسس الذي ينبني عليه أمر التوكل، والقرآن مليء بالآيات التي توصل مراقبة الله في نفس المؤمن، حتى لا يتجه إلى غير الله تعالى.

قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٣).

(١) أبو الفرج بن الجوزي ، صفة الصفوة، (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ط

١٣٩٢هـ)، (٤/١٦١).

(٢) سورة النجم، آية: ٣٩.

(٣) سورة المجادلة، آية: ٧.

فالتوكل على الله من أخلاق المعاملة، معاملة المؤمن لربه عز وجل، فلا بد أن ترتقي هذه المعاملة، وراقيها نابع من طاعة المرء لربه، ولرسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (١٣) **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴿١٤﴾^(١).

فأمر الله بطاعته ورسوله فيما شرع وفعل مابه أمر وترك ماعنه نهى وزجر ... فسبحانه يخبر أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره فقال " الله لا إله، فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب أي وحدوا الإلهية له وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه وحده فهذا هو أثر التصور الإيماني في القلوب، وفي هذا (إيماء) إلى أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه، ولا يتقوى إلا به؛ لأنه يعتقد أنه لا قدر في الحقيقة إلا هو وفي الآية: دليل على أن من لا يتوكل عليه ليس بمؤمن^(٢).

إن من يرزق وينعم بطاعة الله والتوفيق لما يحبه ويرضيه سبحانه فهو دائم التقوى والخوف من العزيز الحكيم، وتبرز من هنا قيمة الإيمان، والطاعة؛ لأن بعد هذا لا خوف ولا مهابة إلا منه عز وجل، فالله لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين: مخافته جل جلاله، ومخافة الناس، فيرسخ بذلك الإيمان، ولا يسع المؤمن إلا أن يتوكل على الله وحده؛ لأن ذلك منطق الإيمان، ومقتضاه وهذا مادلت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

(١) سورة التغابن، آية: ١٢-١٣.

(٢) انظر: لابن كثير بتصرف، تفسير القرآن العظيم، (٥٨٧/٤)؛ ولسيد قطب بتصرف، في ظلال القرآن، (٣٥٨٩/٦)؛ وللمراغي بتصرف، في تفسيره، (١٢٧/١٠-١٢٨).

(٣) سورة المائدة، آية: ٢٣.

فالعبد يجد الإيمان في قلبه بعد طاعة ربه، ويزيد إيمانه بقدر فعله للطاعات، وقد عرض القرآن الكثير من الطاعات التي تزيد إيمان المرء بربه منها على سبيل الذكر لا الحصر، مخافته سبحانه والإنابة إليه، ذكره سبحانه، التوكل عليه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(١).

فالمؤمن هو الذي لا يخالف الله ورسوله ولا يترك اتباع ما أنزله إليه في كتابه من حدود وفرائض، وهو الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، وانقاد لأمره، وخضع لذكره، خوفاً منه، وهرباً من عقابه، وإذا قرئت عليه آياته أيقن بها وازداد تصديقاً لها، تصديق فضل عن تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك، وذلك هو زيادة ماتلي عليه من آيات الله إياه إيماناً " وعلى ربهم يتوكلون " أي يوقنون، في أن قضاءه فيهم ماض، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه^(٢).

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾^(٤).

فالإيمان يزيد في قلب وحياة صاحبه، يزيد ويزيد حتى يملأ قلب ووجود صاحبه، ويكون نوراً يضيء له حياته، ويكون هو قد تمثل الإيمان عملياً في حياته، وتجسد الإيمان به وحل في كيانه، كلامه إيمان، ونظره إيمان، وسمعه إيمان، وذهنه

(١) سورة الأنفال، آية: ٢ .

(٢) انظر: ابن جرير الطبري، تفسيره، (٩/١٠-١٠).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٢٢.

إيمان، قيامه قعوده إيمان، نومه ويقظته إيمان، حركته سكونه إيمان، أنفاسه ودقات قلبه إيمان، أو لنقل: إنه هو الإيمان.

فسمه التوكل على الله من صفات من هم في إيمان. " لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه سبحانه ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب" (١).

فالتوكل على الله مقتضى الإيمان والإسلام، وهذه حقيقة لا يرتاب أحد فيها، فيتضح لنا أن القرآن الكريم قد عرض في آياته الكريمة من صفات أهل الإيمان أهمها وأشهرها، ودعت المؤمنين أن يتصفوا بها حتى يعيشوا حياة إيمانية، وينالوا جنة الله وثوابه، ونعيمه والمؤمن حريص على أن يكون مع ربه، وهذه الصفات تتفاوت قلة وكثرة قصرا وطولا، والتوكل على الله من أهم هذه الصفات؛ لأنه صفة متصلة برب العباد مباشرة، وقد أكد عليها القرآن في آياته، واستمرار عرضها في سور مكية ومدنية يدل على أهمية اتصاف المؤمنين بها وتحقيقها فيهم، وأهمية التذكير المستمر بالتوكل على الله حتى لا ينسى ولا يهمل.

فهذا خلق التوكل جلي أمامنا فما علينا إلا أن نقبل عليه، ونتحلى به لنكون من أهل الإيمان.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٤٥٢).

الفصل الثالث

التوكل على الله وعلاقته بالأسباب

وفيه :

تمهيد .

المبحث الأول: أركان التوكل على الله .

المبحث الثاني: التوكل على الله من أسباب النصر.

المبحث الثالث: القدرة والمشية والأسباب .

المبحث الرابع : الأعمال التي يعملها العباد في تحقيق التوكل.

المبحث الخامس: مجال التوكل على الله .

الفصل الثالث

التوكل على الله وعلاقته بالأسباب

التمهيد :

إن التوكل على الله تعالى من أقوى الأسباب في حصول المراد، وهو كجعل الإسلام والإيمان، والإحسان أسباباً مقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، وهو كجعل سائر أعمال القلوب والجوارح أسباباً مؤدية، ومقتضية لما رتب عليها من الجزاء، والكمال كل الكمال في القيام بهذه الأسباب .

فتحقيق التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدرات بها، وجرت سنته في خلقه، فالله سبحانه أمر بالأخذ بالأسباب، والتوكل عليه، فمن سعى بجوارحه كانت له طاعة مع إيمان القلب.

فبالأسباب : هي الطريق للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه، وقيل ما يكون طريقاً إلى الشيء غير أن يضاف إليه وجود، وسمي سبباً مهيناً نحو ما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم من غير أن يضاف إليه وجوب الحكم أو وجوده؛ أي لا يكون ثبوته به ولا وجوده عنده، بل يتخلل بينه وبين الحكم علة لاتصاف وجودها إلى ذلك الطريق، فهو بذلك كالحبل بين شينين لننال به المطلوب^(١).

فالتوكل على الله قوة و طاقة روحية تدفع المؤمن إلى العمل والإنتاج، غير أنه يجب أن يكون في الاعتبار أن الاعتماد على الأسباب ليس معناه الثقة الكاملة المطلقة في أنها تؤدي إلى الخير، بل يجب الإيمان بأنها وما يراد منها مردهما إلى الله أولاً وأخيراً، فهو خالق الأسباب والمسببات .

" فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتكل عليها، إن الذي ينشئ النتائج كما ينشئ الأسباب هو قدر الله^(٢)، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن فاتخاذ السبب عبادة.

(١) انظر: للفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ١٢٣؛ ولابن منظور، لسان العرب؛ ولأبي البقاء الكفوي، الكليات، (٢٠/٣).

(٢) سيد قطب "حديث الشهيد سيد قطب وعلى ربهم يتوكلون"، مجلة المختار الإسلامي، القاهرة، ٦٠٧.

فالتوكل على الله والمتوكلون يتخذون الأسباب ويستعدون أكمل ما يكون الاستعداد والأهبة، فقد أمر تعالى بالسعي في جميع الأمور صغيرها وكبيرها، فينبغي على الناس كلهم أن يتوكلوا على الله ويعودوا أنفسهم على ذلك.

ولابد من ربط الأسباب بالمسببات والأخذ بالأسباب المشروعة أو المباحة في مختلف شؤون الحياة، ونرضى بعدها بأقدار الله تعالى المنزلة علينا، فلا يحدث شيء إلا بقدره الله ومشيئته.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ... (٢٤) ﴿٢٤﴾ (١)، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

فالمؤمن يؤمن ويصدق قدر الله في نتائج أعماله، فما عليه إلا أن يردد في يقين قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢).

(١) سورة الكهف، آية: ٢٣-٢٤.

(٢) سورة التوبة، آية: ٥١ .

المبحث الأول

أركان التوكل على الله

إن لكل أمر وشأن أركاناً ودعائم يقوم عليها بناؤه، فالإسلام له أركانه الخمسة، فلا يقوم بناء إلا على هذه الدعائم حتى يسلم هذا البناء من الخلل.

والتوكل على الله له أركانه وركائزه التي يقوم عليها ليكون توكلاً حقيقياً لا تشوبه شائبة.

فجميع الأمور التي تصدق بها النفوس وتطمئن إليها القلوب، وتكون يقيناً فهي متمكنة من القلوب راسخة لا تتزلزل، وعلى هذا ربي رسول الله ﷺ، الرعيل الأول، فاليقين الثابت هو محط الإيمان.

قال تعالى: ﴿لَيْسَتِ يَاقِينِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا﴾^(١).

فأركان التوكل ودعائمه هي الأشياء التي يتقوى، ويتوقف الإيمان، والعمل عليها، ولا يقوم ذلك العمل، والإيمان إلا بها، وإذا فقد ركن أو لم يتحقق انهدم الإيمان والعمل معا.

فلزم من ذلك تقوية هذه الأركان قدر المستطاع وبشتى الأساليب، وهذا قائم على اليقين والإيمان بالله تعالى، فالمؤمن يزيده إيماناً طاعته لربه، فما من عمل إلا وله ركانز يعمل بها، ويكون بها صائبا، ومنها ما هو قلبي، ومنها ما هو عملي، وترك أي منها يوجب الهدم أو النقصان، والتوكل له أركان خمسة هذا ما استخلصته. والله أعلم.

فالركن الأول : اليقين والثقة بما عند الله تعالى، إن اليقين والثقة هما الركن الأول في التوكل وهما بمثابة القاعدة الأساسية؛ لأن اليقين والثقة تزيد المرء المؤمن من ربه قرباً وحباً، ومعرفة، ورضى، وخضوعاً، واستكانة، وكلما ازداد اليقين

(١) سورة المدثر، آية: ٣١.

والثقة في قلب المرء المؤمن سلك بهما طريق السلامة إلى دار السلام، وبهما يكون التوكل على الله صحيحاً سليماً.

"فاليقين ملاك القلب، وبه كمال الإيمان، وباليقين عرف الله، وبالعقل عقل عن الله" (١).

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّي أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَّحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٥).

فمن خلال هذه الآيات نستشعر يقين المؤمن بالله تعالى وثقته بالله، فالمؤمن واثق أن الله تعالى وحده الكافي فلا يحتاج معه إلى أحد، فعلى الله التوكل فهو المعين

(١) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (٣٩٨/٥).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٦٤.

(٥) سورة الزمر، آية: ٣٨.

والمانع من العدو ولن يغلب المؤمن بعد عون الله - فخشيته، ويقينه بالله زاده تصديقا، ويقينا في دينه وإقامة على نصرته عدوه^(١).

فمتى نزل اليقين والثقة في نفس المؤمن كان من أكثر الناس توحيدا بربه من أصدق الناس طلبا وقوة في الإرادة، وكمال الانقياد، فيعكف القلب على محبة الله، وذكره بالإجلال والتعظيم، وتكون جوارحه على الطاعة، والإخلاص، فعلى قدر نزول اليقين واستقراره في النفس يظهر اللطف عند النوازل، فإن كمل العبد القيام بالأوامر ظاهرا وباطنا ناله اللطف ظاهرا وباطنا، وإن قام بصورها دون حقائقها ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن، فلنقو اليقين والثقة بذكره ومعرفته والاتصال به، والتعلق به وحده سبحانه^(٢).

الركن الثاني: فهو قطع كل مؤمل دون الله تعالى :

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

المؤمن لا يكمل إيمانه إلا بتوكله، فالآية دليل على ذلك، فليس بعد الله أحد فهو الناصروالمؤمل، والملاذ والملجأ. فالله تعالى شملت رحمته الوجود كله، ويعجز الإنسان عن إحصائها في ذات نفسه، وتكوينه، وماسخر له من حوله، ومن فوقه، وتحتة، وما أنعم به عليه، مما يعلمه، ومما لا يعلمه، فرحمته سبحانه شملت البر والفاجر، فكيف بمن هذه صفاته سبحانه لأنقطع المؤمل دونه، فقد قطع إبراهيم عليه السلام الأمل في غير الله، ووجد الأمل في الله تعالى وسط النار، ووجدها يوسف عليه السلام في غياهب الجب، وفي غياهب السجن، ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت ووجدتها أم موسى في قلبها حين قذفته في اليم، وهي لا تملك له حولا، ولا طولا، ووجدها موسى في قصر عدوه المتربص به فرعون كما وجدها أهل

(١) انظر لأبي عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (دار النشر بدون تظ)، مج ٢، (٢٥٤/٤).

(٢) انظر: لابن القيم، الفوائد، ص ٢٦٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

الكهف في كهفهم، وأخيرا وجدها محمد رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، ووجدها كل أمل في الله، لاجيء إلى الله وحده يائس ممن سواه سبحانه.

فالمرء المؤمن يأمل في الله، ويحسن الأمل، والرجاء في قبول طاعته، ولكن الإنسان أو المرء المؤمن العاقل البصير الذي يحب النجاة لنفسه لا يسرف في الأمل، كما أن عليه أن لا يئأس من روح الله؛ ذلك أن اليأس من روح الله كبيرة من الكبائر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْيُسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

إن قطع كل مؤمل دون الله تعالى يورث في النفس اليقين في الله تعالى وزيادة في الإيمان، وبهذا يحصل الفرج والتنفيس؛ لأن من أمل في الله هو المؤمن الذي يرجو دائما فرج الله تعالى، فسبحان من كان قيما على خلقه مدبرا لهم.

الركن الثالث: القيام بالأحكام الشرعية، ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية:

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(٢).

"فإلى الله وحده وكلنا أمورنا مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من الحفاظ على شرعه ودينه، فهو الذي يكفينا تهديدكم وماليس في استطاعتنا من جهادكم" "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" إذ من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية"^(٣).

(١) سورة يوسف، آية: ٨٧ .

(٢) سورة الأعراف، آية: ٨٩ .

(٣) انظر: للمراغي، تفسيره، مج ٣، (٦/٩) .

ولقد علم المرء المؤمن من خلال القرآن والسنة أن البشرية في أجيالها المتعاقبة لها أحكام، وشرائع سماوية تضمن حق الإنسان. والمسلم الحق يؤمن بالشرعية الإسلامية منهج حكم، ونظام حياة.

قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّلِعُوا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١).

فعلى المؤمن أن يأخذ من دنياه لآخرته، فهي الباقية الدائمة، يأخذ منها على حسب شرع الله، مراعيًا بذلك السنن الكونية والاجتماعية الشرعية.

فالدنيا وما فيها من ثروات هي متاع، لكنه متاع لأيام قليلة معدودة، وما عند الله من الثواب خير للذين صدقوا بالله ووحدوه وتوكلوا على ربهم وفوضوا إليهم أمورهم^(٢).

فالمؤمن يسارع في الخيرات، ويتسابق إليها، ويقدم لله تعالى عبادته وطاعته، وحسناته، ويخشى أن لا يتقبلها الله منه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾^(٣) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ^(٤) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ^(٥) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ^(٦) أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ^(٧).

فالمؤمن جاد في طلب مرضاة ربه مخلص في عبادته لايجعل فيها لغير الله شركا لوثن، ولا لصلنم ولا يراني بها أحدا من الخلق ويجعل أعماله لوجه الله خالصة وإياه يقصد بالطاعة والعبادة دون كل شيء سواه، ويبادر في الأعمال الصالحة، ويطلب الزلفة عند الله بطاعته، فهذا هو من سبقت له من الله السعادة^(٨).

(١) سورة الشورى، آية: ٣٦ .

(٢) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١٧٧/٤) .

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٥٧-٦١ .

(٤) انظر: لابن جرير الطبري، جامع البيان، (٣٧٠/٥).

كذلك المؤمن يأخذ الأحكام ويتحرك ويعمل ويسعى بها لمواجهة الناس، ويتفاعل مع الأحداث ويتأثر ويؤثر، ولكن بالإيمان الذي رسخ ونمى فيه ومارسه، والمؤمن الحق لا ينظر، ولا ينطق، ولا يبيتش، ولا ينهض حتى يرى على طاعة قدم أم على معصية فإن كانت الأولى تقدم وإن كانت الثانية تأخر، ولن تكون الطاعة إلا لقلب المؤمن الطاهر^(١).

الركن الرابع: العمل والعزيمة مع الأخذ بالأسباب :

قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٢).
وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٣).

فأمر الله نبيه - ﷺ - على المضي في الأمر والعزم عليه والمعنى "أي عزمت لك ووفقتك وأرشدتك.... للتوكل على الله - فقد امتثل رسول الله لأمر ربه فقال "لا ينبغي لنبي يلبس لأمره أن يضعها حتى يحكم الله" أي ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقض للتوكل الذي شرطه الله عز وجل مع العزيمة"^(٤).

فهذا رسول الأمة وسيد ولد آدم أمره الله تعالى بالتوكل عليه وشرع له الأخذ في الأسباب بجوانب الحياة كلها، إن الأمر بالتوكل من صميم العقيدة، وخالص التوحيد، وجوهر العبودية لله؛ لأنه يعني إظهار العجز لجلاله، وعدم الركون إلى الأسباب من كل وجه، وإن لم ينقطع عنها.

(١) انظر: لابن رجب الحنبلي، كتاب التوحيد، تحقيق صبري شاهين (الرياض: دار القاسم تط

الأولى ١٤١٥هـ)، ص ٦٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٩.

(٤) انظر: للقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج ٢، (٢٥٢/٤).

وكما أن التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها العبد على مطلوبه، وحيث يكون قلبه معلقا بالله لا بالأسباب، وسنة الله في دنيا الناس وأخراهم تؤكد مشروعية الأخذ بالأسباب، وعدم الإخلال بها؛ لأن كثيرا من يعتقد أن التوكل على الله يقتضي ترك العمل والعزم عليه وعدم السعي والأخذ بالأسباب لطلب أمر ما، وإن فعل شيء من ذلك قاذح في التوكل، وهذا فهم خاطيء، فالله تعالى أمر "عباده" بالسعي.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(١).

وأمر حتى المجاهدين إذا صلوا صلاة الخوف أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم فقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾^(٢).

فالسعي في السبب لا ينافي التوكل على الله في جميع الأقطار والأقاليم والأرجاء لأخذ المكاسب والتجارات^(٣).

فالعمل والعزيمة والسبب أمور دعى الخالق بالأخذ بها مع الاعتماد عليه سبحانه، وهي أمور مطلوبة في الحياة، فالمؤمن الواعي اليقظ هو من يفتن لهذه الأمور، ويضعها أمام عينيه، ويستغل صحته، وماله، وقوته في العمل الصالح، الذي يحقق به الخير، والحياة الطيبة في الدنيا، "فمن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إن خير الكسب كسب يدي عامل إذا نصم"^(٤)، وقد كان ﷺ يؤثر أن يقوم بنصيبيته من العمل بنفسه كأي واحد من أصحابه -رضوان الله عليهم أجمعين - مع مكانته العظيمة الكريمة.

(١) سورة الملك، آية: ١٥ .

(٢) سورة النساء، آية: ١٠٢ .

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/٦٢١).

(٤) مسند أحمد (٣٥٧/٢، ٣٥٨)، وقال الشيخ أحمد شاکر: إسناده صحيح، وقد أورده السيوطي

في الجامع الصغير (٤٥٢٧) وحسنه الشيخ الألباني (٣٢٧٨).

الركن الخامس: سكون القلب إلى ما قسم وقدر الله :

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾^(٢).

إن مشيئة الله وقدره ماضية لامحال " له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره لايسأل عما يفعل وهم يسألون"^(٣)؛ فهذا الركن بحسب اجتهادي والله أعلم أنه هو نهاية التوكل؛ لأن من سكن قلبه ورضي وسلم لله تعالى بتدبيره له كان حقا على الله تعالى أن يرضي عبده.

فسكون النفس إلى ما قسم وقدر الله سواء كان هذا القدر على مراد العبد أو على خلافه لازم مأمور به العبد؛ لأن السكون والرضى من الإيمان، فالمؤمن ساكن راض متلق أقدار ربه بالانشراح والتسليم وطيب النفس، كذلك فإن الرضى والسكون روح التوكل، وروح اليقين، والرضى والسكون يقوم مقام كثير من التعبدات التى تشق البدن؛ لأن السكون يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس، فكل من سكن قلبه إلى ما قسم وقدر الله فقد أقام الإيمان، وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠ .

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٠٧ .

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٢٦٢).

(٤) سورة التوبة، آية: ٥١ .

" فالجميع تحت مشيئته وقدره فهو سيدنا وملجؤنا ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل" ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ^(٢).

إن الله تعالى أوجد كل شيء على كيفية خاصة وفي وقت، وترتيب خاص بحسب علمه، وإرادته، وهذا هو قدر الله وقضاؤه، والله تعالى عدل في قضاائه وقدره، حكيم في تصريفه وتدبيره، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن فعلى المسلم أن يسكن ويرضى قلبه بما قسم الله، وقدر من خير أو شر حلوا أو مر، فهو في سكينته، وطمانينة، ورضى، وقد أمرنا تعالى بالسعي في الأرض بجد واجتهاد، والأخذ بجميع الأسباب، وحسن التوكل على الله، فإن سكون القلب والاستسلام، والرضى بقدر الله من خير أو شر من جملة ثمرات المعرفة " فسبحان من ناظ الأمور بالأسباب، ليحصل ذل العارف بالحاجة إلى التسبب" ^(٣)، فالإيمان بالقضاء والقدر شرط من شروط الإيمان وركن من أركان التوكل على الله، فهذه الدعائم الخمس لها أهمية عظيمة في حياة المؤمن كفرد وفي حياة المؤمنين كمجتمع، وبها يكتمل التوكل وتحصل مرادات العبد النفسية، والاجتماعية والدينية، والدنيوية، فكل مايجرى على المرء من أقدار الله تعالى لايعلق عليها سواء بفوات محبوب أو حصول مكروه .

أخيرا فإن هذه الأركان والركائز متداخلة متلازمة عند أدائها، فينبغي الالتزام بها، وأخذها بقوة وفقا للأدلة النقلية، والعقلية، والواقعية .

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٦٤/٢).

(٢) سورة الكهف، آية: ٢٣ .

(٣) ابن الجوزي، صيد الخاطر، راجعه وحققه علي الطنطاوي، ناجي الطنطاوي، (سوريا: دار

الفكر، تط ١٤٠٧هـ)، ص ١٦٢، باب ١١٦ الرضى بالقدر.

المبحث الثاني

التوكل على الله من أسباب النصر

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، الآية الكريمة وعد من الله للمؤمنين بالنصر، وهو وعد لا يتخلف.

كان هذا الوعد مع ضعفهم وقوة أعدائهم، وفقرهم، وثروة أعدائهم، وقتلهم وكثرة أعدائهم بحيث يستحيل العادة نصرهم، فالتوكل على الله من أسباب النصر، وقد ربط تعالى التوكل بالنصر في آيات عدة من كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢) إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ^(٣).

فالآية نزلت في وقعة أحد، وقد أرصد كفار قريش أموالهم وجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا قريبا من أحد تلقاء المدينة فعلم بهم رسول الله وخرج في نحو ألف ورجع عبدالله بن أبي بثلث الجيش واستمر رسول الله ﷺ سائرا حتى نزل الشعب من أحد عدوة الوادي^(٣)، وقد كان لهذه الغزوة عوامل وأسبابا ظاهرة بعد أن ظفر المسلمون بالنصر على أعدائهم في غزوة بدر الكبرى أرادت قريش الشار لصناديدها الذين ألقوا في القليب قليب بدر، وسبب آخر هو أن الذين تخلفوا عن بدر من المهاجرين والأنصار كانوا يسألون الله أن تتيح لهم فرصة لقتال المشركين، والفتك بهم ليعوضوا ما فاتهم من الأجر، والغنيمة يوم بدر، وقد بدأت المعركة وانتهت بدروس قاسية للمسلمين في نهاية المعركة بعد أن كان في أولها نصر مؤزر.

"ولكن ما أصيب به المسلمون فيه من الدروس والفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة: منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية

(١) سورة الروم، آية: ٤٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٢١-١٢٢.

(٣) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١/٥٩٨).

وشؤم ارتكاب النهي؛ لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول أن لا يبرحوا منه، ومنها أن عادة الرسل أن تبلى وتكون لها العقابة....، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائما دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو أنكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيا عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة (غزوة أحد)، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم، ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس وكسراً لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا وجزع المنافقون، ومنها أن الله هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها، ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم، ومنها أنه أراد إهلاك الأعداء فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين" (١).

فمنها نرى أن السبب الأول والرئيس في الهزيمة هو الرغبة في الدنيا وطلبها، بمعصية الله ورسوله فهذا سبب كل بلاء وهزيمة ومحنة تصيب المسلمين في كل زمان ومكان.

فالآية تتحدث عن اضطراب المؤمنين ومن معهم فكاد الفشل أن يكون حليفاً لهم، ولكن الله تعالى ثبتهم، ومكنهم بالنصر على أنفسهم.

("وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا" أي ناصرهما وحافظهما ومتولي أمرهم بالتوفيق والعصمة، فإن قلت: "الهم" العزم على فعل الشيء، والآية تدل على أن الطائفتين قد عزمنا على الفشل وترك القتال وذلك معصية

(١) انظر: لابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٧/٤٤٠).

فكيف مدحهما الله تعالى بقوله: "وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا" - بنو سلمة، وبنو حارثة - قلت "الهم" قد يراد به العزم، وقد يراد به حديث النفس، وإذا كان كذلك فحمل "الهم" على حديث النفس هنا أولى والله تعالى لا يؤاخذ بحديث النفس، ويعضده قول ابن عباس (أنهم أضمروا أن يرجعوا فلما عزم الله لهم على الرشيد ثبتوا مع رسول الله ﷺ فمدحهم الله تعالى بقوله: {وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا}.... وقوله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} التوكل: تفعل من وكل أمره إلى غيره إذا اعتمد عليه في كفايته والقيام به، وقيل التوكل: هو العجز والاعتماد على الغير، وقيل: هو تفويض الأمر إلى الله تعالى ثقة بحسن تدبيره فأمر الله عباده المؤمنين أن لا يتوكلوا إلا عليه، وأن لا يفوضوا أمرهم إلا إلى الله^(١).

فإنه سبحانه نصر المؤمنين، وصدق وعده للمؤمنين بالنصر إذ ظهر ذلك في أول النهار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾^(٢).

فالآية دليل على أن وعد الله للمؤمنين بالنصر مشروط بقيام المؤمنين بأوامر الله في كل شؤونهم فمتى حققوا اللجوء الخالص لله تعالى - ومن مقتضياته التوكل عليه سبحانه وتعالى وحده دون سواه - تحقق لهم ما وعدهم الله تعالى من النصر^(٣)، "فالمعنى لقد حقق الله وعده لكم بالنصر، حتى إذا جبنتم، واختلفتم في تنفيذ الأمر، وعصيت أمر رسولكم، بسبب خلل نيات بعضكم بأن لم تتمحض للأخرة منعكم الله نصره"^(٤).

(١) انظر: الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل وبهامشه تفسير البغوي، ٤ مج (بيروت: دار الفكر تط ١٣٩٩هـ)، (١/٤١٢-٤١٣).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٢.

(٣) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٢/٩٠٠).

(٤) المصدر نفسه، (٢/٩٠١).

إن إرادة الدنيا وحدها غير معصية، ولكن ما ترتب عليها من ترك لطاعة الله ورسوله ﷺ، وما عقبه من آلام وجراحات، وقتل، وهزائم وفوات خير كبير، ومع ذلك فالله تعالى أراد حكمة عظيمة خفية في تلك الهزيمة التي ظاهرها النعمة وباطنها النعمة، والعبرة أن قوانين النصر المادية من تفوق بالعدة والعدد، وفن القتال، لاتعمل عملها إلا إذا بذل الجهد والدخول إلى المعركة بتوكل على الله صحيح ليظهر الله سنته من النصر، فمن هذه الواقعة علم المؤمنون أن النصر والهزيمة يتمان بحسب سنن إلهية فما أصبحوا بعد هذه الحادثة المؤلمة يغفلون تلك السنن أو يهملونها وإن فعلوا تراجعوا سريعا عن ذلك .

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١) إن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ (٢)

والمعنى : " إن يعينكم الله بنصره ويمنعكم من عدوكم كما فعل يوم بدر ﴿ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ يعني من الناس؛ لأن الله تعالى هو المتولى نصركم " وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ " كما فعل يوم أحد فلم ينصركم، ووكلكم إلى أنفسكم لمخالفتكم أمره وأمر رسوله ﷺ ﴿ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ ﴾ ، أي من بعد خذلانه " وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ لاعلى غيره لأن الأمر كله لله ولاراد لقضائه، ولادافع لحكمه فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى، لاعلى غيره وقيل التوكل أن لاتعصى الله من أجل رزقك، ولاتطلب لنفسك ناصرا، ولا لعملك شاهدا سواه" (٢).

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩-١٦٠.

(٢) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، (١/٤٣٩) .

فالآيتان من سورة آل عمران تضمنت حقيقة كبرى يجب العمل بها دائما والإيمان بها أولا، أن النصر بيد الله، والخذلان كذلك فلا يطلب نصر إلا منه تعالى، ولا يهرب خذلان إلا منه عز وجل، وطلب نصره هو بإنفاذ أمره، وطاعته، وتقواه، والاستعانة به، والتوكل عليه، لأن من شأن المؤمنين التوكل والتفويض لله سبحانه؛ لعلمهم أنه لناصر سواه؛ ولأن إيمانهم يقتضي ذلك.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٢) ﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤) (١).

"﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ معبرين عن إيمانهم، "حَسْبُنَا اللَّهُ"؛ أي: هو كافينا ما يهملنا من أمر الذين جمعوا لنا، "حَسْبُنَا" بمعنى محسبنا فهو من أحسبه إذا كفاه كما قالوا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ الذي توكل إليه الأمور فإنه لا يعجزه أن ينصرنا عليهم، على قتلنا، وكثرتهم، أو يلقي الرعب في قلوبهم، ويكفيينا شر بغيهم، وكيدهم، وقد كان الأمر كذلك، فإن الله تعالى ألقى الرعب في قلب أبي سفيان وجيشه على كثرتهم فولوا مدبرين وأعز الله بذلك رسوله والمؤمنين" (٢).

نعم! اد لهمت الأمور على المؤمنين فازدادوا توكلًا على الله، وإيمانًا به والله عند حسن ظن عباده به، فكفاهم الله شر المشركين، وسجل لهم النعمة من السلامة، وفرار الكافرين، وعودة الهيبة للمؤمنين، ورجوع الروح المعنوية العالية للمسلمين (٣).

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣-١٧٤.

(٢) انظر: لمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٢٤٣/٤).

(٣) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٩٣٩/٢).

فالله تعالى يكفى المؤمنين شر المشركين والأعداء، ويكفيهم ما يهملهم بعد التوكل عليه فهو حسبهم ونعم الوكيل.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١).

فآلية الكريمة "إخبار من الله تعالى بشأن المنافقين الذين يظهرون الموافقة والطاعة، والله تعالى عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم وما يتفقون عليه ليلاً، من مخالفة الرسول ﷺ فاصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ولا تكشف أمورهم ولا تخف منهم فكفى بالله ولياً وناصرًا ومعيناً لمن توكل وأتاب إليه" (٢).

فجاء الأمر بالتوكل هنا مقروناً بالصفح والحلم والاعراض عن الأعداء، وعدم الاهتمام بهم، لأن في ذلك نصراً متيناً على الأعداء، خاصة أن الله سبحانه قد تكفل بالمؤمنين، فأرشد الله تعالى رسوله الكريم وصحبه أن لا يبالوا بشرذمة المنافقين؛ لأنه حسبهم وكافيهم لما يبيتونه من الشر.

وقال تعالى ممتناً على رسوله الكريم - ﷺ - والمؤمنين تبعاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

فآلية وإن اختلفت الأقوال في سبب نزولها فمنهم من قال أن قوماً من اليهود وضعوا طعاماً لرسول الله ﷺ وأصحابه فأوحى الله بشأنهم لرسوله ﷺ.

(١) سورة النساء، آية: ٨١.

(٢) انظر: لابن كثير بتصرف، تفسير القرآن العظيم، (١/٨٠١).

(٣) سورة المائدة، آية: ١١.

ومنهم من قال أنها نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بالرسول وأصحابه.

ومنهم من قال أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس الرسول الرحي، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تأمروا عليه^(١).

فهي مشعره بأن التوكل من أسباب الكف والنصر على الأعداء، ودفعهم عن الرسول والمؤمنين وبين ما أرادوا من كيد.

" فعن جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً، وتفرق الناس في العضاء يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه، فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: " الله " قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً من يمنعك مني؟، والنبي ﷺ يقول: " الله " قال: فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه، فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه)^(٢).

فالرسول الكريم توكل على الله، فكفاه الله ما أهمه، وحفظه من شر الأعداء، وعصمه؛ لأنه ﷺ القائل: (اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم أمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت)^(٣).

ففي الآية قصر حقيقي، وهو أن التوكل لا يكون إلا على الله إذ لاكافي إلا هو سبحانه وتعالى.

(١) انظر: المصدر السابق، (٥١/٢).

(٢) رواه البخاري في الجهاد، باب: من علق سيفه بالشجر، ح: ٢٩١٠، والفتح (١٣٣/٦).

(٣) البخاري في الفتح (٢٤٧/١)، ومسلم (٢٧١٠).

وقال سبحانه في حق الرجلين اللذين أنعم الله عليهما من بني إسرائيل ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(١).

فقد أنعم الله تعالى عليهم بتتوير بصائرهم بمعرفة الله عز وجل وماله من حقوق واجبة، قاموا بها وحثوا قومهم عليها منها الحث على التوكل على الله واتباع أمره، وموافقة رسوله، وأرشدهم إلى الفعل الذي سيكون به النصر حليفهم والظفر والتأييد، ودخول البلاد التي كتبها الله لهم؛ وهو الإيمان الذي يقتضي التوكل على الله وقطع العلائق القلبية مع غير الله وترك التملق بالباطل للخلائق^(٢)، فما كان هذا الحث والإرشاد إلا من الإيمان بالله والوثوق بوعد الله وبنصره وتأييده^(٣).

قال تعالى في معرض الحديث عن غزوة بدر ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوًى لَّا دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٤).

فالمؤمن المتوكل على الله الذي يعلم أنه مامن حول ولا قوة ولا نصر إلا من الله وبالله، والمنافقون لا يدركون القوة الكامنة في نفوس المؤمنين.

فكل من أسلم أمره إلى بارئه وخالقه، ووثق بفضله، وإحسانه فانه هو الحافظ والناصر عزيز لا يغلبه شيء حكيم يوصل إلى أحبائه وأوليائه الرحمة والثواب وإلى أعدائه العذاب^(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٦) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ

(١) سورة المائدة، آية: ٢٣ .

(٢) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (١٣٥٥/٣).

(٣) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٢/٢)؛ وللمراغي، في تفسيره، (٩٢/٢).

(٤) سورة الأنفال، آية: ٤٩ .

(٥) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ٨، (١٨٣/١٥).

هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

فإن الله تعالى يرشد أوليائه لأساليب الحرب، ومنها إن كان في السلم والمهادنة خير فيجب الإقبال عليه وهذا ما كان من رسول الله ﷺ يوم الحديبية فبأمر من الله تعالى صالحهم وتوكل في ذلك على الله؛ لأن الله كافي وناصر أحبائه حتى إن كان المشركون يريدون بهذا الصلح الخديعة ليتقوا ويستعدوا فالله تعالى حسب نبيه وكالته وناصره عليهم^(٢).

فإن الله تعالى وعد المؤمنين ورسولهم من قبل بالنصر والظفر مطلقا على جميع التقديرات وهذا بعد أن يعملوا مافي طاقتهم من طاعة ربهم، وهو سبحانه قادر على الوفاء، فلا يضام من التجأ إليه، ويعتمد على جنابه، فهو عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان في أفعاله، وأحكامه، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

(١) سورة الأنفال، آية: ٦١-٦٢.

(٢) انظر: لابن كثير، المصدر السابق، (٥٠٦/٢).

المبحث الثالث

القدرة والمشية والأسباب

شاء الله تعالى أن يخلق الخلائق، وقضى سبحانه أن تكون بأقدار معلومة فهو العليم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(١).

والمؤمن يعرف لربه الكمال فتراه مؤمناً بأن كل ما يحدث له قدر بحكمة، والله سبحانه يعلم ولا تعلم ويقدر ولا تقدر ولا بد أن نؤمن بأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا؛ لذلك فإن جميع المحصلات بمشيئته سبحانه وقدرته.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُكُمُ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

لأنه سبحانه هو الذي يعين ويمنع، ويخذل، ويغلب^(٣)، فالنصر والخذلان بقدر الله، ومشئته، وفي كل له حكمة يرتضيها.

فإنه وحده هو صاحب الخلق والأمر، والملك والتدبير، فهو رب العالمين خالق كل شيء، ومالك كل شيء، ومدبر كل شيء؛ فهو رب جميع العوالم من مختلف الأجناس والألوان؛ فهو واحد لا شريك له لا يظهر في الوجود شيء إلا

(١) سورة الحج، آية: ٧٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

(٣) انظر: لأبي محمد الحسين البغوي، معالم التنزيل في التفسير والتأويل، ٥ مج (بيروت: دار

الفكر تط ١٤٠٥هـ) (١/٥٧٣).

بإرادته، وقدرته وخلقته، وعلمه، هو الأول، والآخر فعال لما يريد؛ هو الذي يرزق جميع خلقه فتقدير أرزاق خلقه، وأجالهم بيده وحده.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١).

فكل ما هو كائن، وما سيكون مسطر في ذلك الكتاب المبين، وبهذا فالمؤمن يندفع للعمل في سبيل مرضاة ربه، مجتهدا في ذلك، وهذا الإيمان بقدر الله ومشينته دافعة إلى العمل المثمر في نشر الدين، والعمل بأحكامه وتشريعاته، والأخذ بسلوكه وأخلاقه.

فالآية دلالة إلى الإشارة بإحاطة علمه سبحانه بكل ما هو موجود صغير أو كبير، ولا يتأمل ذلك إلا عالم مؤمن واسع العلم، ومن كان ممثلاً قلبه بعظمة الله تعالى، ويدرك أن جميع أعماله محصية عليه، سواء كانت صغيرة حقيرة أو كبيرة جليلة^(٢).

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٣).

فإن الله تعالى جعل له سنناً لا تتبدل والإنسان علمه سبحانه بعض السنن، وأدركه بعضها وجعله يتعامل معها في حدود طاقاته ومالم يكشفه له يعلم الإنسان أنها في طلاقة مشيئة الله وحدث كل شيء بقدر الله وما ذاك إلا اختيار من الله تعالى للمتوكلين ليعلموا أن من الإيمان ومن مقوماته الأساسية وقواعده الرئيسية "علم الغيب" الذي اختص به الله تعالى.

(١) سورة يونس، آية: ٦١ .

(٢) انظر: للبيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ص ٢٨٢.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

والمعنى: أن الله عنده "علم ما غاب عنكم، أيها الناس، مما لا تعلمونه، ولن تعلموه مما استأثر بعلمه نفسه، ويعلم أيضا مع ذلك جميع ما يعلمه جميعكم، لا يخفى عليه شيء؛ لأنه لا شيء إلا ما يخفى عن الناس أو ما لا يخفى عليهم، فأخبر تعالى ذكره أن عنده علم كل شيء كان ويكون، وما هو كائن مما لم يكن بعد" (١).

فينبغي للمؤمن أن يعرف أن القوة الفاعلة للأمر هي قوة الله، بعد اتخاذ جميع السبل والقيام ببذل الجهد، والتكاليف، ونفض الأيدي من العواقب، وتعليقها بقدر الله، ونقبل ونرضى، ونسلم بما يأتي به قدر ومشينة الله تعالى .

قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلُ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٢)، فما من شيء إلا ومثبت في علم الله تعالى فكل من علم أن الكل مقدر هان عليه الأمر، فيجب الرضى والتسليم لله تعالى فيه فإنه على وفق رضى الله تعالى، وبناء على مشيئته، وحكمته وواقع على أساس تدبيره لملكه وخلقه (٣).

وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤)، فالله تعالى خلق العبد، وفعله قد قدره الله تعالى وكتبه عليه، وسبق به علمه قبل التقدير، والقضاء، والعبد فاعل لفعله أو تارك له يحاسب به، ويجازى عليه، فالله تعالى لما قدر ما للعبد، وما عليه من خير أو شر قد قدره مربوطا بأسبابه، فللخير أسبابه، وللشر أسبابه، كما قدر أن العبد يأتي تلك الأسباب، ويعمل بها بمحض إرادته التي قدرها له، وحرية الاختيار الذي قضى له به، فلا يصل العبد إلى ما كتب له من خير أو شر إلا بواسطة تلك الأسباب التي يفعلها غير مجبور أو مكروه عليها وعلى فعلها، وفي الحديث "عن عمر ابن الخطاب أن رسول الله - ﷺ - قال: "إن الله - عز وجل - إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل

(١) انظر: لابن جرير، جامع البيان، (٣/٢٧١).

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٢.

(٣) انظر: للبيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ص ٧١٨ .

(٤) سورة الصافات، آية: ٩٦ .

الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار^(١)، فالحديث حجة ودلالة على أن الله تعالى إذا كتب على العبد أزلي السعادة أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التي تسعد أو تشقي لتتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب، فالمرء واصل بسعيه إلى السعادة أو الشقاء إلى الخير أو الشر .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٢)، الآية مقتضية معاني عظيمة منها " يقول تعالى مؤدباً نبيه محمداً ﷺ " قُلْ " يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عنك، " لَنْ يُصِيبَنَا " أيها المرتابون في دينهم " إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا " في اللوح المحفوظ، وقضاه علينا " هو مولانا " يقول: هو ناصرنا على أعدائه " وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ " يقول: وعلى الله فليتوكل المؤمنون، فإنهم إن يتوكلوا عليه، ولم يرجوا النصر من عند غيره، ولم يخافوا شيئاً غيره، يكفهم أمورهم وينصرهم على من بغاهم وكادهم^(٣).

فكل شيء بقضاء الله وقدره، والله تعالى يثبت لنا المصلحة الدنيوية والأخروية، فلاوجه للفرع، ورضانا بقضائه وقدره في المصائب لن يسؤنا بالحقيقة كيف؟ ولم يكتبها علينا ليضرنا بها، إذ هو "مولانا" أي يتولى أمورنا؛ فإنما كتبها علينا ليوفقنا للصبر عليها والرضا بها، فيعطينا من الأجر ما هو خير منها " وعلى الله فليتوكل المؤمنون " فلاناصر ولامتولى للأمر غيره سبحانه العلي الكبير^(٤).

(١) الحديث طويل رواه أبوداود في سننه (٤٧٠٣) واللفظ له، سنن الترمذي (٣٠٧٥/٥) وقال

الترمذي: حديث حسن؛ رواه البغوي في شرح السنة (١٣٩/١) وقال محققه: حديث صحيح.

(٢) سورة التوبة، آية: ٥١ .

(٣) انظر: للطبري، جامع البيان، (١١٩/٤).

(٤) انظر: للقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج ٤، (١٥٨/٨)؛ ولمحمد جمال الدين القاسمي،

محاسن التأويل، مج ٥، (٢٣٣/٨).

إن تفويض الأمور لله تعالى في مستقبل ما، والتصميم على فعله لا الجزم بشيء هي من اللوازم التي على المؤمن أن يتمسك بها عند توكله؛ لأن الأمور جميعها موكولة لله سبحانه، ولمشيئته، وقدرته. "والاعتقاد بقدر الله، والتوكل الكامل على الله، لا ينفيان اتخاذ العدة بما في الطوق فذلك أمر الله الصريح في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(١)، وما يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله، ومن لا يأخذ بالأسباب، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التي لا تحابي أحدا، ولا تراعي خاطر إنسان"^(٢)، فاليقين والرضا بما قسم وقدر لا بد من إدراكه، ومالم يقسم ولم يقدر لن نصل إليه، إذا فالتوكل على الله لا ينافي السعي بالأسباب التي شاعت إرادة المولى سبحانه تبارك وتعالى أن يحقق بها المسببات، وسبحانه أمر بالأخذ بالأسباب، كما أمر بالتوكل، فالأخذ بالأسباب بالجوارح طاعة للمولى سبحانه، والتوكل بالقلب على الله تعالى إيمان به، فكل مانقذر عليه من القوة العقلية، والبدنية وأنواع القوى كلها هي أسباب لنيل المقصود والمأمول بعد التوكل عليه سبحانه.

إن الأخذ بالأسباب والوسائل، والقوى التي رتب الله عليها المسببات والنتائج من المقررات الشرعية، وتحت مشيئته وقدره سبحانه، ولعل هذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(٣)، والآية فيها معنى "أن الجزاء ليس تابعا لأماني الناس ومشتهاهم، بل هو أمر مقدر من الله تعالى تقديرا بحسب الأعمال"^(٤)، فالعمل بما أمر الله لازم لصحة التوكل عليه وترقب الخير منه، والإيمان لا يكون بمجرد تخيل الأماني، وتمني الحصول عليها بغير الأسباب

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٢) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣/ ١٦٦٤-١٦٦٥).

(٣) سورة النساء، آية: ١٢٣.

(٤) انظر: لابن عاشور، التحرير والتنوير، مج (٣-٤-٥)، (٢٠٨/٥).

الموصلة إليها، ولكن الإيمان الحقيقي هو ما استقر في نفس المؤمن أنه حق فاطمأن إليه، وحرص عليه، ثم كان عمله موافقا له، مصدقا لوجوده أو دعوة اعتقاده.

والتوكل على ذلك لا يكون إلا بالثقة، والاعتماد على الله، ثم العمل بما أمر به، والأخذ بالوسائل ثم ترك ما لله من أقدار وقضاء فلا يعزب عن الله ولا يغيب عن علمه شيء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد له الملك والحمد فليس في أفعاله سبحانه ولا تقديراته ومشينته ظلم أو شر قط، قضى بذلك العقل والنقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾^(١)، ويقرر هذه الحقيقة رسول الأمة محمد - ﷺ - في قوله: **"الخير كله في يديك والشر ليس إليك"**^(٢).

فإن الله تعالى أثبت لنفسه المشيئة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤). والكل محكوم بالمشيئة الإلهية، فسبحان من له الإرادة والمشيئة.

(١) سورة النساء، آية: ٤٠ .

(٢) رواه مسلم، (١٨٥/٢).

(٣) سورة الأنعام، آية: ١١٢.

(٤) سورة التكوين، آية: ٢٩ .

المبحث الرابع

الأعمال التي يعملها العباد في تحقيق التوكل

إن المرء المؤمن في حاجة مستمرة إلى هداية خالقه سبحانه عز وجل ورعايته. والتوكل على الله لا يكون إلا بأمرين مجتمعين لا ينفصل أحدهما عن الآخر هذا ما أراه والله أعلم بالصواب .

١- الإيمان بالحق سبحانه، والاعتماد عليه والثقة فيه .

٢- الأخذ بالأسباب والوسائل التي تربط بها النتائج المرجوة .

فالأول أمر لازم؛ لأنه الأساس في التصديق والثقة والطمأنينة بل إنه هو هذه الأمور، والإيمان كما تبين شامل للاعتقاد وللنطق والعمل.

والإيمان أساس القبول عند الله، والثاني أمر به المولى عز وجل لأن فيه طاعته، والإيمان حقيقته الحركة والعمل، وليس بمجرد نوايا طيبة والمتوكلون نواياهم الطيبة لاتخلو من عمل مثمر، ولاتخرج عن أعمال وأمور أربعة هي:

الأول: فعل أمر يجلب النفع كالطعام والشراب، وحنون أن ننتظر أن نشبع دون أن نأكل أو نروى دون أن نشرب، والتوكل في هذا المقام توكل بالعلم والحال. أما العلم فهو أن نعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد والأسباب، وقوة الحركة، وأنه الذي يطعم ويسقي.

وأما الحال - فهو أن يكون اعتماد القلب على فضل الله تعالى لاعلى اليد والطعام.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ (١).

الثاني: التوكل على الله في حفظ الموجود كادخار المال، وحبسه للأهل، والولد وفي الصحيحين من حديث عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ " كان يبيع

(١) سورة الشعراء، آية: ٧٨، ٧٩ .

نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم"^(١)، فهذا لا يخرج عن التوكل.

قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(٢).

فإنه تعالى يسبب أسباب الرزق من حيث لا نشعر، ولانعلم فمن اتق الله في أموره ويفوضه إليه فهو كافيه، فإنه تعالى بالغ أمره بكل حال توكل عليه العبد أو لم يتوكل عليه^(٣).

فإنه تعالى قد ألهم العبد الفكر في أن يدخر لعياله وأهله شيئا من ماله وإلا هلك العيال والأهل، وقد كان المصطفى ﷺ يؤثر أن يقوم بنصيبه من العمل بنفسه - كأبي واحد مع مكانته العظيمة الكريمة.

الثالث: دفع الأسباب المباشرة للضرر :

فلأيجوز النوم في الأرض المسبعة أو تحت جدار خرب، ولا ينقض التوكل لبس الدرع، وشد البعير.

قال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾^(٤).

وفي الحديث: " **عن أنس بن مالك** **قال: قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال "أعقلها وتوكل"** "^(٥).

فالتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب ويكون المرء مطمئنا وراضيا بكل ما يقضي الله عليه من خير أو شر، فالمرء المؤمن عليه أن يقيم

(١) صحيح البخاري، في النفقات، (٦٢٧/٩)، باب حبس الرجل قوت سنة على أهله، وكيف نفقات العيال.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٣) انظر: لابن جرير، جامع البيان، (٣١٦/٧).

(٤) سورة النساء، آية: ١٠٢.

(٥) سبق تخريجه، ص ٣٢.

حياته بما أوجبه الله تعالى عليه فلا يعطلها، بل إن فعله لها عبودية كذلك لا ينبغي عليه الاعتماد عليها؛ بل يعتمد على مسببها ومقدرها.

الرابع: السعي في إزالة الضرر :

فمنها المريض قد نزل به المرض فعليه دفعه بالمدواة لا بالشكوى فهي مخرجة عن التوكل، وقد فعله النبي ﷺ، وفي الحديث "عن أبي هريرة **عائشة: أنه ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسم عنه بيده**"^(٢)، فهذه الأسباب التي يدفع بها الضرر النازل أمور شرعية لاسحرية وعلى كل فالرقية والتداوي من الأسباب المشروعة التي أمر الله تعالى باتخاذها من غير اعتماد عليها كلياً في أنها هي الشافية، وعلى ذلك فإن تعاطي الأسباب والعمل بها قدر المستطاع هي أمور مباحة لا تنافي العقيدة وخلق التوكل على الله؛ لأن جميع الأسباب التي يتعاطاها المرء المؤمن لا تخرج عن ثلاثة أقسام^(٣):

الأول: " إلى مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء.

الثاني: أن يكون مظنوناً، كالفصد، والحجامة، وشرب المسهل، ونحو ذلك، فهذا لا يناقض التوكل، فإن رسول الله ﷺ قد تداوى وأمر بالتداوي .

الثالث: أن يكون السبب موهوماً، كالكي فيخرج عن كمال التوكل؛ لأن النبي ﷺ وصف المتوكلين بأنهم لا يكتون"^(٤)، ولكن قد تداوى به كثير من المسلمين،

(١) البخاري في الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ح(٥٦٧٨)؛ وفي الفتح (١٤١/١٠).

(٢) البخاري في الطب، باب : النفث في الرقية، ح (٥٧٤٨)، وفي الفتح(٢١٩/١٠).

(٣) انظر: للمقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص٣٣٤؛ ولأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، (بيروت: دار الكتب العلمية نط الأولى ١٤٠٥هـ)، (٣/٥١٠-٥١١).

(٤) انظر: للمقدسي، المصدر نفسه، ٣٣٤.

ولا يعني هذا أنهم عصوا رسولهم ﷺ ولكن المراد من كلام رسول الله ﷺ أن يجعل آخر شيء في العلاج؛ إذ أن بعض الأحاديث قد أجازته ومنعته بعضها الآخر، فمن الأول :

"عن حديث جابر بن عبد الله: "أن النبي ﷺ بعث أبي بن كعب طبيبا، فقطم له عرقا وكواه عليه" (١).

والثاني: **"في الحديث عن جابر أن النبي ﷺ قال: "وما أحب أن أكتوي" (٢).**

فهذه الروايات لاتعارض بينها فالفعل يدل على جوازه وجعله كما أشرنا آخر العلاج، ونهيه عنه يدل على الكراهة له.

إذا الأعمال الصالحة جميعها من تمام التوحيد وكمالها؛ لأنها تعني القيام بها مع عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه إليها، وأما تعطيلها فهو سوء فهم لأحكام الدين.

ولو طالعنا حياة رسولنا الكريم ﷺ سنجد لها قائمة على أعمال وأسباب، وإن ظهر فيها من الكرامة مظاهر، وهو إمام المتوكلين وسيدهم، فلم يخرج للجهاد بدون عدة، فقد تترس يوم أحد، ولم يواجه عدوه قط بدون خطة أو ترتيب أو مشاورة أخذ بمشورة سلمان الفارسي بحفر الخندق فحياته ﷺ ماثلة أمامنا نرى فيها التوكل، والأخذ بالأسباب شاكرا للمقدرات مقاوما للصعاب والشداد بالصبر والاسترجاع؛ ذلك أن التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها العبد مطلوبه حيث يكون.

فالعبد المؤمن قلبه معلق بالله لا بالأسباب، وجوارحه آخذة في الأسباب قائمة بها، وسنة الله في دنيا الناس وآخرهم تؤكد مشروعية الأسباب والأخذ بها وعدم الإخلال بها.

(١) مسلم في السلام، باب: لكل داء دواء، ح (٢٢٠٧)، (٤/١٧٣٠).

(٢) البخاري في الطب، باب الحجامة، ح (٥٧٢١)، وفي الفتح (١٠/١٦٢).

المبحث الخامس

مجال التوكل على الله

إن التوكل حقيقة من يعلم أن الله قد ضمن لعبده الرزق، والعمل، ... وكفاه، ووثق العبد بربه فيما ضمنه وكفاه، وللتوكل مجالات شاملة من أمور الدنيا ومطالب الدين.

ومن هذه المجالات نذكرها قصرا لاحصرا:

التوكل على الله في حصول الرزق: إن الله تعالى قد كفل لعباده رزقهم، والرزق مقسوم لكل من البر والفاجر، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(١)، فالآية شاملة لكل كائن حي فمن توكل على الله لطلب الرزق فقد جعل التوكل سببا، ومن توكل عليه لثقتة بضمانه فقد توكل عليه ثقة به، وتصديقا بوعده؛ لذلك لا ينبغي أن يهمل السعي بل على المرء المؤمن أن يكد وهو مطمئن أن الله تعالى سيفرغ له من خزائنه ما يشاء لمن يريد.

قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٢).

والمعنى: يخرج الله تعالى من شبهات الدنيا والكرب، ويرزق الله المرء من حيث لا يؤمل ولا يرجو، وعن جابر قال نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٣) ويرزقه من حيث لا يحتسب الآية في رجل من أشجع كان فقيرا خفيف ذات اليد كثير العيال فأتى رسول الله ﷺ فسأله، فقال (اتق الله واصبر) فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له يقال له أبونعيم كان العدو أصابه فأتى رسول الله ﷺ، فسأله خبره وأخبره خبرها فنزلت (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ) الآية وقيل معنى الآية يتق الله من كل شيء ضاق على

(١) سورة هود، آية: ٦ .

(٢) سورة الطلاق، آية: ٣ .

الناس^(١). "وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال في (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) ليس المتوكل الذي يقول تقضى حاجتي، وليس كل من توكل على الله كفاه ما أهمه، ودفع عنه مايكره "وقضى حاجته، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجر"^(٢).

فأمر الله نافذ والآية دليل على "وجوب التوكل عليه تعالى وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم العبد أن كل شيء من الرزق وغيره لا يكون إلا بتقديره لا يبقى إلا التسليم للقدر والتوكل على الله تعالى"^(٣).

فينبغي الإخلاص لله تعالى؛ لأنه المتكفل بإنزال الأرزاق من السماء وتيسير أسبابها، وسبحانه وتعالى يرزق الناس جميعا بتسخير بعضهم لبعض، فאלله تعالى يعطي كثيرا من الأبرار، وكثيرا من الفجار السعة في الرزق فنراهم متمتعين بذلك، وكثيرا من الفريقين فقراء معسرين، لكن المتقى المخلص يكون دائما أحسن حالا وأكثر احتمالا، فلا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر، إذ هو بالتقوى يجد المخلص من كل ضيق، ومن عناية الله به رزق رزقا غير محتسب، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤).

فصرف جميع القوى التي منحها الله تعالى في الجسد والعمل فبهذا الصنيع المذكور يصل المؤمن إلى كل ما يبتغيه من خير هذه الدنيا إلى جانب خير الدين بحسن الثقة في الله، والاعتماد عليه فالأثر المترتب على التوكل الحق هو قضاء المصالح والوصول إلى الرزق كما تصنع الطير بفطرتها .

(١) انظر: للإمام السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، (بيروت: دار الفكر، نط الثانية ١٤٠٣هـ)، (١٩٥/٨-١٩٨).

(٢) المصدر السابق، (٢٠٠/٨).

(٣) أبي السعود، إرشاد العقل السليم، (٥/٧٣٤).

(٤) سورة البقرة، آية: ٢١٢.

" فعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروم بطاناً" (١)، نعم إن الطير يسعى مبكراً لتحصيل قوته بمحض الفطرة، فيخرج من أوكاره جائعاً ويرجع وقد امتلأ جوفه بالطعام، وليس هذا فقط ولكنه يرجع ومعه في حدود إمكاناته قوت فراخه الصغار التي لا تستطيع أن تسعى .

فالمرء المؤمن يعمل لأجل رزقه ومعاشه ويتوكل على الله في ذلك فالله يرزق من يشاء بغير حساب، وإن رأى المؤمن أن الله لم يوسع عليه في الدنيا فهذا من باب زيادة الابتلاء والامتحان، وإن رأى الوسع على الكافر فهذا من باب الاستدراج، ألا نرى أن الله تعالى وسع الدنيا على قارون وضيقها على أيوب عليه السلام (٢).

قال تعالى: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣).

فالله تعالى لا يرزق الأمة العزة والثروة والقوة والسلطة من حيث لا تحتسب ولا تقدر ولا تعمل ولا تتدبر، بل هو يعطيها بعملها وطلبها ويسلبها بزللها؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنْزِعُوا فِتْنَةً لَّكُمْ فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٤).

كذلك المؤمن يتوكل على الله أن يرزقه الزوجة الصالحة وهو مطلب شرعي، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٥).

(١) سبق تخريجه، ص ٣٢ .

(٢) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ٣، (١٠/٥).

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٥.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٤٦ .

(٥) سورة الفرقان، آية: ٧٤.

فباب الدعاء من أبواب السعي والأخذ بالأسباب حتى يكون هناك توكل حقيقي ولجوء إلى الله تعالى، فالتوكل على الله في طلب أن يرزق الإنسان المؤمن زوجة صالحة، ويخرج الله من أصلابهم وبطون زوجاتهم ذرية تطيع، وتعبد الله وحده لا شريك له وتحسن العبادة وتطلب الهداية^(١).

فإصابة خير الدنيا من الزوجة الصالحة والذرية وغيرهما، وطلبها بالدعاء والعمل على ذلك من إبتغاء وجه الله في الطاعات، وجعلها في المقدمة؛ لأن الإخلاص عنصر رئيس في قبول الأعمال، وكذلك في قبول الدعاء.

إن دعاء الله تعالى من أبرز الطرق لشحن القلب بالقوة والرقّة، وهو جزء من اللجوء إلى الخالق سبحانه؛ ولأنه هو مفتاح الخير والتوفيق بعد البذل والجهد في العمل الصالح الموفي شروطه لضمان قبوله عند الله تعالى.

وقد أمر رسولنا الكريم أصحابه بالدعاء وحثهم على الحرص عليه والمتصفح لأبواب الدعوات في كتب الحديث يجد فيها كنوزا عظيمة، والقرآن كذلك مليء منها.

قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(٤).

(١) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٢٦/٣)؛ ولابن الجوزي، زاد المسير، ١٠ مج (بيروت: المكتب الإسلامي، ط الثالثة، ١٤٠٤ هـ)، (١١١/٦).

(٢) سورة الصافات، آية: ١٠٠.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٨٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٣٨.

وقد تواصى به السلف الصالح، فمما يرويه مفتي مكة التابعي الجليل عطاء ابن أبي رباح^(١) عن صاحبه طاوس^(٢) قوله " قال لي طاوس يا عطاء لا تنزلن حاجتك بمن أغلق دونك أبوابه، وجعل عليها حجاب، ولكن أنزلها بمن بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة، أملك أن تدعوه، وضمن لك أن يستجيب لك"^(٣).

فالكل يدعو الله أن يرزقه الولد والذرية الصالحة، فأبو الأنبياء طلبها من الله تعالى ليكون له أولاد مطيعون يعينوه على الدعوة، ويؤنسوه في الغربة، ويكونون عوضاً له، وكذلك زكريا عليه السلام طلب أن يهبه الله ولداً فروية الأولاد النجباء، مما تشوق نفوس الناظرين إليهم وتجعلهم يتمنون أن يكون لهم مثلهم^(٤).

فهناك الكثير من مطالب الحياة الدنيا المشروعة، وهي من مجالات التوكل على الله، ولكن لا يوجد أعظم من طلب الله تعالى في أن يعين على الهدى والثبات بعد توكله عليه سبحانه ليأخذ بيده في استقامة نفسه وإقامة دين الله في الأرض ودفع الفساد وقمع البدع وجهاد الكفار والمنافقين والاهتمام بمصالح المسلمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٦).

(١) أبو محمد القرشي عطاء بن أبي رباح توفي سنة ١١٤هـ وقيل ١١٥هـ، تذكرة الحفاظ، للذهبي، (٩٨/١).

(٢) أبو عبد الرحمن اليماني الجندي طاوس، توفي سنة ١٠٦هـ بمكة، تهذيب التهذيب لابن حجر، (١٠٠/٤) ترجمة رقم ٣٠٨٩.

(٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة، (٢٨٨/٢).

(٤) انظر: لمصطفى المراغي، تفسيره، (١٤٧/١)، (٦٦/٦)، (٧٢/٨).

(٥) سورة هود، آية: ١٢٣.

(٦) سورة الملك، آية: ٢٩.

فالآيتان إيماء إلى طلب الخلاص بالإيمان الخالص لله والإخبارات إليه واتباع أمره بالحكمة، والموعظة الحسنة، وبذل المستطاع في سبيل الحصول على ذلك بالعبادة الحقة، والأخذ بالأسباب، والتوكل، وبدون ذلك فلن تكون الهداية، ولا الإيمان، فلنداوم على الإخلاص، وعلى معرفة التوحيد، والامتثال لأوامر الله، وأوامر رسوله، والامتثال بها ومن خلال ذلك يحصل المؤمن من الهداية والسداد^(١). وكذلك طلب الله تعالى والإلحاح في الدعاء أن يبعد الشيطان عنه.

" عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إذا خرج من بيته فقال: بسم الله، توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال: حينئذ: هديت وكفيت ووقيت فتتنحى له الشياطين فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقيت؟" ^(٢) .

فالكل يستطيع أن يتقوى على شيطانه بالتوكل على الله والتسليم لله بالقوة والحوّل، وبذلك يحصل المرء على الحفظ والمنعة من الشيطان الرجيم ومن كل وساوسه وخبثه؛ لأن إبليس عدو ظاهر العداوة لبني آدم، لم يلق سلاحه طرفة عين؛ ليتمتع بروية أفواج بني آدم تلقى بنفسها في المهالك، ويمكن لمن توكل على الله حق توكله أن يتحرز من وسوسته، وسمه القاتل، بمخالفة الهوى، فإذا ماخالف الهوى المؤمن بعد التوكل على الله، عادت للعقل رجاحته، فيعرف ما يضره مما ينفعه.

كذلك هناك من يطلب من الله العافية وفي الحديث **" عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ - يدم هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: "اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقني وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي" ^(٣) .**

(١) انظر: للمراغي، تفسير المراغي، (١٠١/٤)، و(٢٤/١٠) .

(٢) سبق تخريجه، ص ٢٧ .

(٣) أبوداود (٥٠٧٤)؛ وابن ماجه (٣٨٧١)؛ والحاكم (٥١٧/١) ووافقه الذهبي.

فعدم طلب العافية من المضعفات التي تصيب القلب بالمرض، وما يتبعها من حب الدنيا بكل ماتحمل من زينة وجاذبية.

ولن تأتي هذه العافية إلا بالصدق في العمل والخلوات، مما يؤدي ذلك إلى الامتناع عن اقتراف ما يغضب الله تعالى فيتعرض العبد للعافية وعفو الله سبحانه، كذلك العافية لا تأتي إلا بعد اليقين بالله والتوكل عليه في الحفاظ على الصحة، فالعافية سلاح يتقوى بها العبد المؤمن على العمل والسعي في مرضاة الله.

كذلك من مجال التوكل، التوكل على الله في طلب النصر، وإقامة شرع الله وهذا ما كان من الأنبياء والصالحين، والدعاة إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(١).

فإن الله تعالى قد نصر المسلمين يوم بدر وهم قلة، ونصر المسلمين يوم الخندق وهم محاصرون، والله تعالى قادر على أن ينصر اليوم المسلمين وهم محاصرون من كل حذب وصوب، يهاجمون ويضطهدون في فلسطين، وألبانيا، وكشمير، والفلبين، والشيشان وغيرهم كثير فليس أمامهم سوى باب الله يقرع بالدعاء والقنوت.

قال الإمام الشافعي^(٢):

أتهزأ بالدعاء وتزدرية وماتدري بما صنع الدعاء

سهام الليل لا تخطئ ولكن لها أمد وللأمد القضاء^(٣)

(١) سورة إبراهيم، آية: ١٢.

(٢) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ولد سنة ١٥٠هـ، وتوفي سنة ٢٠٤هـ. انظر:

لعبد الغني الدقر، الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر، ص ٢٥، ٣٨، ١٦٣.

(٣) الإمام الشافعي، ديوان الشافعي، صححه وعلق عليه محمد الزعبي (بيروت: دار الجيل تط

الثالثة، ١٣٩٢هـ)، ص ١٧.

فينبغي للمؤمن الاستقامة على الجادة ولزومها والسير عليها والاستمرار فيها دون اعوجاج أو انحراف حتى يكون لنا الفلاح بإذن الله، إن عملية الاستقامة لاتتم بحركة ميكانيكية، بل هي معارك، ومجاهدة، وتقية، مع النفس، والهوى، والشيطان، وعلى مقدار الهمم والعزيمة والثبات يتم الفلاح، وتتجح عملية المجاهدة والتقية، ولقد مدح الله تعالى نبيه بالاستقامة ومدح المؤمنين المستقيمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(١).

وقال تعالى في حق نبيه ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢).

أخيرا فإن أفضل مجال للتوكل على الله هو في إقامة الدين ورفع الظلم عن الناس، والبشر متفاوتون في توكلهم حسب المقاصد والأمانى، وبالله تعالى الكلاءة والتوفيق.

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٢) سورة هود، آية: ١١٢.

الفصل الرابع

بواعث التوكل على الله تعالى

وفيه :

تمهيد .

المبحث الأول: رسوخ معاني أسماء الله الحسنى وصفاته في النفس.

المبحث الثاني: حسن ظن المؤمن بربه وإيمانه عليه.

المبحث الثالث: استسلام العبد وافتقاره لله سبحانه وتعالى .

المبحث الرابع: حسن جزاء المتوكلين .

الفصل الرابع

بواعث التوكل على الله تعالى

التمهيد :

إن لكل سلوك وخلق يقوم به الإنسان دوافعه وبواعثه، فمنها ما هو محمود، ومنها ما هو مذموم، ولكن مانحن بصدد الكلام عنه له دوافعه المحموده، فالتوكل على الله من الأخلاق التي لاكتسب إلا ببواعث لها أساس في شخصية العبد المتوكل العابد.

والتوكل عبادة لله، إذ هو سبحانه وتعالى لا يعبد إلا بمعونته، وعبادته لا تأتي إلا بالمعرفة الحقة، وذلك برسوخ معنى الألوهية والربوبية ورسوخ معاني أسمائه، وأفعاله في النفس المؤمنة، وكذلك استسلام العبد وافتقاره لله عز وجل وكمال إنقياده، وخضوعه لله سبحانه وتعالى، وحسن ظنه بربه وإنابته له، ولاننسى ما أعده الله تعالى من حسن ثواب جزاء للمتوكلين.

والقرآن لم يترك لهذا الخلق العظيم جانباً إلا بحثه، وبهذا فإن أساس كل شيء الإيمان الصادق القوي، وهو الدافع إلى المكرمات، وصاحبه يكتسب الخلق القويم حتماً.

فسبحانه لا يدعو إلى خير أو ينفر من شر إلا وجعل ذلك من مقتضى الإيمان المستقر في القلوب، فالتوكل على الله وغيره من الأخلاق التي شرعها الإسلام هي طاعات صادرة من الإسلام وشرعه، فهي مدارج الكمال وروافد تصون العبد المؤمن؛ لذلك أعطيت منزلة كبيرة في دين الله، والتوكل له منزلته ومقامه.

ومابواعثه التالية الذكر إلا وتدل على أنها لها قيمتها العالية، وقيمة العمل ترجع قبل كل شيء إلى طبيعة البواعث التي تمخضت عنه، وهذه البواعث ماهي إلا توجيه ومضي للأولياء والمؤمنين على السير وفق البواعث لينال المرء المنشود منها^(١).

(١) انظر: للأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، باب الباء، ص ٥٠-٥١؛ ولأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق، محمد باسل عيون السوط (بيروت: دار الكتب العلمية، تط الأولى ١٤١٧هـ) (٢٥٠/١).

المبحث الأول

رسوخ معاني أسماء الله الحسنی وصفاته في النفس

إن الله تعالى أسماء وصفات كلها حسنى، وأوصافه، وأسماءه كلها كمال فهو سبحانه منزّه، عما يضاد صفات كماله، وأسمائه الحسنی.

ومنهج السلف الصالح في أسماء الله تعالى وصفاته : هو الإيمان بها كما أخبر الله، وكما أخبر بها رسوله ﷺ، وذلك على مراد الله تعالى، وبالوجه الذي يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، مع الإيمان بأن الله تعالى لا يشابهه أحدا من خلقه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فالإيمان بالأسماء والصفات من التوحيد القولي، والاعتقادي المتعلق بأعمال القلوب.

فرسوخ معاني أسماء الله، وصفاته في نفس المؤمن تجعله يتعبد الله بها فسبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١). "أي ليس كمثل شيء في شأن من الشئون التي من جملتها هذا التدبير المبالغ في العلم بكل ما يسمع ويبصر"^(٢).

إن توحيد الأسماء والصفات هو روح الإيمان، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله، وصفاته ازداد إيمانه ورسوخ، وقوي يقينه، فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الله بأسمائه، وصفاته من غير تعطيل، ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تكيف. بل تكون المعرفة والرسوخ لمعانيها ومحتوياتها متلقاة من الكتاب والسنة، وماروى عن الصحابة، والتابعين لهم بإحسان .

وبهذا فعندما يمرر المؤمن أسماء الله، وصفاته على وفق ما أشرنا إليه يحصل الرسوخ، وتحصل المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة إيمان، فمثلا: على

(١) سورة الشورى، آية: ١١ .

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (٥/٥٢٢).

العبد أن يعلم أن لا إله إلا الله " فاسم " الله " دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا" (١).

واسم " الله " دال على كونه معبودا تألهه الخلائق تعظيما وخضوعا، وفزعا إليه في الحوائج، والنوائب، وهناك الكثير من الآيات القرآنية الكريمة ارتبط فيها اسم " الله " بخلق التوكل على الله؛ الذي يستلزم كمال ربوبيته، وألوهيته.

قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢). أتوكل على الملك العظيم مالك (العرش العظيم) الجسم الأعظم المحيط الذي تنزل منه الأحكام والمقادير (٣).

والمعنى: "عليه توكلت يفيد الحصر أي لا أتوكل إلا عليه وهو رب العرش العظيم، والسبب في تخصيصه للعرش بالذكر؛ أنه كلما كانت الآثار أعظم، وأكرم، كان ظهور جلالة المؤثر في العقل والخاطر أعظم؛ ولما كان أعظم الأجسام هو العرش كان المقصود من ذكره تعظيم جلال الله سبحانه" (٤). فالعلة في التوكل على الله أنه منزل الأحكام والمقادير صاحب الملك العظيم والعرش العظيم.

وقد بين الرسول ﷺ عظم هذا العرش بالنسبة للسموات وبالنسبة للكرسي "ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة" (٥).

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٦) الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿وَتَقْلُبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ (٧) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٨﴾ (٩).

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، (٤١/١).

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٩.

(٣) انظر: أبو السعود، المصدر السابق، (٤٦٠/٢).

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مج ٨ (ج ١٦، ص ٢٤٣-٢٤٤).

(٥) رواه الإمام البيهقي في "الأسماء والصفات"؛ وابن أبي شيبه، قال الألباني في الصحيحة: حديث صحيح بطرقه.

(٦) سورة الشعراء، آية: ٢١٧-٢٢٠.

فإن الله تعالى يأمر رسوله بالتوكل عليه وتوطين قلبه على التوكل وذلك لما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله ﷺ التي بها يستأهل ولايته بعد أن عبر عنه بما ينبيء عن قهر أعدائه ونصر أوليائه من وصفي العزيز الرحيم^(١).

فا "التوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره، وقوله " العزيز الرحيم "؛ أي الذي يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته؛ لما أراك فيه من الثقلب، والتهجد، وطلب النصر عليهم بالحاحك في الدعاء"^(٢).

وفي الآية "علق التوكل بالاسمين " العزيز، والرحيم " ماتبعهما من الوصف الموصول وماذيل به من الإيماء إلى أنه يلاحظ قوله، ويعلم نيته، إشارة إلى أن التوكل على الله يأتي بما أومأت إليه هذه الصفات ومستتبعاتها بوصف (العزيز الرحيم) للإشارة إلى أنه بعزته قادر على تغلبه على عدوه الذي هو أقوى منه، وأنه برحمته يعصمه منهم"^(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٤).

فهو سبحانه سميع لما يقوله العباد ويدبرونه، وعالم بما أضمره إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فينبغي التوكل وتفويض الأمر إليه سبحانه؛ ليكون ذلك عوناً لنا على السلامة^(٥).

فمتى علم المؤمن أن له ربا يسمع، ويعلم، ويحيط بكل أموره، ولا يتركه طرفة عين، ومراقبته الدائمة، كان ذلك دافعا، وبقينا قويا وعزيمة فتية للإصرار

(١) انظر: أبو السعود، المصدر نفسه، (١٨٢/٤).

(٢) انظر: للإمام الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مج ١٢، (ج ٢٤، ص ١٧٣).

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨-١٩/٢٠٤).

(٤) سورة الأنفال، آية: ٦١.

(٥) انظر لوهبه الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ١٦ مج (بيروت: دار

الفكر المعاصر؛ دمشق: دار الفكر تط الأولى ١٤١١هـ)، (٩-١٠/٦٠).

على المضي في التوكل، والثبات عليه والتمسك به، فلا يخشى المؤمن بذلك ظلم ظالم، ولا بطش باطش لأنه يستشعر نظر الله إليه في كل أمر له أو عليه، ومعيته سبحانه، وعلمه، وبهذا يتحول ما يلقاه المؤمن من العقوبات والصعاب، والمشاق، والعنت إلى تلذذ واستعذاب. محتسب ذلك كله عند ربه.

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَّئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ (١).

الله تعالى " حقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين من شأنهم الموت فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالصفة الأبدية التي هي من الصفات الذاتية والإشارة إلى إتصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى وتأكيده فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام مع كمال قدرته على إبداعها دفعه لحكم جليلة وغايات جميلة أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الأمر إليه" (٢).

" فالحي الذي لا يموت " هو الله تعالى، وعدل عن اسم الجلال إلى هذين الوصفين لما يؤذن به من تعليل الأمر بالتوكل عليه؛ لأنه الدائم، فيفيد ذلك معنى حصر التوكل في الكون عليه، فالتعريف في (الحي) أي الكامل حياته لأنها واجبة باقية ومستمرة، وحياة غير معرضة للزوال بالموت، ومعرضة لاختلال أثرها بالذهول كالنوم ونحوه فإنه من جنس الموت، فالتوكل على غيره معرض للاختلال وللانحرام، وفي ذكر الوصفين تعريض للمشركين إذ ناطو آمالهم بالأصنام وهي

(١) سورة الفرقان، آية: ٥٨-٥٩ .

(٢) أبو السعود، المصدر السابق، (١٦٤/٤).

أموات غير أحياء، وفي الآية إشارة إلى أن المرء الكامل لا يثق إلا بالله؛ لأن التوكل على الأحياء المعرضين للموت، وإن كان قد يفيد أحيانا لكنه لا يدوم^(١).

فسبحانه حي كامل الحياة، فإيمان المؤمن بهاتين الصفتين خير معين على التصبر على ما يتجرع من ألوان البطش والعذاب.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾^(٢).

إن "في ذكر الرحمن هنا إشارة إلى أن أهل الإيمان مرحومون، وأن فعل الله بالمؤمنين دائما محفوف بالرحمة"^(٣)، وذكر اسم الرحمن هنا "أكد لهم حصول الرحمة في الدنيا والآخرة لإيمانهم، وتوكلهم عليه خاصة"^(٤).

فالرحمن اسم يدل على اتصاف الرحمن بالرحمة، والبر، والجود، والكرم وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عم بها جميع الوجود، وخص المؤمنين منها، بالنصيب الأوفر والأكمل.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٥).

(١) انظر: الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨-١٩/٥٩).

(٢) سورة الملك، آية: ٢٩.

(٣) سعيد حوى، الأساس في التفسير، (١٠/٦٠٣٨).

(٤) انظر: للأوسى، روح المعاني، (٢٩-٣٠/٢٢).

(٥) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَاقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ ۝١٠٠ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠١ ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ يٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٠٢ ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَازِيتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٠٣ ﴾ (٤).

ففي الآيات السابقة سيق لفظ الجلالة (الله) لفظ (التوكل) لأن "الألوهية جامعة لصفات الكمال مستدع للتوكل عليه سبحانه أو الأمر به" (٥)، فالعلة في سورة آل عمران مثلاً:

- نتوكل عليه سبحانه لننال محبته ورضاه .

(١) سورة يونس، آية ٨٤-٨٥.

(٢) سورة هود، آية ٨٨ .

(٣) سورة يوسف، آية ٦٧ .

(٤) سورة إبراهيم، آية ١٢ .

(٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (١/٤٣٩).

وفي سورة يونس:

- نتوكل عليه إن كنا قد حققنا مسمى الإيمان والإسلام في أنفسنا.

وفي سورة هود:

- علة التوكل ظاهرة حتى يلازمنا التوفيق والسداد .

وفي سورة يوسف :

- إن كان جميع الأحكام والتدابير منه سبحانه فلما لانتوكل عليه فهو الحاكم والمدبر لجميع الأمور.

وفي سورة إبراهيم:

- لننال الهدى ونمتطي الصبر فعلينا التوكل عليه سبحانه .

ففي كل الآيات السابقة فيها نتذوق اسم الله تعالى وتعليل التوكل عليه لأنه قد فعل بنا ماوجب ويستدعي التوكل عليه سبحانه^(١).

وقال تعالى: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٢).
وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾^(٤).

(١) المصدر نفسه، (١٨٣/٣).

(٢) سورة هود، آية ٥٦ .

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢ .

(٤) سورة الرعد، آية: ٣٠ .

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٣).

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٤).

ففي الآيات معاني وعلل للتوكل عليه سبحانه، فالرب هو المربي جميع عبادته، بالتدبير، وأصناف النعم، وأخص من هذا تربيته، بإصلاح قلوبهم، وأرواحهم، وأخلاقهم وفي كلمة الرب معاني الإقبال على الله تعالى الذي يرجى منه الخير، ويترقب حصوله، وانتظاره، ممن يملكه ويقدر على تحقيقه، فهو وحده ربنا لامفزع لنا في الشدائد سواه، ولاملجأ لنا منه إلا إليه، ولا يرجى سواه، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه؛ لأن من نرجوه، ونخافه، ونخضع له، ونتوكل عليه إما أن يكون مربيا وقيما بالأمور، ومتولي الشؤون، أو أن نكون له مملوكين وعبيدا، أو يكون معبودا لانستغني عنه طرفة عين فمن كان كذلك، فهو جدير أن لا يستعاذ إلا به، ولا يستتصر بسواه ولا تلجأ إلا إلى حماه فهو الكافي، والناصر، والولي، والمتولي لجميع الأمور بربوبيته، وملكه، وألوهيته، فكيف لا يلتجئ العبد المؤمن عند النوازل إلى ربه، ومالكة، وإلهه^(٥).

وقال تعالى ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٦).

(١) سورة النحل، آية: ٤٢ .

(٢) سورة الشوري، آية: ١٠ .

(٣) سورة الشوري، آية: ٣٦ .

(٤) سورة الممتحنة، آية: ٤ .

(٥) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، (بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تط)، (٢/٢٤٨).

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٢٢ .

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

ففي الآيات ذكر اسم (الله) هنا، وهو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال، ففي آية آل عمران دليل صريح على أن التوكل على الله من الإيمان وفي نفس السورة من آية أخرى بيان خلق من أخلاق النبي - ﷺ - يقصد به الاقتداء؛ لأنه الأسوة الحسنة، وهو القائد والهادي بالقول والفعل والصفات^(٣)، وفي الآيات تقديم للجبار والمجور؛ ليفيد الحصر في معرض التذكير بالمتأخرين رغبة في التأسى بالسلف والقيام بما جاء به الدين، وأنه يحدث لكم كما حدث لأولئك الكملة المتوكلين مع سيد المرسلين أيام ضعفهم وقتلهم، وفقرهم، وتآلب الناس كلهم عليهم^(٤).

فالآيات فيها حث وترغيب في التوكل على الله على فعل شيء مرغوب به شرعاً، وينبغي على المؤمن أن لا ييأس، وعليه أن يتذكر أن الله، وليه فلا ناصر سواه، ويلزم من ذلك الاستمرارية والديمومة على التوكل، ويؤمن، ويصدق أن الذي له من صفات الجلال والعظمة والكمال، يستحق أن يكون التوكل له، لأن كل شيء مرده إلى الله، له الخلق والأمر. فينبغي الإيمان بأنه الرب لا إله غيره؛ فالآيات حض "على ألا نتوكل إلا عليه وألا نفوض أمورنا إلا إليه"^(٥). فمن الثابت للمؤمن وبيقينه، وعلمه، يتأكد له أن التوكل محقق لأمرين مهمين:

أحدهما : محبة الله للعبد المؤمن .

- (١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.
- (٢) سورة المائدة، آية: ١١ .
- (٣) انظر: لأبي حيان الأندلسي، البحر المحيط، ٨ مج (دار الفكر ط ١٣٩٨ هـ)، (٣-٤/١٤٣-١٤٤).
- (٤) انظر: للمراغي، تفسير المراغي، (٧١/٢) .
- (٥) سعيد حوى، الأساس في التفسير، (٨٦٩/٢).

ثانيهما : كفاية الرحمن للعبد المؤمن .

فالتوكل عليه سبحانه لا يأتي إلا بمن وثق في أنه حق، ومن كان على الحق، يحق له أن يثق بالله، فإنه ينصره، ولا يخذله. فحق العبد المؤمن أن يداوم على التوكل على الله، وتخصيصه لله لا لغيره؛ ففي كل سورة ذكرت التوكل، وفي كل آية خصت المؤمنين بالتوكل، كان لها رصيد من التجارب، والحقائق، والتوجيهات التي لا تقدر بثمن؛ وما ذلك إلا لتقرير شريعة ومنهج الله سبحانه في صورة واقعية حية.

"فالتوكل على الله من أعلى مقامات التوحيد، فإن من كان موقفنا بأن ربه هو المدبر لأمره، وأمور العالم كلها، لا يمكن أن يكل شينا منها إلى غيره"^(١).

إذن التوكل على الله من لوازم الإيمان به. كما أشرنا سابقا. بل هو من الإيمان في الصميم؛ لأن مفهومه داخل فيه، لا يخرج عنه، ولا ينفك عنه؛ لذلك فإن رسوخ معاني أسماء الله وصفاته في قلب العبد المؤمن للزمه أن لا يقدم إلا على ما يرضي الرب عز وجل، فيأمر نفسه بالمعروف، وينهاها عن المنكر، ويلزم نفسه، ألا يسمع، ويرى ربه منه، إلا ما يرضيه من قول أو عمل فيبصره حيث أمره، ويفتقده حيث نهاه .

(١) انظر: لمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٥٩٣/٩).

المبحث الثاني

حسن ظن المؤمن بربه واعتماده عليه

حسن الظن بالله والاعتماد والثقة به سبحانه تتحقق بامتلاء قلب المؤمن بالظنون الحسنة حتى يستولي ذلك على لسانه وجوارحه.

فالقلب المؤمن إذا قرب من الله، كان تلقية من الله بحسب قربيه منه، وبذلك يكون له قلب طاهر صاف منزّه عن الأدناس، ويغلب على القلب النور، فيفيض على الأركان؛ لذلك على المؤمن أن يكون حسن ظنه بربه، وخالقه نابعا من مقدار معرفته به سبحانه جل جلاله، فإله تعالى هو معتمدنا، وثقتنا، وهو الحاكم فإذا حكم بحكم وقضى أمرا فلا مرد له.

"فمن كان مقبلا على شأنه متوكلا على خالقه يعلم أنه لا يجلب الخير سواه، ولا يصرف السوء إلا إياه، فليكن جليسا، وأنيسك وموضع توكلك وشكواك، فإن ضعف بصرك فاستغث به، وإن قل يقينك فسله القوة" (١).

فالمؤمن يحسن ظنه بربه، ويعتمد عليه في النصر، والرزق، والشفاء، وفي تسهيل الصعاب من أمور الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

(١) الإمام ابن الجوزي، صيد الخاطر، حققه وراجعه علي الطنطاوي، وناجي الطنطاوي، (بيروت: دار الفكر تط ١٤٠٧هـ)، ص ٣٧١ باب رقم ٣٣٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٢٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١).

فالأيات السابقة جميعها تحت على التوكل على الرب سبحانه مع حسن الظن به؛ لننال المنشود والمرغوب عاجلاً أو آجلاً، فرسولنا الكريم - ﷺ - لنا في غزواته ومعاركه دروس مستفادة، فهذه غزوة أحد " تعلمنا أن نسلم أمورنا لله، وأن نتوكل عليه، وألا نخالف أمره، ومن ثم أمرنا سبحانه ألا نتوكل إلا عليه، وألا نفوض أمورنا إلا إليه"^(٢).

فالله سبحانه قد كفى المؤمنين، وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم، في دينهم ودنياهم فمحسن الظن يسأل، ويطلب ربه، ويسأله من فضله، وأحب ما إلى الجواد: أن يرجي، ويؤمل، ويسأل، وهو متعلق ذلك السائل بأسمائه متعبد بها، داع بها؛ لذلك ينبغي لنا الاعتماد على حول الله وقوته متبرئون من حولنا وقوتنا لنضمن النصر، والغلبة، والفلاح.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّثْلَقُونَ اللَّهُ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

والمعنى في الآية: أن حال المؤمنين المتيقنين لقاء الله تعالى ويتوقعون ثوابه هم الثابتون لمحاربة الأعداء ومقاومتهم، فمشيئة الله تعالى حكمت بالغلبة للمؤمنين

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٢) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٢/٨٦٨).

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٤٩.

فقد قالوا قولهم " قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ... " تتيماً لجوابهم، وتأييداً له بطريق الاعتراض التذييلي تشجيعاً لأصحابهم، وتثبيتاً لهم على الصبر المؤدي إلى الغلبة، وكذا الحال إذا جعل ذلك ابتداء كلام من جهة الله تعالى جيء به تقريراً لكلامهم ؛ والمعني : قال الذين يظنون أو يعلمون من جهة النبي أو من جهة التابوت والسكينة أنهم ملاقوا نصر الله العزيز كم من فئة قليلة غابت فئة كثيرة بإذن الله تعالى^(١).

فظنهم هذا من باب يقينهم لأعياننا بل يقين تدبر، وهم بذلك وصفوا بالأعلون إيماناً^(٢).

فالله قد كفل لعباده الرزق والمعيشة من ملك ورياسة، وأموال، وبنين، وصحة، وعافية بدنية، هذا لمن جمع بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة، والباطنة وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل، والوسيلة لكل عمل لا يصحبه التوكل، فغير تام، فالله تعالى يسوق الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه، ولا يشعر به، في أمر دينه، ودنياه، فعلى المؤمن أن يعتمد ويحسن الظن بالله في جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك.

قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٣).

إن متاع الدنيا من مظاهر حكمة الله في خلقه، فلا ينبغي التفاخر به وكل متاع في الدنيا أيام قليلة تنقضي، وتذهب. لا يعلم ذلك إلا الموحدون المتوكلون على ربهم، فالإمداد بالرزق يخضع لحكمة ومشينة يعلمها الخالق سبحانه^(٤).

(١) انظر: لأبي السعود، إرشاد العقل السليم ...، (٢٨٣/١).

(٢) انظر: للألوسي، روح المعاني، (١٧١/٢-١).

(٣) سورة الشورى، آية: ٣٦ .

(٤) وهبه الزحيلي، التفسير المنير، (٢٥-٢٦ / ٧٥-٧٧).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعِظُ بِهِمُ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾ (١).

والمعنى المراد من الآية: أن "الإيمان بالله واليوم الآخر يوجب لصاحبه أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة، ما يمكن منها، بخلاف من ترحل الإيمان من قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله، لعدم الموجب لذلك، ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم أمر تعالى بتقواه فإذا أراد العبد الطلاق وفعله على الوجه الشرعي فالله تعالى يجعل له فرجا ومخرجا من كل شدة ومشقة والآية وإن كانت في سياق الطلاق والرجعية، فإن العبرة بعموم اللفظ فكل من اتقى الله ولازم مرضاته في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة - فيسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه، ولا يشعر به في أمر دينه ودنياه بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك فالله كافيه الأمر الذي توكل عليه فيه وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي، العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية، اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له فلا بد من نفوذ قضائه وقدره" (٢).

فالآية { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } دليل على وجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه مع بيان السبب والحكمة، فكل من يتوكل على الله

(١) سورة الطلاق، آية: ٢ - ٣ .

(٢) انظر: السعدي، التيسير، (٢٥٩/٥ - ٢٦٠).

ويفوض الأمر إليه كفاه ماأهمه لاسيما أن هم الطلاق هم عظيم، ومايتبعه من نفقة، وخلاف ذلك فسواء من توكل عليه ومن لم يتوكل لاينبغي عليه إهمال اتخاذ الأسباب.

وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^(١).

والمعنى: "رزقكم من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والديني، فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار، فهذه السماء من شمس، وقمر، وكواكب، ومطالع، ومغارب التي تختلف بها الفصول، التي يكون تغيرها مناسبا لأنواع النباتات المختلفة التي تسقى بماء الأمطار، وتسوقها الرياح، وتغذيها الشمس بحرارتها - التمثيل الغذائي - ويمنحها نور القمر قوة ونموا ونضوجا"^(٢)، فسبحان الرزاق الكريم الكبير.

إن محسن الظن بالله تعالى مطمئنة نفسه إلى خالقه، ومدبره إلى ما وعد الله فيسلم نفسه ويرضى ولايسخط وهو يرى، أن النملة رازقها، وكالنها، خالقها سبحانه حلت قدرته فكيف به وهو من فضله الله تعالى على جميع مخلوقاته، وبهذا يزداد المؤمن رضى وثقة بكلاءة الله عز وجل له.

"عن البراء قال: اشترى أبوبكر رضي الله عنه من عازب رحلا بثلاثة عشر درهما فقال أبوبكر لعازب: مر البراء فليحمل إلي رحلي، فقال عازب: لا حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجنا من مكة والمشركون يطلبونكم قال: أرتحلنا من مكة فأحيينا -أو سرينا- ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فأوي إليه، فإذا صخرة أتيتها، فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت له: أضطجع ياتبي الله، فاضطجع النبي ﷺ ثم انطلقت انظر ماحولي: هل أرى من الطلب

(١) سورة الذاريات، آية: ٢٢ .

(٢) وهبه الزحيلي. التفسير المنير، ج ٢٧-٢٨، ص ١٩ .

أحدا؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له، لمن أنت يا غلام؟ فقال لرجل من قريش سماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: فهل أنت حالب لنا؟ قال: نعم فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه فقال هكذا، ضرب إحدى كفيه بالأخرى فحلب لي كنية من لبن، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فأنطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله، قال: بلى فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم غير سراقاة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: لا تحزن، إن الله معنا^(١).

فهذا رسولنا الكريم - ﷺ - خرج هو وخليفة المسلمين، لا يملكان شيئا من الدنيا، لا يملكان سوى الإيمان والثقة بالله، وحسن الظن به وبوعده سبحانه، فكانا المثل التطبيقي الحي في الثقة وحسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه.

ومن قبل مريم ابنة عمران والله وكيلها وكافلها في أمورها وشؤونها.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أُنَى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

"إن هذا الرزق المبارك يفيض من حولها لبركتها حتى ليعجب كافلها - وهو نبي - من فيض الرزق، فيسألها: كيف ومن أين هذا كله؟

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري، لابن حجر، (٩/٧) ح (٣٦٥٢) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣٧.

فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن، وتواضعه، واعترافه بنعمة الله، وفضله، وتفويض الأمر إليه كله: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه، واحتفاظه بالسر الذي بينه وبين الله، والتواضع في الحديث عن هذا السر، لا التنفج به والمباهاة! كما أن ذكره هذه الظاهرة غير المألوفة التي تثير عجب نبي الله زكريا^(١) الذي سخره الله تعالى ليكفلها ويلزم نفسه لتربيتها التربية الصالحة، قال تعالى: {وكفلها زكريا}.

فمريم عليها السلام، أحسنت الظن بربها ووثقت وأيقنت أن الله عز وجل كالنهار، وحافظها، ورازقها؛ لأنها من بيت اتسم بالعبودية الخالصة لله تعالى والتوجه إليه بالكلية، وتجرد من كل ما لا يرضى الله به ويقبله، فهي بذلك كانت ممن شمله الحديث المروي "عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - ﷺ -: "يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسي، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا، تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي، أتيت به هرولة"^(٢)، كيف لا تكون مشمولة في الحديث وهي العابدة الناسكة في المحراب، سليمة القلب، الطاهرة العفيفة، محسنة الظن بالله، وقد أتت بذلك لمعرفتها بقدر الله، ومدى رحمته، فيقيناها أوصلها بربها، فزادها قربا، وحباً، وعزة، ورفعة وتوكلا عليه، "فإن الله تعالى يرزق من يريد رزقه بما لا يعرف مقداره لأنه موكول إلى فضل الله"^(٣)، فالمؤمن لن يدرك حقيقة حسن الظن بالله إلا بعد أن يرى ثمرته ويسعد بها "فحسن الظن لقاح الإيمان، فإذا اجتمع الإيمان وحسن الظن أثمر العمل الصالح، وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه فإذا اجتمعاً أثمر إجابة الدعاء"^(٤).

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (١/٣٨٧).

(٢) صحيح البخاري، (٥٢٨/٨) ح رقم (٧٤٠٥) كتاب التوحيد واللفظ له؛ ومسلم ح (٢٦٧٥)، (٢٦١/٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) انظر: للطاهر بن عاشور، التتوير والتحرير، مج (٣-٤-٥/٢٣٧).

(٤) انظر: لابن قيم الجوزية، الفوائد، ص ٢٥٦.

نعم إن حسن الظن يزيد وينمي الإيمان، وينتج عنهما الثمار الطيبة العابقة، فلا بد من اللقاح الجيد، وهو الافتقار إلى ذات الله تعالى ولنعلم أننا مضطرون للالتجاء إليه سبحانه، فحسن الظن بالله تعالى من حسن العبادة، فما من عبد مؤمن يحسن الظن بالله عز وجل إلا أعطاه الله عز وجل ظنه؛ ذلك لأن الخير منه وإليه سبحانه " فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له، يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله" (١).

"وحسن الظن كذلك إن حمل على العمل وحث عليه ساق إليه فهو صحيح، وحسن الظن: هو رجاء بالله تعالى فمن كان رجاءه هاديا له إلى الطاعة وزاجرا له عن المعصية: فهو رجاء صحيح، والرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه، وقدره، وثوابه، وكرامته، فيأتي العبد بها، ثم يحسن ظنه بربه، ويرجوه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ويضرب عما يعارضها، ويبطل أثرها" (٢).

فالله تعالى يعلم من النفس استيقانها، من نبل، وطهارة القصد فينفذ مشيئته الخيرة لعلمه بالنية الطيبة، والعزم على الطاعة، والتوجه إلى الله في خلوص، وما حسن الظن إلا برهان على سلامة القلب وطهارة النفس، فمن جمع وقرن بين التوكل وحسن الظن بالله فقد ينعم ويحظى صاحبه بمحبة الرحمن، ويتحقق له مزية مزيكمال الإيمان، وعلامة حسن الخاتمة للأعمال.

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، (١٢٦/٢).

(٢) انظر: لابن القيم، الداء والدواء، تقديم محمد غازي، (جده: دار المدني، تط ١٤٠٣هـ)، ص ٥٤-٥٥.

المبحث الثالث

استسلام العبد وطمأنينته وافتقاره لله سبحانه وتعالى

الاستسلام تذلل وخضوع، وإظهار القبول لطاعة الله، والإذعان لأمره ولما أتى به محمد - ﷺ - .

وما سمي المسلم مسلماً إلا لخضوع جوارحه لطاعة ربه الخالق عز وجل، فمشهد الخضوع والافتقار، والتواضع لرب العزة والجلال ضرورة، فسبحانه بيده الصلاح، والفلاح، والهداية، والسعادة.

واستسلام العبد لا يكون إلا باستسلام القلب، واللسان، والجوارح " فكل من سلم لله، واستسلم له وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له ... فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها" (١).

فأصل الاستسلام إستقامة القلب على التوحيد، قال تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِّرْ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣).

فعلى العبد أن يقوم بواجبه تجاه ربه الخالق فيتقيه حق تقواه حتى يتمكن من الثبات على الإسلام، وهو مخلص مفوض أموره إلى الله سبحانه (٤).

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، (٣٢/٢).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٨٣.

(٤) انظر: للخان، لباب التأويل في معاني التنزيل، (٣٩١/١)؛ وللشوكاني، فتح القدير،

(٣٦٧/١).

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

"تسليماً تاماً بظاهرهم وباطنهم يقال سلم الأمر لله واسلم له بمعنى وحقيقته سلم نفسه له وأسلمها إذا جعلها سالمة له خالصة أي ينقادون لحكمك إنقياد الأشبهة فيه بظاهرهم وباطنهم"^(٢).

وفي التسليم، والثقة، والتفويض: مافي التوكل من العزل؛ وهو من أعلى درجات سبل العامة، ولا يكون الاستسلام إلا بانسراح الصدر، وطمانينة النفس، والانقياد بالظاهر والباطن، والعمل على قدر القوة، والاشتغال بما ثبت لله تعالى من حكم، فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج، في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب وكملها فقد استكمل مراتب الدين كلها^(٣).

"فلا يكفي الإيمان، مالم يصحبه الرضى النفسي، والقبول القلبي، وإسلام القلب، والجنان في إطمئنان"^(٤).

ففي قصة أم موسى عبر مستفادة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٥).

(١) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٢) انظر: لأبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (١/٥٤٥).

(٣) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٢/١٥٣)؛ وللسعدي، تيسير الكريم الرحمن...، (١/٣٩٦-٣٩٧).

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٢/٦٩٧).

(٥) سورة القصص، آية: ٧.

لقد عرفت الله سبحانه فانقادت، واستسلمت وما ذاك إلا عين ثقتها بالله تعالى، إذ لو لا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها في اليم تتلاعب به أمواجه.

"فالثقة بالله هو خلاصة التوكل ولبه..... والتفويض: الطف إشارة، وأوسع معنى من التوكل، فإن التوكل بعد وقوع السبب، والتفويض قبل وقوعه وبعده، وهو عين الاستسلام والتوكل شعبة منه" (١).

قال تعالى ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢).

أتوكل علي الحي لا إله إلا هو وأستعين به واسلم أمري إليه فلا مرد من الله إلا إليه سبحانه، فسبحان المتصرف بخلقه ليبلو صبرهم واستسلامهم، ويظهر معادنتهم وجواهرهم في الابتلاء.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣).

فإخلاص العبادة والدين لله والخضوع والتواضع له هي من أصل الإسلام؛ لأن إسلام النفس لطاعة الله لا يكون إلا بالانقياد والخضوع وإذلال النفس في طاعته وتجنب معاصيه، وفي ذلك دلالة على أن المرء لا ينتفع بعمله إلا إذا فعله على وجه العبادة والإخلاص والقربة (٤).

وظاهر الآية فيه معنى إسلام الوجه لله تعالى بتوحيده بالعبادة والإخلاص له في العمل، بأن لا يجعل بينه وبين الله سبحانه وسطاء يقربونه إليه زلفى، فإنه أقرب من حبل الوريد.

(١) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (١٤٣/٢-١٤٩).

(٢) سورة غافر، آية: ٤٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ١١٢.

(٤) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (١٤٠/١).

ومن هنا تتقرر قاعدة من أخلص ذاته كلها لله، ووجه مشاعره كلها إليه، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر، فهنا تبرز سمة الإسلام الأولى: إسلام الوجه.

والوجه رمز على الكل، ولفظ أسلم بمعنى الاستسلام والتسليم. الاستسلام المعنوي، والتسليم العملي، ومع هذا فلا بد من العقيدة والعمل، بين الإيمان القلبي، والإحسان العملي، وبذلك تستحيل العقيدة منهجا للحياة كلها، وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها، وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله { فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } ويكون الاستسلام كذلك بالفعل الحسن الممدوح لا بالفعل القبيح المذموم^(١).

فكل من أسلم واستسلم لله كان له من الأجر والرحمة الكثير، وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنَ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾^(٢).

فالآية الكريمة توطئ للنفوس على احتمال المكاره بعد أن يكون المرء متوكلا على الله في أعماله، وترك كل شيء بعد العمل لتجري الأمور حسب مقادير، ومشينة الله تعالى، إن في التوكل على الله يأتي معنى الصبر الذي نلحمه في بحر الدنيا ونرى كيف تتلقى الأمواج، والمؤمن يتعلم كيف يصبر على مدافعه الأمواج، والأيام عند نزولها بالبلاء. فمن يعرف كيفية جريان الأقدار يثبت لها، وليتذوق من هنا طعم الصبر، وتظهر ملكة الثبات، وتحمل المشاق ومصارعة الشدائد بالتوكل على الله، فيكسب المرء من ذلك قوة في النفس، ورباطة الجأش، وما هذا إلا دليل

(١) انظر: لمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (١/٤٢٦)؛ ولسيد قطب، في ظلال القرآن، (١/٩٨).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٥-١٥٧.

على تمكن التوكل من القلب وحب العقيدة، والصبر عليها، وعلى تكاليفها حتى الممات " فكلنا لله ... كل مافينا كل كياننا وذاتيتنا ... لله وإليه المرجع والمآب في كل أمر، وفي كل مصير، والتسليم المطلق، تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجها لوجه، بالحقيقة الوحيدة، وبالتصور الصحيح^(١).

فبالصبر والاستسلام والتواضع ينبثق وينبعث التوكل على الله في المرء المؤمن.

لن يكون المؤمن مؤمنا إلا بعد انقياده وإذعانه باطنا وظاهرا لحكم وقضاء الله تعالى.

فالاستسلام يعد من الإيمان ويتبع الإيمان أمور كثيرة، منها توكل العبد على ربه والمضي فيما قدره له، والمؤمن هو من يرضى ويكون تحت مشيئة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين^(٢).

فمن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله، وأقواله، وهذا ما أمرنا به، وكان حتما علينا الامتثال به، والاستسلام والتسليم لذلك^(٣).

فهذا الإخلاص لا يأتي إلا بالاستسلام لله تعالى والإذعان له طوعا أو كرها، وبلاستسلام ينال المرء عاقبة أمره الحسنة بما قام به من الطاعة، والإذعان، والامتثال.

(١) انظر لسيد قطب، في ظلال القرآن، (١/١٣٩).

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٢-١٦٣.

(٣) انظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٢/٩٧).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(١).

فمن يخلص وجهه لله بانقياده لأمره وإتباعه لشرعه، وهو محسن في عمله بإتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ) أي تمسك وتعلق (بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) فقد أخذ موثقاً من الله مثبتاً أنه لا يعذبه فمن يفوض أمره إلى الله، ويتوكل عليه، وهو محسن بعمله فإنه متمسك بالعروة الوثقى^(٢).

فالمؤمن عليه، وينبغي له الانقياد والاستسلام لأوامر الله وطاعته سبحانه في العسر واليسر؛ لأن جميع الأمور صائرة إلى الله فيجازى عليها فلاسعادة للعبد إلا بخضوعه لربه، وفي هذا عبادة لله تعالى، فكل من سلم نفسه لله خالصاً نجا لأن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب .

فالإقبال والإخلاص لدين الله تعالى هو الطرف الأوثق فلا يخاف بعد ذلك المؤمن انقطاعاً، لأنه متمسك بالعهد الأوثق .

"فينبغي أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير، وهذا معنى قولهم: التوكل إسقاط التدبير، يعني الاستسلام لتدبير الرب لك، وهذا في غير باب الأمر والنهي، بل فيما يفعله بك، لا فيما أمرك بفعله فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه، وإرادتها مع سيده، والله سبحانه وتعالى أعلم"^(٣).

(١) سورة لقمان، آية: ٢٢ .

(٢) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/٧١٧)؛ وانظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٤٣٣/٨).

(٣) انظر لابن القيم، مدارج السالكين، (٢/١٢٧) .



وخلاصة القول فإن المستسلم المفوض أموره كلها إلى الله قد تعلق بأوثق الأسباب التي توصل إلى رضوان الله ومحبته، وحسن جزائه على ما قدم من عمل صالح، فيجازي المتوكل عليه أحسن الجزاء ويعاقب المسيء بأنكل عذاب، فالمراد من الاستسلام والانقياد والخضوع هو التوكل عليه سبحانه والتفويض إليه .

المبحث الرابع

حسن جزاء المتوكلين

إن جميع الصفات التي أمرنا الله بها هي مما يحبها الله ويرضاها لعباده المؤمنين، وهي صفات تميز المؤمنين عن غيرهم لذلك ينبغي أن يحرص عليها المؤمن في كل أمر، ومانحن بصدد ذكره من الصفات هي صفة التوكل على الله. فالتوكل هو أحد الأسباب التي يستحق العبد بها التفضيل ورفع الدرجات.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(١).

" فعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال نبي الله ﷺ: " يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب " قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال " هم الذين لا يكتنون ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون " فقام عكاشة فقال: ادم الله أن يجعلني منهم. قال "أنت منهم" فقال رجل آخر فقال: ادم الله لي يا رسول الله فقال "سبقك بها عكاشة" ^(٢).

فالإخلاص في التحلي بهذه الصفة العظيمة، والخلق الكريم من الأسباب الفاعلة في حصول النتائج الخيرة، فمن حقق التوكل على الله في ذاته، سيحقق وينال جزاءات عظيمة من هذه الجزاءات :

١ - رضوان الله تعالى على العبد المؤمن المتوكل عليه حق توكله ، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾^(٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ

(١) سورة الأنفال، آية: ٢ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطب، حديث رقم (٥٧٠٥)، والفتح، كتاب الطب، باب ١٧، الرقاق، باب ٥٠، ومسلم في الإيمان، في الجنة حديث (٣٧١-٣٧٢) وفي الحج حديث ١٦٧.

مَنْ أَلَّهِ وَقَضَلَ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾

فكل من استجاب لله وللرسول بعزم، ورجى ثواب الله توكل على الله ورضى به كافياً ومعيناً فله الأجر العظيم لا يحجبه عنه ما كان منه من نقص، وقد تقضل الله بالتوفيق والرضى إذا ما استجاب لأمره ونهيه^(١).

فالصادقون في الاستجابة لله تعالى ولرسوله ﷺ والمتوكلون على الله حق توكله يحصلون على النعيمين الجثماني والروحاني، وذلك هو الفوز البالغ الغاية؛ لأن الفوز هو الظفر بالمطلوب مع النجاة فالرضا من الله غاية السعادة الأبدية، إذ لا مطلب للمؤمن أعلى منه حتى تمتد عنقه إليه وتتطلع نفسه لبلوغه^(٢). وهذا مانجده في قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣).

"لقد صدق المؤمن في توكله فصدقه هذا ينفعه يوم القيامة، وذلك النفع هو الثواب، وحقيقة هذا الثواب: أنه منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم منفعة خالصة من الغموم والهموم"^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْأَمْهَجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٥).

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣-١٧٤.

(٢) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، (٩-١٠/١٠٤).

(٣) انظر: للمراغي، تفسير المراغي، (٦٦/٣).

(٤) سورة المائدة، آية: ١١٩.

(٥) انظر للرازي، مفاتيح الغيب، مج ٦، (١١-١٢/١٤٧).

(٦) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

إن أعمال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لما كانت موافقة لما شرع الله وبين رسوله - ﷺ - استحقوا على ذلك رضي الله تعالى عنهم جميعاً لصلاح أعمالهم وكثرة طاعاتهم ودلت الآية على أن من اتبعهم إنما يستحقون الرضوان والثواب^(١).

إن المؤمن إذا لزم محبوبات الحق سبحانه ولزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه فإن الله يرضى عنه لاسيما إذا قام بالإخلاص والصدق فيها وبذل الجهد في التقرب إلى الله تعالى ومن محبوباته سبحانه التوكل عليه بصدق وقد بذل السابقون وبايعوا رسول الله - ﷺ - على الصدق والإخلاص فنالوا بذلك رضوان الله تعالى؛ لأنهم انقادوا واستسلموا لله وللرسول ورضوا بربوبيته وإفراده بالتوكل، والاستعانة به والثقة به.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(٢).

"فإن الله تعالى يخبر عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة بيعة الرضوان، فقد علم ما في قلوبهم من الصدق والطاعة، فأعطاهم جزاء ما وهبوه من الطاعة الرضا والفتح"^(٣).

٢ - ومن الجزاءات حب الله تعالى للمؤمن، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٤)، هذا والله أعظم باعثة للعبد حتى يتوكل على ربه، ويجعله مرتبطاً تمام الارتباط بربه فمن ينال محبة الله نال الدنيا والآخرة.

(١) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، (٢/٤٢٠).

(٢) سورة الفتح، آية: ١٨.

(٣) انظر: المراغي، تفسيره، (٩/١٠٢).

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا زَالَ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبْتُهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا. وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِي الْمُؤْمِنِ يُكْرَهُ الْمَوْتُ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ" ^(١).

إن حب الله تعالى للعبد يجعله في استقرار واطمئنان وسكون، ويجعله منقطعاً عن العلائق الدنيوية، وبالتالي يكون المؤمن متصلاً بالله وذلك بالعمل بأمره ونهيهِ ومحبا لله يهب نفسه وإرادته وعزيمته وأفعاله كلها لله تعالى، فمن كان كذلك ارتبطت ذاتيته ونفسه بحبل الله فيحصل له من الرحمة والإحسان والبر أتم نصيب، وقد ذكر في تفسير الآية السابقة أن المتوكلين عليه هم الواقفون به المنقطعون إليه فينصرهم ويرشدهم إلى ما هو خير لهم كما تقتضيه المحبة ^(٢).

"والغرض من المحبة ترغيب المكلفين في الرجوع إلى الله تعالى والإعراض عن كل ماسوى الله" ^(٣).

إن صفتي الرجوع إلى الله، والإعراض عن كل ماسوى الله هي صفات تجعل العبد المتمسك بها داخل فيمن يحبهم الله ويرضاه بدلالة الآيات القرآنية .

فالمحب الصادق لله ينطق بالله، ويسكت لله، ويفعل لله، ويترك لله، ويستعين بالله، ويتوكل على الله، ويعتصم بالله، ويحب في الله، ويبغض لله، وبعد هذا كله يرى البر به والإحسان إليه، والدفاع عنه، وإيصال المنافع ودفع المضار عنه في الدين والدنيا من قبل الجواد الكريم سبحانه.

(١) سبق تخريجه، ص ١١٢.

(٢) انظر: للمراغي، تفسيره، (١١٦/٢).

(٣) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، (٩-١٠/٧٠) .

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾.

الآية الكريمة متضمنة معنى " أن من إمارات محبة الله تعالى للعبد أن يرى العبد مهديا مسددا ذا قبول في الله، فلطف الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته" (٢).

فمحبة الله تعالى للعبد تأتي بعد طاعته واتباع رسوله، " والله تعالى يحب كل من أطاعه، لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب والإعراض بالكلية من غير المحبوب" (٣).

فكل من يدخل تحت محبة الله تعالى يكون في ظل ظليل يوم لا ظل إلا ظله، وجزاء عظيم كبير، ويكفي من محبة الله "حسن التدبير للعبد، يربيه تعالى من الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل ما يقربه، وينفر عن كل ما يبعد عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذل للخلق، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه هما واحدا، فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شيء" (٤).

ومتى ظفر المؤمن بحب الله له سكن لأقدار الله وطابت نفسه بها؛ لأنه سبحانه لا ينزل بشيء يضر عبده المؤمن، وإذا نزل ما يكرهه المؤمن كان خيرا له، فسبحانه تولى تدبير أمور المؤمن بموجب علمه، وحكمته، ورحمته، ومحبته فليرض المؤمن بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولا، فقضاء الله في عبده

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١-٣٢.

(٢) انظر: لابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق، المجلس العلمي (المغرب، فاس بدون تط)، (٢/٣٨٧).

(٣) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، (٧-٨/١٩).

(٤) انظر: للمقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص ٣٤٩.

المؤمن دائر بين العدل، والحكمة، والرحمة، ولنعلم يقينا أن المكروهات والمحوبات التي تنزل فيها من ضروب المصالح والمنافع التي لانحصيها علما، ولافكرا.

فلنتوكل على الله في أمورنا كلها ونعتصم برب العباد؛ لأن التوكل له مقام جليل القدر، عظيم الأثر، أمر الله عباده به، وحثهم عليه، في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، وجعله الله سببا لنيل محبته، وشرطا للإيمان، فأنعم بمقام يحظى صاحبه بمحبة الرحمن، ويتحقق به، كمال الإيمان وضمن سبحانه لمن توكل عليه القيام بأمره، وكفايته همه حيث قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

فأي عزيز هو سبحانه الذي لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه.

"إن القلب كلما ازداد محبة لله ازداد في العبودية؛ لأن القلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلة، فالقلب لا يصح، ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يسر، ولا يلتذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحبه والإجابة، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات، لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث هو معبوده ومحبوبة ومطلوبة، وبذلك يحصل له الفرح والسرور، واللذة، والنعمة، والسكون، والطمأنينة"^(٣).

فما من عمل ارتبط بالنواحي الأخلاقية أو الاجتماعية أو السياسية... الخ إلا وله جزاء ذكره الله ورسوله ﷺ، وهذا له أثر عظيم في السلوك الأخلاقي فيكون

(١) سورة الطلاق، آية: ٣ .

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٩ .

(٣) انظر: لشيخ الإسلام ابن تيمية، العبودية، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ١٣٩٩هـ)،

بذلك الدافع القوي إلى الالتزام بتلك الفضيلة من الأخلاق لاسيما إذا كان هذا الخلق هو التوكل على الله فهو كنز ثمين، ومكسب عظيم لا يقدره إلا من عرف حقيقته، وعمل بها، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(١).

"فكل من فوض أمره ووثق بربه كفاه أعداءه فهو قادر على إيقاع الجزاء بهم"^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾^(٣).

فينبغي التوكل على الله في الأمور كلها حتى ننال بذلك الجزاء والثواب؛ لأن التوكل كذلك وظيفة من وظائف القلب، وسلوك نفسي يقتضيه الإيمان الصحيح، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

فهذا أمر من الله بالتوكل عليه وحده، ومامن عبد توكل على الله إلا ونال مطلبه ومناه إن عاجلا أو آجلا، فها هما رجلا بني إسرائيل آمنوا وأدركا أن التوكل على الله يعين على معارك القتال، وأنهما إذا دخلا الأرض المقدسة متوكلين على الله ينصرهم على عدوهم لامحالة حيث قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا آذِلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

(فهذان الرجلان قد علما من سنته تعالى في نصره رسله وماعهدا من صنعه تعالى لموسى عليه السلام من قهر أعدائه، فبعد ترتيب الأسباب، وعدم الاعتماد عليها، فإنها بمعزل من التأثير وإنما التأثير من عند الله العزيز القدير فإن كنتم مؤمنين مصدقين لوعده، فإن ذلك مما يوجب التوكل عليه حتما"^(٦).

(١) سورة النساء، آية: ١٧١-١٨١.

(٢) انظر: للمراغي، تفسيره، (١٠٢/٢).

(٣) سورة الإسراء، آية: ٦٥.

(٤) سورة التغابن، آية: ١٣.

(٥) سورة المائدة، آية: ٢٣.

(٦) انظر: لأبي حيان، البحر المحيط، (٢٧/٢).

فهذا الموقف العظيم من الرجلين اجتمعت فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفني على طريقة القرآن، فهل لنا من ذلك دروس مستفادة من دعوة إلى الالتجاء والاستسلام، وما فيها من المفاصلة، والحسم، والتصميم لذلك، فالقرآن الكريم رتب للتوكل على الله نتائج وجزاءات يقينية من سلكه رشد ورسخ فيه جذور التوكل على الله وتمكن منه، فيثمر بذلك ثمارا يانعة، ويعطي ظلالا باردة، وهذا ما فهمه السلف الصالح، وعملوا به رضي الله عنهم وأرضاهم، فأحبهم الله ورضي عنهم فحبه ورضوانه أمران عظيمان وفضل جزيل لا يقدر على فعله إلا رب رحيم حلیم.

الفصل الخامس

موانع التوكل على الله

وفيه :

تمهيد .

المبحث الأول: الجهل بأسماء الله وصفاته سبحانه .

المبحث الثاني: ضعف الباقين بالله تعالى .

المبحث الثالث: التكبر على آيات الله .

المبحث الرابع: الغرور والعجب بالنفس .

المبحث الخامس: الهوى والشهوات .

الفصل الخامس

موانع التوكل على الله

التمهيد :

إن الموانع المذكورة في هذا الفصل، هي حواجز تجعل من العبد سكوناً، وكفا وتمنعاً. وهي أمور مذمومة شرعاً لدرجة أن منها ما يؤدي إلى الكفر والشرك بالله تعالى .

واقترضت الحكمة الإلهية أن يجعل للبشرية - خاصة المؤمنة منها - أعداء من شياطين الجن يوسوسون لشياطين الإنس بالضلال والشر والأباطيل؛ ليضلّوهم، ويصدّوهم عن التوحيد.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ ^(١).

ولهذه الموانع المذكورة مفسد، وأضرار كثيرة في حياة الفرد والمجتمع أهمها:

- ١- إهانة الإنسان وانحطاط قدره ومنزلته إذا سأل أحداً غير الله تعالى، فسبحانه له ما في السماوات، وما في الأرض.
- ٢- أنها وكر للخرافات والأباطيل؛ لأنه بضعف يقينه وثقته بالله تعالى يعتقد بوجود مؤثر غير الله في الكون من الكواكب أو الجن أو الأرواح فيصبح عقله مستعداً لكل خرافة، وتصديق لكل دجال، وعلى هذا يروج في المجتمع بضاعة الكهنة والدجالين، والعرافين، والسحرة، والمنجمين .
- ٣- ظلم الإنسان لنفسه، وهذا من تكبره على آيات الله تعالى فيظلم أعظم الحقائق، حقيقة لا إله إلا الله، ولأرب غيره، ولاحكم لسواه، فبغرور الإنسان وعجبه بنفسه يسعى في الأرض فساداً.

(١) سورة الأنعام، آية: ١١٢.

٤- يتعطل العمل النافع الصالح؛ لأنه يتبع هواه وشهواته. فهذه من أهم الأضرار الناتجة من تلك الحواجز المانعة عن التوكل على الله.

والسلف الصالح من الدعاة إلى الله، والمصلحون شاهدوا وواجهوا حالات خطيرة للضعف الذي أصاب الأمة الإسلامية، فكان من اللازم تزكيتها، فالقلب قسا وكثرت أمراضه، وإذا كان من الآثار المباشرة لهذا المرض الجهل بأسماء الله، وضعف اليقين به تعالى، والتكبر على آياته، والغرور والعجب بالنفس، واتباع الهوى والشهوات، فهذه أمور خطيرة للسير قدما للأمام، فأصبح التركيز على هذه المعاني واجبا على الذين يريدون الإصلاح لهذه الحياة الفردية والجماعية^(١).

فالله تعالى ذم الجاهلين في كتابه العزيز حيث قال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخلقة الصم عن سماع الحق، البكم عن فهمه، فهم لا يعقلون فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام. فهؤلاء مسلوبو الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح^(٣).

وضعف اليقين والثقة بالله تعالى تفقد العبد إلى ضعف الإيمان فيقترب المرء بذلك من الهاوية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾^(٤). والمعنى أنهم غير متحققين من ذلك الوعد وتلك الساعة^(٥).

(١) انظر: لسعيد حوى، المستخلص في تزكية النفس (بيروت: دار عمار)، ص ١٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٢.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٤٦٨).

(٤) سورة الجاثية، آية: ٣٢.

(٥) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/٢٣٣).

والتكبر على الله تعالى خلق يجر صاحبه إلى الهلاك، فهو آفة عظيمة وحجاب دون الجنة، قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنْ يَلَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾^(١).

"فالكبر خلق باطن تصدر منه أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه يعني يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرا"^(٢).

والغرور والعجب بالنفس، واتباع الهوى والشهوات، تقضي إلى تعدي حدود الله والجرأة على عصيانه، ويطمع العبد متبجحا في عفوهِ مستصغرا للكبائر.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۖ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۖ فَبِأَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٤).

فالحذر الحذر من الإعجاب واتباع الهوى فهما من أعظم الآفات والمحبطات للأعمال، فالمؤمن الحق هو من يستحضر عظمة الله في نفسه في كل وقت، وهذا هو السبب الموجب، لخشية الله في السر كما يخشى في العلن، فإن من علم أن الله يراه حيث كان، وأنه سبحانه مطلع على الباطن والظاهر والسر والعلن، واستحضر ذلك دائما في كل وقت وحين فحينئذ يجتهد العبد لتكميل نفسه بالطاعات، ولزومها،

(١) سورة النحل، آية: ٢٣ .

(٢) انظر: المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، كتاب ذم الكبر والعجب، ص ٢٢٧.

(٣) سورة الانفطار، آية: ٦ - ٨ .

(٤) سورة ص، آية: ٢٦ .

والابتعاد عن كل ما يغضب الجبار، فالإسلام جاء ليظهر النفس وجاء بعقيدة التوحيد النقية الصافية حتى لا تنحط النفوس وتخرج من ظلمة الضلالة والجهل، ويرفعها من وهدة الشرك، ويظهرها، ويهذب النفس فإذا صحت العقيدة، سلمت النفس، وكمل الإيمان؛ لأن النفوس مرآة لكل حق، وتضيء ماحولها بحيث تنفع كل من دنى منها، والإسلام حريص على النفوس المؤمنة الصادقة، فكره لهم أن ينحطوا في الاعتقاد كما انحط أعداء الإسلام، وأراد لهم التطهر مما انغمس فيه الكفار فالموانع ذنوب تجعل صاحبها مخالفا للمأمورات، وفاعلا للمحظورات، وبهذا يبعد العبد المؤمن عن نور الإسلام شيئاً فشيئاً، وينغمس في هذه المحظورات التي تحرم نور العلم، وتحرم الرزق، وتحرم الطاعة، وتوهن القلب، والبدن، وتورث الذل، وتحدث في الأرض الفساد.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١).

وتزيل النعم، وتحل النقم، فلا بد من تقوى الله التي تجمع بين خير الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾^(٢).

(١) سورة الروم، آية: ٤١ .

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٨ .

المبحث الأول

الجهل بأسماء الله وصفاته سبحانه

لقد بين الله سبحانه لعباده حقيقة الإيمان الذي تقبل به الأعمال، ويتحقق به ما وعد الله به المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾^(١).

فالإيمان المقبول هو الاعتقاد الذي لا يخالطه ريب ولا شائبة، فالإيمان يزيد وينقص، ولا بد أن نفوز بتحقيق الإيمان وأن نقيمه، وهذا يحتاج إلى المزيد من إصلاح القلوب وتنقيتها من الأمراض الصادة عن الهدى، وإذا أراد العبد إيماناً صحيحاً فعليه بالعلم والمعرفة .

إن الجهل بأسماء الله وصفاته أمر مذموم غير ممدوح، حذر القرآن الكريم منه حيث، قال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢).

فالتحريف والميل بأسمائه إلى غير الصواب لهي من الجهل لامن العلم بمكان، فالجهل نقیض العلم^(٣)، والجهل اعتقاد بالشيء خلاف ما هو عليه^(٤).

إن جهل أسماء الله وصفاته سبحانه قريبة بمن يعطلها عن معانيها، ويجحد حقائقها، ومن هؤلاء الغالي، والمتوسط، والمنكوب، ومن يشبهها بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون، فلا ينبغي للعبد تأويل هذه الأسماء والصفات عن

(١) سورة الحجرات، آية: ١٥ .

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٠ .

(٣) انظر: لابن منظور، لسان العرب، (٧١٣/٢).

(٤) انظر: للرجائي، التعريفات، ص ١٠٨، رقم ٥١٧ .

ظاهر الآيات والأحاديث الصحيحة إلى معنى آخر، ولا تعطيلها بأن يجحد تلك الصفات وينفيها عن الله كعلو الله على السماء، فقد زعمت الفرق الضالة أن الله في كل مكان، وليس لنا أن نكيفها بدون علم، فلا يعلم كيفيتها أحد إلا الله، ولا ينبغي أن نمثلها بصفات خلقه.

فالجهل علامة من علامات مرض القلوب فإذا جهل العبد أسماء وصفات خالقه تعذر عليه فعل الذي لأجله خلق وهو العلم، والحكمة والمعرفة، وحب الله تعالى، واستعانتته، وإنابته، وتوكله " فمن الجهل أن يشكو العبد الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل، فإنه لو عرف ربه لما شكاه وفي هذا قيل:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ** تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

فلو كان عارفا عالما لشكى إلى الله وحده، فهو بذلك ناظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١)^(٢).

فتوحيد الله بأسمائه وصفاته دعت إليه الرسل جميعا، ودعا إليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿الَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٣)، وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت به ملائكته، وأنبيأوه، ورسله.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَابِئًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...^(٥)

" فتضمنت هذه الآية الكريمة معنى إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجل شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجل شاهد بأجل مشهود"^(٥).

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

(٢) انظر: لابن قيم الجوزية، الفوائد، ص ١١٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٢-١.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٨-١٩.

(٥) انظر: لابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص ٩٠.

فالجاهل ظالم لنفسه، إذ أنه يتخبط في سؤال من يستحق السؤال فإذا ترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فقد أقام السائل نفسه مقام الذل، وأهانها بذلك، وإذا استعان بغير العلي القدير دفع نفسه للهوان والمذلة، والمضرة؛ لأنه تعالى القادر على كل شيء، وغيره عاجز عن كل شيء، وأي شيء حتى في استجلاب المصالح لنفسه.

"ذكر أبو قدامة الرملي^(١) قال: قرأ رجل هذه الآية ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ وكفى به بدئاً عباداً خيراً ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾^(٢)، فأقبل سليمان الخواص^(٣)، فقال يا أبا قدامة ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله في أمره، ثم قال: كيف قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ فأعلمك أنه لا يموت، وأن جميع خلقه يموتون، ثم أمرك بعبادته، فقال وسبح بحمده، ثم أخبرك أنه خير بصير، ثم قال: والله يا أبا قدامة لو عامل عبد الله بحسن التوكل، وصدق النية له بطاعته، لاحتاجت إليه الأمراء فمن دونهم، فكيف، يكون هذا محتاجاً، ومؤملاً، وملجؤاً، إلى الغني الحميد^(٤)."

فالمؤمن ينبغي أن يكون متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت في أمورهِ، وشؤونه جميعها دقها، وجلها.

- (١) أبو قدامة الرملي عن عبدالعزيز بن قر، مجهول، وأتى بخبر منكر. انظر: ميزان الاعتدال ترجمة رقم (١٠٥٣٠).
- (٢) سورة الفرقان، آية: ٥٨-٥٩.
- (٣) سليمان الخواص من العابدين الكبار بالشام؛ انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، (١٧٨/٨) ترجمة ٢٣٥؛ وحلية الأولياء للأصبهاني، (٢٧٦/٨)، ترجمة ٤٠٧.
- (٤) انظر: لابن أبي الدنيا، التوكل على الله، تحقيق مجدى إبراهيم، (القاهرة: مكتبة القرآن، بدون تظ، ص ٤٨).

"والجهال بالله وأسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها يبغضون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته، والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون" (١).

فالعبد عليه أن يعرف الله ربه المعرفة الحققة، ويجهد نفسه في ذلك من خلال مطالعة الكتاب والسنة، فمثلاً لو أخذ العبد اسم (الرحمن) للاحظ أن الله تعالى رحيم رحمان بعباده أنزل الرسل مبشرين، ومنذرين، معرفين، هاديين مهديين موحيين نزلوا جميعهم وأرسلوا ليُعرفوا الناس بالإله الواحد الرحمن الرحيم. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

فالنعم، والإحسان، كلها من آثار رحمته، وجوده، وخيرات الدنيا والآخرة كلها من آثار رحمته "فسبحانه المنعم بجلائل النعم، ودقائقها، المفيض بتجدد وسعة لا منتهى لهما" (٣).

فالرحمن "اسم دال على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين، لأنبيائه ورسله. فهو لاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم، فله نصيب منها" (٤).

فإنه تعالى يرحم عباده الغافلين اللاهين فيرشدهم ويلهمهم طريق الرشاد والنصح بأفضل طريقه، وأن ينظر سبحانه بعين الرحمة لعباده العصاة، فينور لهم طريق الحق والصواب، ويعين عبده المؤمن لينال الكمالات بأن يعرفه بنفسه وبصفاته وأسمائه وآلاته، ويبين له كل ما يحتاجه إليه من مصالح دينه ودنياه، ويدفع عنه كل نقمة.

ومن هنا فإذا علم العبد أن مابه وبالعباد من نعمة، فمن الله، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف، والرجاء، والتعظيم،

(١) انظر: لابن قيم الجوزية، الفوائد، ص ٢٠٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٦٣.

(٣) انظر: لمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٥١/١).

(٤) انظر: للسعدي، تفسير الكريم الرحمن، (٣١/١).

والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات، ويعلم بذلك العبد أن الله رحمن رحيم عزيز غالب، ولن يكون بعد هذا مطلب للمؤمن إلا الحصول على رضا الرحمن، والعمل بطاعته، وما يتحقق ذلك إلا بمعرفة العبد أن الأمور كلها بيد الله، ولن يعول على سواه؛ لأنه الإله الخالق ذو العبودية والألوهية.

قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾^(١).

فمن يجهل أسماء الله وصفاته كان عبداً لمخلوق مثله "وربما صار معتمداً على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ولا حقيقة التوكل عليه بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله"^(٢).

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٣).

علم المؤمنون برحمته بتوصيله للمنافع، وأنه المتصرف وحده، الذي قصد بالخلق معرفته، وعبادته "ففي ذكر الرحمن هنا إشارة إلى أن أهل الإيمان مرحومون، وفعل الله بالمؤمنين دائماً محفوف بالرحمة وذلك أن من أثار رحمته أن جعلهم يتوكلون عليه وأمرهم بالتوكل؛ لأنه سبحانه هو أهل للإيمان به وأهل للتوكل عليه"^(٤).

ولو نظرنا لحال من جهل مقام القوة وعظيم القدرة والغلبة فإن مصيره مصير من قبله من الأمم.

(١) سورة المؤمنون، آية: ١١٦ .

(٢) انظر: لابن تيمية، العبودية، ص ١٠٢ .

(٣) سورة الملك، آية: ٢٩ .

(٤) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٦٠٣٨/١٠).

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾^(١).

فالله قادر على إنزال العذاب كما أنزله على قوم نوح، والصيحة كما حصب قوم لوط، وكما رمى أصحاب الفيل، وكما زلزل وخسف بقارون فكل شيء دان، وخضع له، وذلت جميع الكائنات فهو الخالق السيد الذي قد كمل في سؤده.

وأما من جهل افتقاره إلى الله فيحق له عذاب الحريق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ^(٣).

إن جميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لا يملكون لأنفسهم نفعا، ولا ضرا ولا خيرا، ولا شرا، فهو تعالى (الغني) الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه لا يتطرق إليه الفقر أو النقص بوجه من الوجوه، والمخلوقات بأسرها لا تستغني عنه في حال من أحوالها، فهي مفتقرة إليه في إيجادها، وفي بقائها، وفي عملها، وفي كل ماتحتاجه أو تضطر إليه، ومن سعة غناه، أنه لم يتخذ صاحبة، ولا ولدا، ولا شريكا في الملك، ولا وليا من الدن، فهو الغني الذي كمل بنعوته وأوصافه، المغني لجميع مخلوقاته ومن كمال غناه وكرمه أنه يأمر عباده بالسؤال ويعطيهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(٤).

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨١، ١٨٢ .

(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٦ .

"ومن كمال غناه سبحانه ما يبسطه على أهل الإيمان من عطاياه من النعيم، واللذات والخيرات، والمغني لخلقه، بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية"^(١).

إن الله تعالى رزاق كريم رزقه عام لجميع عباده، وله سبحانه رزق خاص لخواص خلقه المؤمنين، فكل ما يحتاجونه في معاشهم، وقيامهم، مسهل للأبرار والفجار من الآدميين والجن والملائكة، ولكن ما يخص المؤمن هو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة وهذا نوعان :

أ - رزق القلوب بالعلم والإيمان، فجميع القلوب مفتقرة إلى هذا الرزق، ولن تغنى إلا إذا كانت عالمة بالحق مريدة له.

ب - رزق البدن بالرزق الحلال، فينبغي للمؤمن إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه الرزقين رزق الهدى والإيمان، ورزق ما يصلح البدن من الحلال النافع، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(٣).

فإن الله تعالى سهل الأرزاق، ودبرها، وساق إلى كل مخلوق صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، فإن الله تعالى رزقه لعباده مضمون، وما خلق الخلق إلا لعبادته لا ليرزقوه، فسبحانه ذو القدرة الكاملة، شديد القوة، كثير الرزق^(٤).

فكل من طلب الرزق، والعون من غير الله، فقد اعتمد على ضعيف ذليل مثله لا ينفعه، ولا يضره، وإن اعتقد ذلك، فسبحانه لا ينبغي أن يدعى سواه، ولا يرجى، ولا يطلب، ولا يتوكل إلا عليه؛ لأن من نرجوه، ونخافه، ونتوكل عليه هو القيم

(١) انظر: لعبد الرحمن السعدي، الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، ص ٤٧-٤٨.

(٢) سورة الذاريات، آية: ٥٨.

(٣) سورة هود، آية: ٦.

(٤) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، مج (١٠/٥٥٢٤، ٥٥٢٥)؛ وللسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (١٠٩/٥).

والمتولي لتدبير خلقه، فمن اتخذه وكيلا كفاه، فهو الإله الحق كيف لانتجىء إليه سبحانه! فهو الناصر والرازق.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(١).
وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٢).

إن الله تعالى موكل إليه كل شيء له مفاتيح الرزق، والرحمة ويكفي المؤمنين شر من عاداهم^(٣)، في هذا المعنى يقول صاحب تفسير مفاتيح الغيب: "فالأشياء كلها موكلة إليه تعالى فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع، ولا مشارك فهو سبحانه يدفع الآفات، ويزيل البليات، ويوصل كل المرادات"^(٤)، فسبحانه الكافي عباده جميع ما يحتاجونه ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة، من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه، فهل بعد هذا يجهل العبد ألوهية وربوبية الله تعالى بأسمائه، وصفاته العلى، فينبغي ويلزم كل مؤمن أن يحصى أسماء وصفات ربه، فأحصاؤها أصل لسائر العلوم فمن أحصاها أحصى سائر العلوم، فأسماء وصفاته سبحانه كلها حسنى وأفعاله كلها خيرات.

فأحصاء المؤمن بمعرفة، وفهم معانيها، والإيمان بها، والنقة بمقتضاها والاستسلام، لما دلت عليه رجاء الفوز برضى الله، ودخول الجنة، وعلى هذا فقد كثر الكلام في معرفة أسماء وصفات الله سبحانه من الفرق الضالة الذين عدلوا بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها.

ومن هنا "فلا يصح التوكل، ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدريّة النفاة القائلين: بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات، فأى توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفلية وعلوية؟

(١) سورة الزمر، آية: ٦٢.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣٦.

(٣) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (١٧/٥-٢٦).

(٤) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مجلد (١٣-١٤/٢٨).

ولاهو فاعل باختياره؟ ولاله إرادة، ولامشيئة، ولايقوم به صنعه؟
فكل من كان بالله وصفاته أعلم، وأعرف: كان توكله أصح وأقوى،
والله سبحانه وتعالى أعلم^(١).

فالله تعالى شرف الحياة بالإيمان، والحق أنه على قدر ذكاء الشخص
واستنارته، واستقامته، وسوية فطرته، ومدى علمه، يكون رسوخ قدمه في الإيمان.

قال تعالى: ﴿ هَذَا بَلَغُ النَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ
وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾^(٢).

لقد ذم الجهل والجهال فـ " لجهل في القلب، كالنز في الأرض يفسد
ماحوله"^(٣).

قال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٤)،
فالمعنى أعرض "عن المصرين على جهلهم، فلاتكافيء السفهاء بمثل سفههم،
ولاتمارهم، واحلم عنهم، وأغض مايسوؤك منهم"^(٥).

فالجهل بأسماء وصفات الرب تعالى آفة توجب المشقة لصاحبها؛ لأنه يجتهد
ويهم بالعمل، ولكن لايرقى إلى المقصود، أو يقع في المفسدة وهذا كله ينقص كمال
ثمرة الإيمان المنشودة من المؤمن .

والجهال بجهلهم، وعدم معرفتهم وعلمهم، يقررون في أنفسهم أموراً لم يقرها
ولم يقلها المصطفى ﷺ، ويفهمون الآثار بفهمهم الباطل المبني على غير علم
ولاهدى فيفتنون، وينصحون بالباطل فيضلون أناس على ذلك .

**" عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول
الله - ﷺ -: " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض**

(١) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٢/١٢٣).

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٥٢ .

(٣) انظر: للماوردي، أدب الدنيا والدين، تحقيق: مصطفى السقا (بيروت: نط، ١٩٧٨هـ)، ص ٥٠.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩ .

(٥) القاسمي، محاسن التأويل، (٧-٨/٣٢٥).

**العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهلاً ففسلوا
فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا" (١).**

ولعمر الله العدو العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل؛ لأن العدو معروف
بعداوته، أما الصديق الجاهل فلا يعرف.

**"والجهل بأنواعه ظلمة ووحشة في القلب سواء كان جهل العلم
والمعرفة أو جهل العمل والغي" (٢).**

والجهل غي خاصة ما إذا كان صاحبه لا يعلم بجهله، وشر منه من كان يظن
أنه على ما فيه عالم، فكل من يحسب أنه على علم وهدى فهو أهل جهل، وضلال،
قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ (٣).

قال ابن القيم (٤) - رحمه الله تعالى - :

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ** أو كنت تدري فالمصيبة أعظم (٥).

فالجهل بأنواعه مورد للمهالك والمصائب، يفسد على المؤمن الدنيا، ويخرب
الآخرة، داء فتاك، وشفافه بالعلم والسؤال والتعلم من أصحاب العقول النيرة،
بالكتاب والسنة، فالعلم للإيمان، كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقراً له إلا
عند أولو الألباب، قالوا

(" ومن لم يحتمل ذل التعلم ساعة ** بقي في ذل الجهل أبداً ") (٦).

فالجهال أعمالهم، وعلومهم جميعها بمنزلة السراب الذي يكون صاحبه أحوج
ما هو إليه، فكل من أقدم على عمل، وجهل فيه، فلن يكون خالصاً ولن يكون بعمله

(١) البخاري، الفتح، ح (١٠٠/١)، كتاب العلم، واللفظ له؛ ومسلم (٢٦٧٣)، (٢٠٥٨/٤) كتاب العلم.

(٢) السيوطي، الأشباه والنظائر، دار الحديث، بدون تط، ص ٢٢٠.

(٣) سورة المجادلة، آية: ١٨ .

(٤) سبقت ترجمته .

(٥) ابن قيم الجوزية، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (بيروت: دار الكتب العلمية، تط

١٩٨٣هـ)، ص ٣٣ .

(٦) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، دار الفتح، تط ١٩٧٨م، ح (٩٩/١).

هذا صائبا، وبذلك يكون توكله شائبا، وسعيه منثورا؛ لأنه أعرض عن العلم، والحق، والمعرفة، والنور فينقلب في جنبات الجهل، والظلمة، ويعرض عن أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، فينبغي للمؤمن أن يستعيز من الجهل، ويدعو الله أن يلهمه العلم والمعرفة بحقه وبأسمانه وصفاته، فقد كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء، **"عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: كان النبي - ﷺ - يدعو: "رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وجددي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير" (١).**

(١) البخاري، الفتوح، ج ١١، ح (٦٣٩٨) كتاب الدعوات، واللفظ له، ومسلم، (٢٠٨٧/٤)، ح (٢٧١٩)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

المبحث الثاني

ضعف اليقين بالله تعالى

إن المتأمل لأحوال الناس اليوم، يجد أن بعضهم عمدوا إلى محارم الله فارتكبوها ومنهياته فاستباحوها، ومأموراته فاجتنبوها ونبذوها وتركوها، وقطعوا الأسباب بينهم، وبين خالقهم، ورازقهم، وهم بذلك سلكوا مسلكاً مؤدياً إلى التلبس بكل مايقود إليه .

والسلوك يتأثر بالإيمان، وممارسات صاحبه؛ فلذلك يضعف الإيمان واليقين، وينقص إذا وقع صاحبه في المكروهات، والمحظورات؛ " لأن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) (٢) .

ومداخل وأبواب الشيطان كثيرة تضعف يقين وإيمان العباد، والثقة بالله تعالى؛ لذلك كان من الواجب حماية القلب من وساوس الشيطان، وسد مداخله، ونزغاته بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وذلك ببذل الجهد في التزكية، وسؤال الله، والإعتماد عليه فيها وفي الحديث " عن عبدالله -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- أنه كان يقول: " اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى " (٣) .

فإخلاص القصد والعمل لله، ومتابعة سنة رسوله -ﷺ- تجعل من المخلص أن يتذوق حلاوة عبوديته واستسلامه لله " إذ ليس عند القلب السليم أحلى، ولا أذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبتة له، وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي إنجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيباً إلى الله قوي العلاقة فيما بينه وبين ربه راغباً راهباً طارداً كل وساوس الشيطان واثقاً،

(١) سورة الحجرات، آية: ١٥.

(٢) انظر : للحكمي، معارج القبول (بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٣هـ)، (٣٠٨/١).

(٣) مسلم، (٢٠٨٧/٤)، ح (٢٧٢١)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

وموقفنا أن الله تعالى إذا حكم، وقدر وقضى أمراً، فلامرد لقضائه، ولامعقب لحكمه" (١).

فمن أكبر عوائق التوكل على الله تعالى هو أن يضعف يقين العبد بالله تعالى؛ لأن قوة اليقين، والثقة بالله تعالى هي من أنواع أغذية القلوب فإذا نقص الغذاء مرض القلب، وانحرف ومال للسماع الشيطاني وبعد العبد عن الله، وغلظ حجابيه فيما بينه وبين الله تعالى، وأصبح كالحيوان.

قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٢).

فالآية الكريمة في معرض الاستهزاء بعقولهم، وتمثيلهم بالأنعام، فالأنعام ليس لها عقول، وهؤلاء لهم عقول ضيعوها؛ ولأن الأنعام تطلب ماينفعها وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء يتركون أنفع الأشياء وهو الثواب، ولا يخافون أضر الأشياء وهو العقاب (٣).

فمن ضعف يقينه، وثقته بالله تعالى، فلن يرضى بحكم وقضاء الله في جميع أمور معاشه، ويترتب على ذلك أنه لا يأمّن من فوق المقدور له، وذلك راجع لجهله بمعرفة الله تعالى، وأن قضاة سبحانه لامرد له ألبته، ولضعف يقينه " فعلى العبد أن يقف على مقام الحق من أسماء وصفات ونعوت كمال وتوحيده، وبهذا يحصل له اليقين" (٤).

فضعف اليقين والثقة بالله يضعفان:

- (١) انظر: لابن تيمية، العبودية، ص ١٤٠.
- (٢) سورة الفرقان، آية: ٤٤.
- (٣) انظر: للكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل (بيروت: دار الكتاب العربي، تط الرابعة ١٤٠٣هـ)، (٧٩/٣).
- (٤) ابن القيم، مدارج السالكين، (٤٢٠/٢).

١- العزم والإرادة على عمل ما يرضي الله ورسوله، فكل ما في الكون يدعو العبد إلى إزاحة الشك ومعرفة الحق.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(١).

"فالله تعالى يبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل ... فالله تعالى جلاله الأمر سره وعلايته ... وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة، والدلالات القاطعة"^(٢). فجميع المخلوقات دالة على وجود صانع خالق لها سبحانه.

وما فعل إبراهيم عليه السلام من إرادة مخلوقاته سبحانه الكونية السماوية إلا ليؤكد لنفسه أن للعالم صانعا واحدا سبحانه.

٢- إن ضعف اليقين والثقة يفضيان إلى عدم الإيمان بالغيب، ويضعفانه. "فالإيمان بالغيب الذي أخبر به الحق سبحانه على لسان رسله من أمور المعاد، وتفصيله، والجنة والنار، وما قبل ذلك من الصراط والميزان، وما قبل ذلك من أمور البرزخ، نعيمه وعذابه من درجات اليقين"^(٣).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٤) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٥).

"قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين

(١) سورة الأنعام، آية: ٧٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٢٤١).

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، (٢/٤١٨).

(٤) سورة البقرة، آية: ١٧٧-١٧٨.

لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ماجاؤهم به من ربهم، وبالأخرة يوقنون أي بالبعث، والقيامة، والجنة، والنار والحساب والميزان^(١).

فكل من حاد عن الحق، واختلف فيه ضعف يقينه، وثقته بالخالق، فالحق هو اليقين، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٢).

إن الآيات القرآنية مليئة بالدعوة إلى الإيمان والنظر في ملكوت السموات والأرض، والدعوة إلى الإيمان بالغيب حتى يستقر في قلب كل مؤمن التوحيد واليقين والثقة بالله.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٥).

فالآيات السابقة "يرشد فيها الله تعالى إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس، والأنواع من الملائكة، والجن، والإنس، والدواب، والطيور، والوحوش، والسباع، والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، وفي تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضياه، وما أنزل الله

(١) انظر: الطبري، جامع البيان...، (٩٥/١)؛ ولابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٨/١)؛ وللاؤوسي، روح المعاني، (١٢٢/٢١).

(٢) سورة النمل، آية: ٧٩.

(٣) سورة الدخان، آية: ٧.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٢٠.

(٥) سورة الجاثية، آية: ٤.

تبارك من السحاب وغيرها ... لآيات لقوم يوقنون" (١)، إيقاننا تاما لاخالطه أدنى شك فهي جميعها تدل على قدرة الله تعالى، وقدرة الصانع العظيم، وحكمته التي يعتبر بها أهل اليقين أهل العلم والمعرفة.

إن الريب في قدرة الله تعالى من أسباب المعاصي التي تجعل العبد في ضعف وخور في الإيمان، ويقينه بخالقه، ورازقه، ومدبر أمره، فعدم خشية الله، ومراقبته تجعل العبد يستخف بوعده سبحانه ووعيده؛ لهذا كان لزاما على كل عبد مؤمن أن يتقي الله ويخشاه حق خشيته، ولن يكون ذلك إلا بالعلم المستقر في القلب الثابت من الأسباب المتعينة له بحيث لايقبل هذا العلم إلا الزيادة لا النقص والهدم.

فقوة اليقين تقوي التوكل على الله؛ لأن بقوة اليقين يزيد المسلم من ربه قربا، وحبًا، ورضى بما قسمه له سبحانه، من أمور معاشه وبه يتبع النور فيسلك العبد طريق السلامة .

ومن هنا نرى أنه كلما زاد الإيمان زاد اليقين، وكلما ضعف الإيمان ضعف اليقين؛ لأن اليقين هو لب الدين ومقصوده الأعظم، فينبغي على العبد أن يتقى الله عز وجل، ويصدق في ذلك لسانا ونية وإرادة وعزما، ويكون بين الخوف والرجاء بما عند الله " فالخوف والرجاء جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، قال تعالى: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٢) (٣).

لذلك فإن من اتقى، وصدق، وخاف، ورجى، فسيسلم من وسوسة الشيطان ومداخله، ومن كان بعيدا عن ذلك، فإنه لايسلم من مداخلات الشيطان، فربما بل حتما سيعتقد فيمن لايستحق الاعتقاد، ويخاف ممن لايستحق الخوف، فينقاد إلى الاعتقاد أن القضاء والرزق والمقدرات من عند غير الله، وبذلك سيقدر توكله، واستعانتة؛ لأن الصدق واليقين قرينا التوكل فمن يقن ووثق بوعد الله تعالى، وضمانه لا يخاف فوت رزقه، ولا منازعة أحد له في رزقه، ومعاشه.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢٢٥/٤).

(٢) سورة السجدة، آية: ١٦ .

(٣) انظر: لسعيد حوى، المستخلص في تركية النفوس، ص ٣٢٧.

قال تعالى ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١).

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض صغيرها، وكبيرها بحريها وبريها، وأنه يعلم مستقرها، ومستودعها أي يعلم أين تنتهي سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علما بذواتها وصفاتها^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^(٣) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(٥).

فالآيتان الكريمتان السابقة ينتلج بها الصدر، ويحصل بها اليقين والثقة عند علمه أن الله الكافي عباده الرزق وحصول المنافع، وهذا مما يوجب للعبد المؤمن القيام بتوحيد الله، والاعتماد على ربه في حصول ما يحب.

فالمؤمن ينبغي عليه أن يدفع الضعف بمعرفة الله وبالوجوه التي تعرف من خلقه للخلق، وتدبيره للخلق، ومن قدرته على الخلق وتكفله بأرزاق الخلق، وأمانته للخلق، وإحيائه للخلق، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله أحسن الخالقين.

لأن ضعف اليقين والثقة بالله إذا استحكم، وغلف القلب، يورث ويقود إلى الخسران المبين، وإلى طول الأمل، ويورث التخبط في الدنيا، وعدم النظر إلى العواقب، ويضعف العلاقة بين المسلم وربّه فيضعف التوكل على الله، ويزيد العبد خضوعاً، واستكانة لغير الله وما لهذا خلق المؤمن، فقد خلق لعبادة الله، وتوحيده المتضمن أنواع التوحيد الثلاثة (ربوبية - ألوهية - أسماء وصفات).

(١) سورة هود، آية: ٦ .

(٢) انظر: جامع البيان، (٢٥٧/٤)؛ ولابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٧٦/٢)؛ وللطبري، ولسعدي تيسير الكريم الرحمن، (٣٦٨/٢).

(٣) سورة الذاريات، آية: ٢٢-٢٣.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٨ .



خلق لتدبر آيات القرآن الكريم، والاستفادة من علومه ومعارفه وأحكامه، ومعرفة أحاديث رسول الله - ﷺ - وما تضمنته من علوم الإيمان وأعماله، فهذه جميعها من الأمور التي تقوي الإيمان وتجلبه للنفس حتى تسكن إلى المضمون، وتثق بالله، وينعقد القلب لسيده؛ لأنه إن أعطى لم يقدر أهل الأرض أن يمنعوه، وإن منعه لم يقدر أهل الأرض أن يعطوه؛ لأن سلطان الله عظيم، وبتوكل العبد عليه يكفيه، فالتوكل محض الإيمان والناس يتفاضلون في التوكل، والإيمان على قدر اليقين^(١).

(١) انظر : المحاسبي، آداب النفوس، ص ١٩٧-١٩٨.

المبحث الثالث

التكبر على آيات الله

إن الكبر والتكبر والاستكبار تتقارب معانيها وتصريفاتها، فالكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم التكبر التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة، وهذا مذموم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١)،^(٢).

فذلك التعاضم، والتعالي، والتكبر رذيلة بغیضة تنشأ عن الجهل فتدعو صاحبها إلى المبالغة في تعظيم شخصه، إذ يرى محاسنه بمجهر، ويعمى عن عيوبه ونقصه، فيعتقد بذلك أنه فريد زمانه، وهذا لا يجد من الناس، إلا الاحتقار، وقد أراد أن يعظموه، ويكرهوه، وقد أراد أن يحبوه فهو ممقوت من الناس ممقوت من الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾^(٣)، فباعجبا لهذا المخلوق الضعيف الذي يفخر بأصله، وهو من تراب، ويباهي بجسمه وهو إلى فناء وهلاك، وسيكون عما قليل عظاما نخرة، فالمتكبر لا يعبد ربه حق عبادته، بل يعبد عنجهيته، وهواه فكم من عبادة أداها كانت هوى وعشقا جارفا، ويوهم نفسه أنه يجاهد في سبيل الله، وهو إنما يجاهد في سبيل رضا هواه.

"والكبر مناف للأمر الذي خلق الله له الخلق، وأمر لأجله بالأمر، فالله تعالى خلق الخلق سبحانه، وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده والكبر ينافي ذلك"^(٤).

(١) سورة البقرة، آية: ٣٤ .

(٢) انظر: للأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٣٨؛ وللفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ٦٠٢.

(٣) سورة النحل، آية: ٢٣.

(٤) ابن القيم، الداء والدواء، ص ١٩٥.

فالقرآن الكريم كله دعوة للنفس الإنسانية إلى السلوك القويم، والعقيدة الصحيحة يتبعها السلوك الصحيح، والقرآن الكريم فيه نماذج للأخلاق الذميمة التي ينهى عنها ويحذر منها صيانة للنفس الإنسانية؛ ولما يترتب على هذه الأخلاق من المفساد، وارتفاعها بها إلى درجة من سمو الخلقي والأخلاقي، والكمال النفسي.

" فعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ- : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه ذرة من إيمان فقال رجل يا رسول الله " الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنا فقال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس " (١).

فالحديث الشريف بيان لمعنى الكبر الحقيقي وهو إنكار الحق والترفع عنه والتجبر فيه، واحتقار الناس والاستهانة بهم.

إن هذا السلوك الذميم مانع وحاجز لمفهوم التوكل على الله، فالمتكبر قلبه مريض بعدم الخضوع، والإذعان، والانصياع للحق ولأوامره سبحانه فلا يرى ميزة للآخرين، ولا يذكر لغيره فضلا عليه، والمتكبر كنود كفور لا يطيق أن يعترف بفضل ذي الفضل عليه، ولا يتنازل أن يشكر إحسان من أحسن إليه، والمتكبر حسود حقود يمقت كل عظيم، وينقم على كل كبير، ولا يرى إلا نفسه ولا يفكر إلا في ذاته، ويتمسك ويتعصب لرأيه الباطل.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٢).

وعلى ذلك فإن أهل الكبر والإصرار إلى النار صائرون، وأهل الكبر والتجبر مطبوع على قلوبهم.

(١) رواه مسلم، (٩٣/١)، ح (٩١) كتاب الإيمان .

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٦.

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾^(١).

"فكما طبع الله على قلوب المارقين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم، يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين الذين آبوا أن يوحدوا الله ويصدقوا رسله، واستعظموا عن اتباع الحق، فيصدر عنهم أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياح، والجدل بغير الحق"^(٢).

فيتكبر بذلك على الطاعات، والأوامر ويعتقد في نفسه أنه خير من غيره وأنه يجتهد، وبهذا يزعم بما يكون منه حسنا أو قبيحا ويمتنع على ذلك المتكبر للانقياد، والإذعان لمن يعتقد أنه أقل منه علما ودراية، وبهذا يضل ويخزي خاصة إذا عاند وأصر وكابر عن الحق، ويطبع هذا الخالق على قلب كل متكبر عليه، تكبر على توحيد الله متعظم عن اتباع الحق، إن فرعون علا وتكبر في الأرض فساء مصيره إلى نار جهنم، ولمجادلته في آيات الله بالباطل من غير حجة ولا برهان.

"فالكبر والتكبر على آيات الله من المهلكات، ولن يتم وينجح العلاج إلا بمعرفة الإنسان مقدار نفسه، ويعلم أنه أذل من كل ذليل، وكيفية أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، وليعلم أن الكبر لا يليق به، وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله تعالى بغضاً عنده"^(٣).

إن صفة التكبر لا تصح إلا لله سبحانه وتعالى فهو سبحانه المتكبر عن السوء، والنقص والعيوب لعظمته، وكبريائه؛ لأنه سبحانه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد مثله، وهو المتعالي عن صفات الخلق، وعن عتاة خلقه، فسبحانه كامل الذات متكبر وكبير وعظيم، فليس للإنسان أن يتكبر بمال أو جاه أو جمال أو قوة أو كثرة ونحو ذلك فجميعها من عند الله تعالى وهبها لمن شاء وأرادها لمن شاء^(٤).

(١) سورة غافر، آية: ٣٥.

(٢) انظر: للمراغي، تفسيره، (٧٠/٨).

(٣) انظر: لابن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص ٢٣١-٢٣٣.

(٤) انظر: لابن منظور، لسان العرب، (١٢٩/٥-١٣٠)؛ للغزالي أبو حامد، المقصد الأسنى في

شرح معاني أسماء الله الحسنى، (قبرص، تط ١٤٠٧هـ)، ص ٧٥؛ مقاييس اللغة، أحمد ابن

فارس (١٥٤/٥).

أما المتكبر من العباد فهو جاحد طارد للحق، مهلك لنفسه، مغلق لأبواب الجنة " فكل من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله، ووضعه، وصغره وحقره، ومن تكبر عن الانقياد للحق فإنما تكبر على الله، فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته، ومنه وله فإذا رده العبد تكبر عن قبوله، فإنما رد على الله، وتكبر عليه" (١).

فالإنسان ما خلق إلا لعبادة ربه، والتواضع له، واستصغار نفسه واحتقارها أمام عظمة الله.

فكل من لا يرى ذلك فقد يلقي وعيد ووعد ربه، قال تعالى في محكم كتابه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَخِرِينَ﴾ (٢).

"فالمتكبر عن آياته الأفقية، والنفسية، والفهم لآيات الكتاب بعدم الاعتبار بها لأنه قد تكبر على عباد الله، وعلى الحق، وعلى من جاء به، ومن كان بهذه الصفة، حرمه الله خيرا كثيرا، وخذله، ولم يفقه من آيات الله، ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح" (٣).

"فالآية الكريمة شاهد على الوعيد الشديد لمن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطف بعباده عظيم، وإحسان إليهم كبير، من حيث توعد من ترك طلب الخير منه، واستدفاع الشر بالدعاء بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة الشديدة، فينبغي توجيه الرغبات إليه، والتعويل في كل المطالب على الله، فهو سبحانه أرشد إلى التوكل عليه، وكفل لنا الإجابة، بإعطاء المطالب وحصول الرغبات، فهو كريم جواد يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، فسبحانه يغضب على من لم يطلب من فضله العظيم، وملكه الواسع ما يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا" (٤).

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، (٣٤٦/٢).

(٢) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (١٥٩/٢).

(٤) انظر: للمراغي، تفسيره، (٨٨/٨).

فبالكبر ينحط العبد في مطالبه، ويتخبط في مسالكه، وطرقه والنتيجة هي البعد عن الله، والشعور بالضيق والضياع، فينبغي على العبد إذا شعر بأثار وأعراض هذا المرض والخلق الذميم في نفسه وأن يعالج نفسه وذلك بقطع وبتر جذور هذا الخلق من مغرسه في القلب ويدفع العارف منه بالأسباب التي قد يتكبر فيها، وذلك أن يعرف نفسه ويعطيها قدرها وحقها، ويعرف نفسه صفات ربه تبارك وتعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر على الله تعالى وعلى رسوله وطاعة الله وطاعة رسوله، أما المتكبر بالغنى، والجمال والكثرة، وعلو المناصب فهذا يعالج نفسه بأن يعلم أن هذا كله مما أعطاه الله إياه وتفضل به عليه، وليبادر بشكر الله، والتواضع له.

قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١).

"فالكبر مفتاح الشقاء، والمتكبر هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهدايته نفسه كفيلا، وبقي في العمى، فاتخذ الهوى قائدا، والشيطان دليلا، فالكبر يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق"^(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِتْنَى أُذُنِيهِ وَقَرَأَ فَبِشْرِهِ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾^(٤) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبِشْرِهِ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ^(٥).

(١) سورة إبراهيم ، آية: ٧ .

(٢) انظر: للغزالي، إحياء علوم الدين، (القاهرة: دار الشعب)، (٣/٣٤٥).

(٣) سورة لقمان، آية: ٧ .

(٤) سورة الجاثية، آية: ٧ - ٨ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾^(١).

فالتكبر هو من الأسباب المبعدة عن الخير وأبوابه، وتبعد عن طاعة الله وعن مأمورات الخالق التعبدية، والقلبية، والسلوكية، فالتكبر منصرف عن الاستعانة بالله، والإنابة إليه، والتوكل عليه وتعمى بذلك بصيرته، ولا يرى الحق، ويصر على التعالي، ولا يسمع، ولا يعي لنصح ناصح، فيهلك، ويغضب الله، ويكرهه الناس وفي هذا " قال رسول الله - ﷺ - في حديث حارثة بن وهب أنه سمع النبي - ﷺ - قال: "ألا أخبركم بأهل الجنة؟ قالوا: بلى، قال - ﷺ - "كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ثم قال: "ألا أخبركم بأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "كل عتل جواظ متكبر"^(٢).

فالينظر العبد إلى مصيره، وليحاول جاهدا نفسه لمرضاة ربه ويعمل على تقواه وخشيته، وليدفع عن نفسه الكبر بالتواضع، وليذكر نفسه بمآله ومرجعه ويحاسب نفسه حتى لا يذل، ولا يضل، فكلنا من تراب، وسندس في تراب، فلنعمل وننال المثوبة والجزاء الحسن.

(١) سورة الأعراف، آية: ٤٠ .

(٢) صحيح البخاري، ح(٦٦٥٧) كتاب الإيمان والنذور؛ ومسلم، (٢١٩٠/٤)، ح(٢٨٥٣)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها واللفظ له .

المبحث الرابع

الغرور والعجب بالنفس

إن الغرور والعجب بالنفس يحصل بالاستعظام، ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه فهما مذمومان، وماهما إلا نتيجة للكبر، وهما من أحد أسبابه، قال تعالى في محكم التنزيل ذاما العجب ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾^(١).

فالغرور والعجب بالنفس ثمرتا من شر ثمرات الكبرياء، والغفلة، والجهل يعميان البصيرة عن الحق، ويبعدان عن الصواب، ويسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل، ففي وقعة حنين كان معسكر رسول الله -ﷺ- في غاية الكثرة والقوة، فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين، ومتى اعتمد الإنسان على الدنيا فاته الدين والدنيا، فالعبد عليه أن يسلك نفسه من الغرور والعجب حتى لا يستوليا عليه، فلا ينفع بعد ذلك لا إصغاء لنصح ولا قبول لتأديب، كما أنه يزداد بعدا عن الطاعات^(٢).

فالإعجاب والغرور بالنفس، وماشابههما ضلال يفضي بصاحبه إلى التعدي والعصيان، وهذا أمر ليس بجديد زماننا بل هو قديم "فمعركة حنين تعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوة غير قوته، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية، حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة، إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة، وإن الكثرة لتكون أحيانا سببا في الهزيمة؛ لأن بعض الداخلين فيها، التائهين في غمارها، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة، التي ينساقون في تيارها، فتزلزل أقدامهم، وترتجف في ساعة الشدة، فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ماتخذع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق

(١) سورة التوبة، آية: ٢٥ .

(٢) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ١٦-١٧ (٢١/٨).

صلتهم بالله انشغالا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة^(١).

فالغرور يلزمه العجب بالنفس، وكلاهما داع إلى بعض لامحالة؛ لأن من خدع في نفسه فسيعجب بها، ويظن أنه وصل للكمال من علم أو عمل؛ لأن المغتر غرته نفسه، وشيطانه، وهواه، وأمله الخائب الكاذب بربه حتى أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والغرور ثقتك بمن لا يوثق به وسكونك إلى من لا يسكن إليه ورجاؤك النفع من المحل الذي لا يأتي بخير، كحال المغتر بالسراب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢).

وقال تعالى في وصف المغترين ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٣).

إن غرور العصاة من المؤمنين بأن يرجوا كرم وعفو الله، ويسمون تمنيتهم هذا رجاء وأنه محمود في الدين، وأن رحمة الله واسعة للمؤمنين إلا أنه قياس مشوب إذ المؤمن يعمل لما بعد الموت، والجاهل المغرور من تبع هواه وتمنى على الله، فليعلم العبد أن كل نعمة هي من الله من الله بها عليه، فإذا اعتقد العبد أن الله سبحانه وفقه للعبادة أو النعمة فقال: رأني الله أني أهلا لها فهذا هو الإعجاب والغرور بالنفس، ووضع بذلك العبد نفسه في المهلكات والآفات.

قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٤).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (١٦١٨/٣).

(٢) سورة النور، آية: ٣٩.

(٣) سورة الكهف، آية: ١٠٣-١٠٤.

(٤) سورة النساء، آية: ١٢٠.

فالآية الكريمة تضمنت طائفة غرهم الشيطان " فعمدة أمر الشيطان إنما هو بإلقاء الأمانى في القلب، فهنا نبه تعالى على أن العمدة في دفع الأمانى الشيطان، وتلك الأمانى لا تفيد إلا الغرور، والغرور هو أن يظن الإنسان بالشيء أنه نافع، ولذيد ثم يتبين اشتماله على أعظم الآلام والمضار، وجميع أحوال الدنيا كذلك، والعاقل يجب عليه أن يلتفت إلى شيء منها، ومثال هذا أن الشيطان يلقي في قلب الإنسان أنه سيطول عمره وينال من الدنيا أمله ومقصوده، ويستولى على أعدائه، ويقع في قلبه أن الدنيا دول فربما تيسرت له كما تيسرت لغيره، إلا أن كل ذلك غرور، فإنه ربما لم يطل عمره، وإن طال فربما لم يجد مطلوبه، وإن طال عمره ووجد مطلوبه على أحسن الوجوه فإنه لا بد أن يكون عند الموت في أعظم أنواع الغم والحسرة، فإن المطلوب كلما كان ألد وأشهى، وكان الألف معه أدوم وأبقى كانت مفارقتة أشد إيلاماً، وأعظم تأثيراً في حصول الغم والحسرة" (١).

" وعلى ذلك فإن الشياطين تغر المغترين بالله ويطمعونهم مع إقامتهم على ما يسخط الله، ويغضبه في عفوّه، وتجاوزّه، ويحدثونهم بالتوبة لتسكن قلوبهم ثم يدافعونهم بالتسويق حتى يهجم الأجل فيؤخذون على أسوأ أحوالهم، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَعَرَّتْكُمْ آلَآْمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٢) (٣).

والمغرور بربه يصر على عصيانه فيسيء إلى نفسه، ويظلمها حيث كان يجب أن ينفع حياته الدنيا لكسب آخرته.

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مج ٦-٧، (١١/٥١) .

(٢) سورة الحديد، آية: ١٤ .

(٣) ابن قيم الجوزية، الروح (الرياض: دار الرشد بدون تظ) ص ٢٤٥ .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾^(١).

فالمعنى التى تتضمنه الآية الكريمة هو فلينظر أحدكم أي شيء قدم لنفسه، عملاً صالحاً ينجيه أم شيئاً يوبقه، فلنتق الله من ترك أمره وإلا أنسانا حظوظ أنفسنا، بأن لم نقدم لها خيراً^(٢).

لذلك فلينظر المؤمن في خاصة نفسه، ويعمل بطاعة الله، وطاعة رسوله حتى لا ينال بمعصية الله ورسوله العاقبة السيئة، ويكون من الفاسقين عن أمر الله تعالى خارجاً عن طاعته، فهذا الغرور والعجب بالنفس لهو من سبل الشيطان يزين للعبد أن طاعته أكثر من معاصيه.

"ومن العصاة من يغتر، فيقول إن الله كريم، وإنما نتكل على عفوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم وقد قال العلماء: من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار، فهو مغرور، وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكفار في النار، مع أنه لا يضره كفرهم، وقد سلط الأمراض والمحن على خلق من عباده في الدنيا، وهو سبحانه قادر على إزالتها، ثم خوفنا من عقابه، فكيف لا نخاف؟ فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي"^(٣).

"والعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، ويستعظم صاحبها العبادات والأعمال، ويتبجح بها، ويمن على الله بفعلها ثم إذا أعجب بها نسي آفاتاها، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً،

(١) سورة الحشر، آية: ١٨-١٩.

(٢) انظر: للبيهقي، معالم التنزيل، (٣٥٦/٥)؛ ابن الجوزي، زاد المسير، (٢٢٤/٨).

(٣) ابن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص ٢٣٧.

والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها، ويمنعه ذلك من الاستشارة والسؤال، فيستبد برأيه ويكتفي به بنفسه، وربما أعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له، فيفرح بكونه من خواطره، ويصر عليها، وربما أودى به ذلك إلى الهلاك خاصة لو كان هذا الرأي يتعلق بأمر من أمور الدين، ولذلك عد العجب من المهلكات، ومن أعظم آفات العجب فتور سعي المعجب لظنه أنه قد فاز، وأنه قد استغنى، وهذا الهلاك الصريح الذي لاشبهة فيه^(١).

فالغرور والعجب بالنفس داءان متاصلان في النفس.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٢).

فالغرور من أنواع الجهل؛ لأن الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به فكل من سكن إلى هواه واعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور.

إن الحياة الدنيا غرور لمن أقبل عليها، والعجب زهو العبد بأعماله بما يكون منها حسناً أو قبيحاً، والركون والاعتماد على مآمنها حسن، ونسيان فضل المتعم عليه صاحب الفضل والإحسان سبحانه، ولنعلم أنهما يبعدان عن طلب الآخرة لوجوه:

"أحدهما: أنه لو حصل للإنسان جميع مراداته لكان غمه وهمه أزيد من سروره؛ لأجل قصير وقته، وقلة الوثوق به، وعدم علمه بأنه هل ينتفع به أم لا.

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، (٣/٣٧٠).

(٢) سورة لقمان، آية: ٣٣.



ثانيهما : أن الإنسان كلما كان وجدانه بمرادات الدنيا أكثر كان حرصه في طلبها أكثر، وكلما كان الحرص أكثر كان تألم القلب بسبب ذلك الحرص أشد، فإن الإنسان يتوهم أنه إذا فاز بمقصوده، سكنت نفسه وليس كذلك، بل يزداد طلبه، وحرصه، ورغبته.

ثالثها: أن الإنسان بقدر ما يجد من الدنيا يبقى محروما عن الآخرة التي هي أعظم السعادات والخيرات، ومتى عرفت هذه الوجوه علمت أن الدنيا متاع الغرور، وأنها كما وصفها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - قال: "لين مسها قاتل سمها" ^(١).

لذلك كان الغرور والعجب مذمومين؛ لأنهما يفضيان بالمرء لتفريط ما أمر الله به، ويظن المرء أنه ممن دخل في حب وكفاية الله، وأنه ممن يرزقه الله وينجيّه. كذلك ما لأثارهما من إلحاق الأذى بالعبد بفساد العمل وفساد الثواب للأعمال وما سيؤدي ذلك إلى الطغيان، والجرأة على الله، وفي هذا منافاة لمعنى العبودية الحقّة، فليعلم أن التوفيق للنعم وللفضائل هي من الله صاحب الفضل والإكرام.

(١) انظر: للفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مج (٥-٦)، (١٣٠-١٣١) - ومج (١٥-١٦)، (٢٣٥/٢٩).

المبحث الخامس

الهوى والشهوات

إذا تأملنا أمراض القلوب من الجهل، وضعف اليقين، وضعف الثقة بالله تعالى، والتكبر والغرور، والعجب بالنفس، وكل ما يخطر من أمراض تصيب القلب وتوهن العبادة الحققة لله، فإننا نجد أن الدافع لها هو اتباع الهوى؛ لأن الهوى "ما هو إلا ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع"^(١)، وقيل "هو ميل الطبع إلى ما يلائمه"^(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٣).

"فالهوى والشهوات متلازمان، ولكن الهوى مختص بالآراء، والاعتقادات، والشهوات مختصة بنيل المستلذات، فصارت الشهوة من نتائج الهوى، وعلى ذلك فإن الهوى أصل وهو أعم"^(٤).

إن الهوى والشهوات مرض يصيب القلب، ويوجب الفساد في القصد والإرادة، وعلى ذلك فقد استخلصت قسمين للناس فيه :

القسم الأول : ظفر الهوى والشهوات بالنفس فملكها وأهلكها وصارت طوعا لها تحت أوامرها.

والقسم الثاني : أن تظفر النفوس وترتفع عن الهوى والشهوات وتصير هواها وشهواتها على مقتضى الكتاب والسنة.

(١) الكفوى، الكليات معجم في المصطلحات والفروق الفردية، قابلة على نسخة خطية، د/عدنان درويش - محمد المصري، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي تط الثانية ١٤١٣ هـ)، (٣٤٤/٥).

(٢) ابن الجوزي، ذم الهوى، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مراجعة محمد الغزالي (القاهرة: دار الكتب الحديثة، تط ١٣٨١ هـ)، ص ١٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٧١.

(٤) الماوردي، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا (بيروت، تط ١٩٧٨ م) ص ٣٨.

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الهوى وهذه النفس الأمارة بالسوء، والرب يدعو عبده إلى خوفه، ونهى النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين يميل إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، وهنا موضع المحنة والابتلاء.

والشهوات تخون العبد وتسبب له المعاصي وتدفع لها، وتخبت بالنفس، " فإن العبد إذا وقع في شدة أو كربة، أو بلية خانته قلبه ولسانه، وجوارحه عما هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى، والإنابة إليه، والجمعية عليه، والتضرع، والتذلل، والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر، ولا ينحبس القلب واللسان على الذكر، بل إن ذكر أودعا ذكر بقلب لاه ساه غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقذ له ولم تطاوعه" (١).

قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢).

فمن رعاية الله لعبده داود ولعباده جميعا أنه نبه للنهاية البعيدة التي تترتب على اتباع الهوى ونتائجه من الضلال عن سبيل الله (٣).

" إن اتباع الهوى قد يكون اختيارا، وقد يكون كرها، والنهي عن اتباعه يقتضي النهي عن جميع أنواعه، فأما الاتباع الاختياري فالحذر منه ظاهر، وأما الاتباع الاضطراري فالتخلص منه بالانسحاب عما جره إلى الإكراه..... فالهوى كناية عن الباطل، والجور، والظلم لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور،

(١) انظر: لابن القيم، الداء والدواء، تقديم محمد غازي، (جده: دار المدني، ط ١٤٠٣ هـ)، ص ١٢٣.

(٢) سورة ص، آية: ٢٦.

(٣) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣٠١٨/٥).

وبين هوى النفوس، فإن العدل والإنصاف ثقيل على النفوس فلاتهواه غالباً، ومن صارت له محبة الحق سجية فقد أوتي العلم والحكمة وأيد بالحفظ أو العصمة^(١).

قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١) فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾^(٢).

فإنه تعالى أنزل الحق متواصلاً بعضه أثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة أو متتابعاً وعدا ووعيدا، وقصصا، وعبرا، ومواعظ ونصائح لذلك فيجب الاحتراز عن اتباع الهوى والانهماك فيه فمن كان كذلك فهو أضل من كل ضال^(٣).

قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ (٤).

إن اتباع الهوى لظلم للنفس فإنه تعالى يرشد للحق، وينبه على أن من اتبع أهواءه الزائفة، فهو واضع للشيء في غير موضعه، وهو بذلك معرض نفسه للعذاب الخالد، فالكل مفتقر إلى الله تعالى فلا بد من إنابته، وتوكله ولا نشرك معه أحدا أبدا^(٥).

فالحق سبحانه هو الهدى، وغيره ومايدعوه إليه من الآراء والأقوال إنما هو هوى؛ لأنه قادم من أقوالهم التي لا تمت بالدين المعلوم صحته بالدلائل القاطعة، فكل من لا ذى إلى الحق فلقد لجأ إلى المعين سبحانه وتعالى يعصم الناس إذا قاموا بالطاعة.

ويحذر تعالى عن متابعة الهوى والشهوات استعظاما لصدور الذنب من تلك الأهواء الزائفة المضلة، ويؤكد ويبالغ في التحذير سبحانه وقد كانت منه حكمته

(١) انظر: لابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٢-٢٣-٢٤٤/٢١).

(٢) سورة القصص، آية: ٤٩ - ٥٠.

(٣) انظر: للألوسي، روح المعاني، مج (١٩-٢٠/٩٢).

(٤) سورة الروم، آية: ٢٩.

(٥) انظر: المصدر السابق، مج (٢١-٢٢/٣٨).

تعالى في إرسال الرسل بعضهم إثر بعض حتى لا يطول الإنذار فتفسد القلوب وتنسى الشرائع، وتقوم الأمم على تحريف، وتأويل تلك الشرائع على حسب أهوائهم، وتبعا لشهواتهم، فقد وعد تعالى اتباع الهوى والشهوات بعود قاسية لتحقيرهم، وتوبيخهم فلن يكون لهم ولي ولا نصير ولا واق يقيهم عذابه، فعلى المؤمن أن يرجع إلى ربه ويثبت على حكمه وشرعه فمن أطاع هواه كان قلبه غافلا عن ذكر الله لسوء استعداده واتباع شهواته وإسرافه في ذلك غاية الإسراف، وتمادي في اجتراح الآثام، والأوزار فكانت النهاية الهلاك والعطب والخسران^(١).

هذا وقد ذم رسولنا الكريم - ﷺ - (اتباع الهوى والشهوات) (فمن أبي أمية الشعباني^(٢)، قال أتيت أبا ثعلبة الخشني^(٣) - ﷺ - فقلت له كيف تصنع في هذه الآية؟ قال آية آية؟ قلت قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾^(٤)، قال: أما والله لقد سألت عنها خبير، سألت عنها رسول الله - ﷺ - فقال: "بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحا مطاعا، وهوى مشبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخافة نفسك، ودم العوام فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم، قال

(١) انظر: لأبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٢٠٩/١)؛ المراغي، تفسيره، مج (١٦٥/١)، مجلد (١١٣/٥)؛ ولسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٣٥٤/٧).

(٢) أبي أمية الشعباني الدمشقي اسمه يحمّد، وقيل عبدالله بن أخامر، تهذيب التهذيب، (١٧/١٠).

(٣) أبو ثعلبة الخشني، اختلف في اسمه واسم أبيه اختلافا كثيرا، قيل إن اسمه جرثومه، وقيل جرهم؛ انظر: تهذيب التهذيب، (٥٣/١٠).

(٤) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

عبدالله بن المبارك^(١) وزاد في غير عتبة قبل يا رسول الله! أجر خمسين منا أو منهم؟ قال بل أجر خمسين منكم^(٢).

" فالواجب الذي يلزم العمل به هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقة لما أمره الله به معبوده جل وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلى هواه، فكونه اتخذ إلهه هواه في غاية الوضوح، فمن أضله الله فاتخذ إلهه هواه.....، فلا يكون أحد عليه وكيلا أي حفيظا يهديه، ويصرف عنه الضلال الذي قدره الله عليه؛ لأن الهدى بيد الله وحده لا بيد أحد^(٣).

وهذا ما كان من معنى في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ آتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^(٤).

فالهوى والشهوات صادان عن الحق يذهبان نور الإيمان من القلوب، ويسلبان محاسن الوجوه، ويورثان البغضة في قلوب المؤمنين، وهما مصايد هلاك، فالتوكل على الله تعالى من العبادات التي ينبغي أن يكون مبناها على الشرع والاتباع لسنة رسولنا - ﷺ -، لا على الهوى والابتداع والشهوات، فالإسلام مبني على أصليين أساسيين :

أولهما: عبادة الله وحده لا شريك له .

ثانيهما: نعبد على ما جاء من شرع رسوله - ﷺ - .

(١) عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي، مولا هم أبو عبد الرحمن المروزي، ولد

١١٨هـ، وتوفي ١٥١هـ. انظر: تهذيب التهذيب، (٤/٤٥٧).

(٢) الترمذي (٣٠٥٨) واللفظ له، وقال حسن غريب؛ وأبوداود (٤٣٤١)؛ وابن ماجه

(٤٠١٤)؛ والبخاري في شرح السنة (٣٤٨/١٤) وقال محققه للحديث شواهد فيتنقوى بها.

(٣) انظر: للشنقيطي، أضواء البيان، (بيروت: عالم الكتب بدون تط) (٣٣٠/٦).

(٤) سورة الفرقان، آية: ٤٣ .

فنعلم من ذلك أن جميع المعاصي تنشأ من ترك الأصليين، وتقديم هوى النفس، وتخبط الشيطان، فينبغي على المرء المؤمن اللجوء إلى الله تعالى في دفع ذلك عن القلب، وماسمي الهوى هوى إلا لأنه يهوي بصاحبه إلى قعر جهنم، ولكن التأسى بصفات السابقين الأولين رضي الله عنهم وأرضاهم، ومحاولة تتبع ما حذروا منه، والسير على منهاجهم والتمسك بما جاءوا به، وتمسكوا به من حق، فقد اقتضت سنة الله تعالى في أن يبذل العبد لكل شيء ما يناسبه، فللدنيا سعي، وللآخرة سعي وللفضائل سعي، وللرذائل سعي.

إن جميع العوائق، والحواجز السابقة المذكورة وغير المذكورة لا يمكن علاجها إلا بمجاهدة النفس والاستعانة بالله تعالى والإنابة إليه، والتعود على تركها فهداية الإنسان ممكنة إذا كفر بعقله وآمن بشهوته وعبد هواه^(١).

(١) انظر: للجزائري، أيسر التفاسير (المدينة: مكتبة العلوم والحكم نط الثالثة، ١٤١٨هـ) (٦١٨/٤).



الفصل السادس

ثمرات التوكل على الله

وفيه :

تمهيد .

المبحث الأول: تحقيق الإيمان .

المبحث الثاني: السكينة والثبات .

المبحث الثالث: الأمل والرجاء .

المبحث الرابع: محبة الله تعالى ودخول الجنة بغير حساب .

المبحث الخامس: الرضا والصبر .

المبحث السادس: العزة والقوة .

المبحث السابع: يقي من تسلط الشيطان والسحر والحسد والعين .

المبحث الثامن: كشف الهم والكرب .

المبحث التاسع: يورث الرزق ويجلب المنافع ويدفع المضار .

المبحث العاشر: الدخول في كنف وكفاية الله .

المبحث الحادي عشر: الفوز والغلبة .

المبحث الثاني عشر: التسليم للقضاء والقدر .

الفصل السادس

ثمرات التوكل على الله

التمهيد :

إن القرآن الكريم كتاب الله للعالمين لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تعهد سبحانه بالحفظ إلى يوم القيامة .

كتاب نزل تشريعا، ونزل بليغا، ونزل منهاجا، ونزل لترسيخ عقائد وسلوك،
تقوم هذه العقائد بالمرء إلى السمو والتعالى، فالهدف الأسمى منه هو توحيد العبادة
لله وإخلاصها له، وسلامة القصد والعمل من الانحراف عن جادة الحق في عبادة الله
أو معاملة المخلوقين، وبهذا نصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ونيل الثواب
والمكرمات.

قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِىْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾^(١).

فكل عمل أمرنا به الله عز وجل هو تمجيد له سبحانه؛ ولأن العمل يكمل به
الإيمان ويدل على وجود الإيمان، يقول الرسول -ﷺ- في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-
"أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا"^(٢).

فالقرآن والإسلام يقيمان أخلاقا على أسس روحية ضرورية لبناء صرح
أخلاقي ثابت، فالعمل الصالح، وكذلك الخلق الحسن هو الثمرة المباركة للإيمان،
ونور الإيمان يضيء للمؤمن طريقه، وبنور الإيمان يجد المؤمن نفسه في سكينة

(١) سورة النحل، آية: ٩٧ .

(٢) الترمذي (١١٦٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ وأبو داود (٤٦٨٢)؛ وأحمد (٥٢٧/٢)؛
والبيهقي في الشعب (٢٦/١) وقال مخرجه: إسناده عنده حسن؛ والحاكم في مستدركه
(٣/١)، وسكت عنه، وقال الذهبي: صحيح؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٢٨٤).

وثبات، وأمل ورجاء، وفي رضا وصبر، لما قدر وكتب الله، ويكون بنور الإيمان في عزة وقوة ومامن مؤمن يُقبل على الإيمان إقبالاً صادقاً باتباع الأوامر، واجتناب النواهي إلا وكان له من الجزاء الغنى والكفاية، وكشف الهم والفوز والغلبة فهذه الجزاءات، وهذه الثمرات "مكافأة من الله تعالى على فعل المؤمن"^(١) في توكله على ربه، فهذه الثمرات دافع قوي لتقوية الثقة واللجوء والاستعانة والإنابة إلى الله تعالى، والاعتماد عليه في كل أمر من الأمور الدينية، والدنيوية، والرضا بقضائه وقدره خيره وشره.

والتوكل على الله عز وجل يكون في استجلاب المنافع، ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة وقد جعل الله عز وجل لكل عمل من أعمال البر ومقام من مقاماته جزاء معلوماً، وجعل كفايته جزاء المتوكل عليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٢).

فلنتأمل هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وما هذا إلا دليل على أن التوكل على الله من أقوى السبل عنده وأحبها إليه فكل شجرة لها ثمار، ومن ثمار التوكل على الله عز وجل مايلي هذا التمهيد الوجيز .

(١) انظر: للكفوي، الكليات، (١٧٨/٢)؛ والأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص ٩١؛

وللفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ١٦٤٠.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٣ .

المبحث الأول

تحقيق الإيمان

إن أول ما يجب على الإنسان أن يكون موقفا من قلبه بوجود الله تعالى، ويجب عليه أن يعرف أسماء الله وصفاته سبحانه حتى يمسك نفسه عن الخروج عن أمره سبحانه، ويعمل على طاعته ولا يكون ذلك إلا بالعلم المتمكن من أعماق القلب ليأمن قلبه، وحياته من العمل المخالف لله ولرسوله ﷺ.

والتوكل على الله من أعلى مقامات الإيمان، حيث لا إيمان إلا بالتوكل على الله وقد تقدم سابقا أن من فضل التوكل على الله أن ربطه سبحانه بالتوحيد، فصلة الإيمان بالتوكل كصلة البذرة بالشجرة، قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

فمن هذه الآية ظهر لنا التلازم بين الإيمان والتوكل على الله.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾^(٣) فقالوا على الله تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٤).

وفي هذه الآية كان التوكل على الله شرطا لتحقيق الإسلام.

(١) سورة آل عمران، آية ١٢٢.

(٢) سورة المائدة، آية ٢٣.

(٣) سورة يونس، الآية ٨٤-٨٥.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).
 وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا
 فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢).
 وعلى هذا فالتوكل على الله أصل جامع تنفرع عنه العبادات والأفعال، وهو
 خلاصة ونهاية تحقيق التوحيد وهو أحد مباني توحيد الألوهية وهو وجه كمال إيمان
 المؤمنين^(٣).

(١) سورة التغابن، آية ١٣.

(٢) سورة الملك، آية ٢٩.

(٣) انظر: لسليمان ابن عبدالوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، (المكتب
 الإسلامي، ط الرابعة) ص ١١٠.

المبحث الثاني

السكينة والثبات

إن التوكل على الله من شجر الإيمان الراسخ الذي ترسخ جذوره في قلب المؤمن، ويتمكن منه، ويثمر ثماراً يانعة، ويعطي الظلال الباردة، ومن ثمراته السكينة والطمأنينة والثبات، فصاحبها يتعاهدها باستمرار، ويلاحظ نموها باستمرار، ويجني من ثمارها، مايجني في النفس والحياة الاجتماعية "فالسكينة هي مايجده القلب من الطمأنينة عند تنزل الغيب، وهي نور في القلب يسكن إليه شاهده ويطمئن، وهي زوال للرعب، وهي آمنة تسكن عندها القلوب"^(١).

فالسكينة من خلال تعريفها السابق هي من لطائف صنع الحق، فإذا نزلت على القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح وخشعت، واكتسبت الوقار، وانطقت اللسان بالصواب والحكمة، ويكون صاحبها إلى الله راغباً، ويكون بين يدي الله ربه متجرداً من الأهواء، فهذه السكينة متضمنة النور، والقوة والروح، فالروح حياة القلب، وبالنور يميز بين الحق والباطل، وبالقوة توجب له الصدق، وضبط النفس، ويزداد بذلك إيماناً مع إيمانه^(٢).

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾^(٣).

مباشرة السكينة القلب تثبته وتلهمه العزم، والإرادة، والاتباع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال، وبهذا يحصل اليقين، والرضى بكل ما قسم الله تعالى له من النصر والظفر.

(١) انظر: للجرجاني، التعريفات، حققه إبراهيم الإبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي تط الرابعة ١٤١٨هـ)، ص ١٢٥؛ وللمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، حققه عبد الحميد حمدان، (القاهرة تط ١٤١٠هـ)، ص ١٩٦؛ وللكفوي، الكليات، (٤٧/٣)؛ وللأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٤٣؛ وللفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ١٥٥٦.

(٢) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٥٢٧/٢-٥٢٩).

(٣) سورة الفتح، آية: ٤.

فالعبد حينما يرضى ويعلم أن ما قسم له من الله خالقه يفوض أمره إلى الله ويطمئن لما قسم له من نصر وظفر فإذا توكل العبد على الله حق توكله أنزل عليه السكينة والثبات.

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَم مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

فهذا بيان من الله تعالى بأن من استيقن ملاقاته هو من يثبت ويسارع إلى الجهاد، وبقضائه وقدره سبحانه ينصر ويقوي قلوب المؤمنين، فهذه التجربة تكمن في ثناياها العبر ومن العبر أن القلب الذي يتصل بالله في جميع أموره تتغير موازينه وتصوراته لأنه يرى بعين الله تعالى، فالقلب تحقق له الإيمان الصحيح، والاطمئنان والسكينة إلى قدر الله والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع فالمقدر كائن والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف^(٢).

فلا يسكن إنسان بكثرة عداده، وعدته فإن النصر بيده ومن عنده وليس بكثرة العدد وشدة البطش، ولنا في معارك رسول الله ﷺ - الدروس والعبر.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(٣) ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلِقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(٤).

دارت المعركة بأمر الله ومشينته، أقبل المؤمنون على المعركة بكل عزم وقوة ولكن في النفس شيء من الخوف فهم قلة مستضعفة ورسول الأمة يستقبل القبلة وعليه رداؤه وإزاره يقول: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تملك هذه العصاة من أهل الإسلام، فلا تعبد

(١) سورة البقرة، آية: ٢٤٩.

(٢) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (١/٣٤٨-٣٤٩).

(٣) سورة الأنفال، آية: ١١-١٢.

ففي الأرض أبدا"، فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾^(١)، لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه فإذا بالنعاس يغشاهم، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم والطمأنينة مددا من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر، وهكذا مضت الأحداث والنصر لاحت بشائره وتم بحمد الله^(٢).

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾^(٣) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ^(٤).

إن معركة حنين من المعارك المهمة التي محص الله بها قلوب المؤمنين، "تمهدت الأمور وأسلم عامة أهل مكة، وأطلقهم رسول الله -ﷺ- فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جشم، وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال، وهم قليل وناس من بني عمرو، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم، جاءوا بقضهم، وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله -ﷺ- في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وقبائل العرب ومعه الذين اسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له (حنين) فكانت فيه الواقعة في أول النهار في غلس الصبح،

(١) سورة الأنفال، آية: ٩ .

(٢) انظر: للبخاري، معالم التنزيل، (٦٠٤/٢)؛ ولسيد قطب، الظلال، (١٤٨٤/٣).

(٣) سورة التوبة، آية: ٢٥-٢٦ .

انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن فلما توجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم أميرهم، فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين وثبت رسول الله وهو راكب بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبدالمطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلائها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول إلى عباد الله إلي أنا رسول الله، ويقول في تلك الحال: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب" وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال ثمانون، فمنهم أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما، والعباس، وعلي والفضل بن عباس، وأبوسفيان بن الحارث، وأيمن ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم، ثم أمر رسول الله - ﷺ - عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب السمرة، ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون يالبيك يالبيك، وانعطف الناس فترجعوا إلى رسول الله - ﷺ - حتى أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع لبس درعه، ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله - ﷺ - أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد مادعا ربه واستنصره وقال: "اللهم أنجز لي ما وعدتني" ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان إلا وأصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وماتراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله - ﷺ - (١).

فهذه المشاهد العظيمة فيها عبر ودروس مستفادة .

" فأولا: نصر الله تعالى المؤمنين، وأنزل عليهم الآمنة والطمأنينة حال النصر وحال الهزيمة.

(١) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢، ص ٥٣٧-٥٣٨) .

ثانياً: الإعجاب بالكثرة، والغفلة عن سبب النصر، سببان في الهزيمة في أول المعركة.

ثالثاً: حكمة الله تعالى في الهزيمة أولاً، ثم الخروج من المعركة بالنصر الحاسم المجلب.

رابعاً: شجاعة الرسول - ﷺ - تجلت في وسط المعركة، وخوضه المعركة مع أصحابه وهو متوكل على ربه يدعو ويلح في الدعاء " **اللهم أنجز لي ما وعدتني** "، فهذه مقولة الصادق الصدوق.

خامساً: الرسول الكريم وقد انكشف عنه جيشه وهو على بغلته وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه وما هذا إلا ثقة في الله وتوكلاً عليه، وعلماً به أنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهره.

فإن الله تعالى أنزل السكينة ليثبت القلوب الطائرة القلقة ويهدي الانفعالات الثائرة^(١).

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

المؤمن حريص على لقاء العدو كثيره أو قليله لنيل النصر أو الشهادة، والله تعالى بوعدة الذي لا يخلفه يمدهم بالثبات، وهذا من عوامل النصر الحقيقية، وهو بدء الطريق إلى النصر، فاثبت الفريقين أغلبهما، ولكن ما ترجوه الفئة المؤمنة غير ما ترجوه الفئة الأخرى وليعلم من ذلك المؤمنين أن الكثرة لا تنفع وأن الذي أوجب النصر هو الله سبحانه وتعالى، والسكينة المنزلة على قلوب المؤمنين، توجب الأمن

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (١٦١٦/٣).

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٥ .

والطمأنينة، فالإنسان إذا خاف غرو فؤاده تحرك، وإذا آمن سكن، وثبت، فالآمن موجب للسكون، كناية عن الأمن^(١).

فالسكينة الحقيقية ما يجعلها الله وقت المفزعات خاصة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد حينما تقوى الصلة بين العبد وربّه، ويعلم أن غيره لن ينفعه، ولن يضره، فها هي الكثرة لم تغن عنهم شيئاً بل أصابتهم بالهم، والغم على رحبها، وسعتها، فيوم حنين هزموا بالكثرة، ونصروا بقوة الله تعالى "فإن التجرد لله، وتوثيق الصلة به هي عدة النصر التي لا تخذل المؤمنين حين تخذلهم الكثرة في العدد والعتاد، وحين يخذلهم المال، والافخوان، والأولاد، فأنزل الله تعالى ذلك الرداء رداء السكينة فألبسها قلوب المؤمنين؛ ليثبت القلوب، ويهدئها، فلايتهاون امرؤ في توثيق صلته بالله تعالى، فمن عجب بنفسه وماله كان له من العقبات الكبيرة في سبيل النجاح، والظفر، وليعلم كل مؤمن فضل الله تعالى عليه وإكرامه"^(٢).

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣).

إن خروجه -ﷺ- هي من بشائر النصر فقد خرج من مكة بأمر من ربه سبحانه فأنزل الله السكينة والطمأنينة عليهما، والتأييد، والصون لرسولنا الكريم -ﷺ-، فالمتتبع لسيرة الرسول -ﷺ- يعلم من خلالها يقيناً أنه أشد الناس؛ لأنه سيد

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (١٦/٨-٢٣)؛ ولابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٣٩/٢)؛

ولابن الجوزي، زاد المسير، (٤١٦/٣)؛ وللطبري، جامع البيان، (٩٦/٤).

(٢) انظر: لسيد قطب، الظلال، (١٦١٨-١٦١٩)؛ للجزائري، أيسر التفاسير، (٣٥٥/٢).

(٣) سورة التوبة، آية: ٤٠.

أولي العزم من الرسل وأشجعهم فحصار بيته في مكة، وخروجه منها بيان من الله لنصرة رسوله وبداية وتبشير للنصر، فالله تعالى مؤيد رسوله وكافيه وصحبه، فأنزل السكينة والطمأنينة وبهما سكنت النفس، واطمأنت وذهب الخوف" (١).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٦).

(١) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٥٥٩)؛ وللطبري، جامع البيان، ج ٤، ص ١١؛ ولوهبه الزحيلي، التفسير المنير، (٩-١٠/٢١٨).

(٢) سورة الفتح، آية: ٤.

(٣) سورة الفتح، آية: ١٨.

(٤) سورة الفتح، آية: ٢٦.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٤٨.

(٦) سورة التوبة، آية: ٢٦.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

فهذه الآيات الكريمة السابقة التي ذكرت لفظ (السكينة) قال فيها "ابن القيم"^(٢) كان شيخ الإسلام ابن تيمية^(٣) - رحمه الله تعالى - إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة، وسمعتة يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه لما اشتد علي الأمر قلت لأقاربي ومن حولي، اقرأوا آيات السكينة، قال: ثم ألق عني ذلك الحال وجلست

وما يبي قلبية^(٤) ذكرت السكينة هي بيان بمكافأة الله لرسوله والمؤمنين وذلك باليقين والثبات للقلوب المتوكلية على ربها وهي تشعر بالأمن والسكينة والثبات إذا اضطرب، وقلقوا، ويئسوا، وسخطوا الناس.

فحالة السكينة والثبات أشبه بعبد هرب إلى مخبأ يأوي إليه مليء بالذخيرة من فقر إلى الله ولجوء، وإنابة، وتوكلا وإستعانة، ويقين يملأ النفس ظاهرا وباطنا.

فهذه السكينة الربانية ماهي إلا تهدئة الفورة، وتخفيف الحمية، واطمئنان القلب لحكم الله، وحكمة رسوله - ﷺ - في المهادنة، والملاينة وعن رضى الله عن المبايعين تحت الشجرة، وهذه السكينة ماهي إلا الطمأنينة، والراحة واليقين، والثقة، والوقار، والثبات والاستسلام، والرضى، فهذه جميعها انفعالات تجول في النفس المؤمنة المطمئنة الوقورة الهادئة التي تليق بالمؤمن، وتلازم قلبه المؤمن الموصول

(١) سورة التوبة، آية: ٤٠ .

(٢) سبق تترجمته، ص ١٥٩ .

(٣) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، تقي الدين، أبو العباس، توفي سنة ٧٢٨هـ .

انظر: البدر الطالع، (١/٦٣).

(٤) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٢/٥٢٥) .

بربه الساكن بهذه الصلة، المطمئن لما فيه من ثقة، المراقب لربه في كل خالجة، وكل حركة، فلا يتبطر، ولا يطغى، ولا يغضب لذاته إنما يغضب لربه ودينه، فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وخنع وأطاع في رضى وسكينة^(١).

فالله تعالى علم من المؤمنين الصدق، والوفاء، والسمع، والطاعة بعدما ألزمهم كلمة لا إله إلا الله فأنزل عليهم الطمأنينة، وأثابهم الفتح الذي أجراه سبحانه على أيديهم من الصلح، وما حصل بعد من الخير الجزيل المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العزة والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة^(٢).

لقد أوجد الله تعالى وخلق السكينة لتقوية معنويات المؤمنين، فالحرب تظهر عزائم المؤمنين، وقوة إيمانهم، فقد انهزم المسلمون يوم أحد، وقتل من قتل منهم، وتقهر من تقهر، وثبت من ثبت، وقد مدح الله تعالى من ثبت، وصابر، وصبر فهو لاء لم يضعفوا، ولم يستكينوا لما أصابهم فأثابهم الله تعالى بالنصر والظفر والتمكين، وجمع لهم ذلك.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

إن طاعة الرحمن تتطلب وتقضي إيماننا راسخا كالجبال الراسيات فامتنال الأوامر فيه الخير الوفير إن عاجلا أو آجلا في الدنيا والآخرة معا.

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/٣٣١٧-٣٣٢٩).

(٢) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/٢٩٣-٢٩٨)؛ وللرازي مفاتيح الغيب، (١٤-١٥/٨٠-١٠٠)؛ ابن الجوزي، زاد المسير، (٧/٤٢٤-٤٤١).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤٦-١٤٧.

فالسكينة والثبات من ثمرات التوكل على الله فهما من علامات اليقين والثقة
برب العالمين، ودليل كمال الإيمان وحسن التوكل، ويفضيان إلى الرضا بما قسم الله
وهما من صفات العلماء والأولياء ومن كان على أثرهم سيكون في زمرتهم
وصحبتهم.

فديدن أصحاب رسول الله - ﷺ - في السابق واللاحق وبين الحينة والحين
يذكرنا الله تعالى ويذكر المؤمنين، بما أمتن عليهم من فضله في يوم بدر فقد كان
النعاس أمانا لهم، آمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم فقد ربط تعالى على قلوب
المؤمنين بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وتثبيت الأقدام من الفرار ومعية الله
بالإعانة والنصر والتأييد، فهذه القوة الإيمانية، والتعلق بحبل الله، والتوكل عليه فهو
سبحانه الرافع المعز الناصر فكل من عمل بأمره سبحانه ورسوله، وترك مانهاه عنه
ورسوله سيكافأ بما هو أهل له، فكل من زاد إيمانه زاد تصديقه ويقينه، وسكينته
وثباته وكان جزاؤه الجنة.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ۖ ﴾^(١).

(١) سورة النساء، آية: ٦٦ .

المبحث الثالث

الأمل والرجاء

المؤمنون ليسوا على درجة واحدة في معرفة أسماء وصفات الله تعالى كما أشرنا إلى ذلك؛ ولهذا تتفاوت درجات إيمانهم؛ ولذلك فإن المؤمنين المهتدين يؤمنون بأسماء الله وصفاته فيدعون الله بأسمائه، ويصفونه بصفاته غير مشبهين صفاته بصفات المخلوقين، ولامؤولين، ولامعطلين، مع الاعتقاد الجازم بأن الله ليس كمثله شيء، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

والقرآن العظيم عرض كثيرا من صفات أهل الإيمان، وتحدثت آياته عن أهمها، ودعت المؤمنين للاتصاف بها حتى يعيشوا حياة إيمانية مباركة، والإيمان والعمل بها يكسب صاحبها نفعا عاما مجزيا ويمنحه مكاسب ضخمة، وأرباحا في الدنيا والآخرة.

إن الإيمان والعمل بالتوكل الصحيح ينفع صاحبه نفعا ملحوظا في عالم الفضائل والقيم والأخلاق وفي عالم السعي والحركة والعمل والحياة... فمن هذه المكاسب والثمرات الأمل والرجاء، والرجاء المقصود هنا بمعنى "الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه، وقيل هو النظر إلى سعة رحمة الله"^(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣). فالرجاء تغلغل في قلوبهم بعد توكلهم على الله وملاهم الأمل في النجاة.

إن المؤمنين المهاجرين "فارقوا أوطانهم وعشائرهم ويطمعون في ثواب الله فهموا يتوقعونه، ويرجونه، والله تعالى يحقق لهم رجاءهم

(١) سورة الشورى، آية: ١١.

(٢) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، (٣٧/٢).

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١٨.

إذا ماتوا على الإيمان والعمل الصالح^(١).

فالمؤمنون المهاجرون المجاهدون صدقوا الله ورسوله، وفارقوا الأهل والأوطان وتركوا مساكنة المشركين في ديارهم، وكرهوا سلطان المشركين، فهاجروا توكلوا على الله وخوفاً من الفتنة في الدين، ولإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وحاربوا في سبيل الله، ولحقوا بالنبي - ﷺ - ، فأولئك يطمعون في رحمة الله وأولئك هم الكامل، فالله يجازيهم أحسن الجزاء؛ لأنهم قد استقرغوا مافي وسعهم، وبذلوا غاية جهدهم، ولم يدخروا وسيلة فيها مرضاة لربهم إلا وفعلوها، فحق لهم أن ينالوا الفوز والفلاح والسعادة، والله تعالى واسع المغفرة للتائبين المستغفرين، عظيم بالمؤمنين يحقق لهم رجاءهم إن شاء بعميم فضله وعظيم طولته، قال قتادة^(٢): "هؤلاء خيار هذه الأمة، قد جعلهم الله أهل رجاء، ومن رجا طلب، ومن خاف هرب^(٣)."

فهذه الهجرة العظيمة في أسبابها العظيمة وفي نتائجها أصحابها رضي الله عنهم منعوتون بنعوت جليلة لهم ما يرجونه من الفوز المتفضل به الله تعالى عليهم^(٤).

"فكل من هاجر فراراً بدينه لإقامته نال من الله تعالى رجاءه وأمله وذلك؛ لأنه خرج مهاجراً مؤمناً مجاهداً فاجتماع الأوصاف الثلاثة كفيلة بإذن الله تعالى لحصول، وترقب الخير، وكذلك تغليب ظن حصوله، فإن وعد الله وإن كان لا يخلف فضلاً منه وصدقاً، ولكن الخواتم مجهولة ومصادفة العمل المراد لله قد تفوت لموانع لا يديرها المكلف ولنلا يتكل في الاعتماد على العمل"^(٥).

- (١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (٤١/٦-٤٢).
- (٢) أبو طالب، قتادة ابن دعامة السدوسي الأكمه، توفي سنة ١١٧هـ؛ انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٢٦٩/٥).
- (٣) انظر: للمراغي، تفسيره، (١٣٧/١).
- (٤) انظر: لأبوالسعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٢٥٥/١).
- (٥) انظر: لابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٣٧/٢-٣٣٨).

فالمؤمن دفعه أمله ورجاؤه بالله تعالى إلى خوض المعارك، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(١).

فالآية تتضمن معنى واضح ألا وهو "لا تضعفوا في طلب القوم، ولا تتوجعوا فإنكم إن تكونوا تتوجعون فإنهم يتوجعون كما تتوجعون، ويرجون من الأجر والثواب ما لا يرجون"^(٢).

وفي هذه اللحظة تتداخل المشاعر في القلوب ويحتاج القلب إلى زاد فيأتي التوكل على الله فيشع ويعلو القلوب بالأمل والرجاء في الله تعالى فيترقب المؤمنون ويتجهون لله تعالى فينهى الله المؤمنين عن الضعف والتوجع؛ لأن المشركين بالمقابل يتوجعون ويريدون إنزال الهزيمة بالمؤمنين مع تألمهم، ويرجون النصر، والمؤمنون كذلك يرجونه، فالله تعالى هنا يشد همم المؤمنين بتشجيعهم على مواصلة الجهاد، والجلد، والصبر على مقاتلة العدو، والله تعالى عليم بالأحوال التي صاروا إليها، والظروف الملائمة، ولكنه سبحانه حكيم في شرعه بالأمر والنهي يطمئنهم على حسن العاقبة لهم بالنصر على أعدائهم.

فمن هنا نرى أن العمل مشترك بين المؤمن، والكافر فالكل يعمل ويرجو ويأمل، ولكن المؤمن يبتغي بعمله وجه الله، والكافر يبتغي بعمله الدنيا والرياء والسمعة.

إن حصول الألم قدر مشترك بين الفئتين، فلما لم يصر خوف الألم مانعا للفئة الباغية الكافرة من قتالكم، فكيف يصير مانعا للفئة المؤمنة عن قتالهم، فالله تعالى يزيد في تقرير الحجة ويعلم المؤمنين بأولوياتهم بالمصابرة على القتال من المشركين؛ لأن المؤمنين مقرون بالثواب والعقاب والحشر والنشر، والمشركين لا يقرون بذلك، فإذا كانوا مع إنكارهم الحشر والنشر يجدون في القتال، فالمؤمنون

(١) سورة النساء، آية: ١٠٤.

(٢) انظر: للسيوطي عن قتادة، الدر المنثور، (٦٦٨/٢) ... وما بعدها.

مع ذلك أولى بأن يكونوا مجدين في هذا الجهاد الذي في فعله الثواب العظيم، وفي تركه العقاب وهذا المراد من قوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ والله تعالى لا يكلف المؤمنين شيئا، ولا يأمرهم ولا ينهاهم إلا بما هو سبب لصالح الدنيا والدين^(١).

" بهذا التصوير يفترق طريقان، ويبرز منهجان، ويصغر كل ألم، وتهون كل مشقة، ولا يبقى مجال للشعور بالضنى، وبالكلال ... فالآخرون كذلك يألمون، ولكنهم يرجون من الله ما لا يرجون، فالمؤمنون يتحملون الألم وليسوا وحدهم الذين يتحملونه ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء، فالمؤمنون يتوجهون إلى الله بجهادهم ويرتقبون، ويألمون عنده جزائهم، والكفار ضائعون لا يرتقبون، ولا يألمون شيئا، وإن مرت على الجماعة المؤمنة فترة من المهاتفات النفسية اليائسة، ولكن القاعدة لا تتغير فالباطل لا يكون بعافية أبدا، حتى ولو كان غالبا فإنه يلاقي الآلام من داخله، ولكن العزاء العميق للجماعة المؤمنة هو {وترجون من الله ما لا يرجون} وهذا هو مفرق الطريق"^(٢).

" إن المؤمنين المخلصين يعلمون أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى مفر الأنهار، ومساقى الماء إليها"^(٣).

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤).

(١) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج (١١-١٢/٣١-٣٢).

(٢) انظر: لسيد قطب، (٧٣٩/٢-٧٥٠).

(٣) انظر: للمقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص ٢٩٧.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٥.

فالمعنى " من كان يطمع في ثواب الله فإن وعد الله من الثواب والعقاب لكائن، فمن يخشى الله أو يأمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم" ^(١) الذي يكون فيه الله تعالى غني عن جميع خلقه، له الملك والخلق والأمر.

" فهذه بشارة من الله تعالى لكل محب مشتاق لقرب ربه، ولقائه، المسارع في مرضاته، ليبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل ما هو آت، قريب. فينبغي التزود للقاء الله، والسير نحوه، مستصحبين الرجاء، ومؤملين الوصول إليه، ولنعلم أن ماكل ماتدعوا به سيعطى لنا، ولا كل ماتتمناه، ولكن نؤمن أن الله تعالى مع الصادق يعطيه مايرجو، والكاذب لاتنفع دعواه" ^(٢).

إن المؤمن الحق هو الصادق، وهو من يتأمل الخير، وينتظر وقوعه من شدة قرب به بالله وإحساسه بسعة رحمة الله، والاستبشار بجود وفضل الله تعالى.

فيعمل العبد ويقرن أعماله بالتوكل على الله ويسعى لمرضاة ربه ومرضاة رسوله، فعمل الإنسان وعبادته لاتكفي لحصول النتائج بل الله صاحب القدرة والمشينة في كل الأمور ولكن مع هذا يظل العبد المؤمن يتوكل على الله وحده لتحقيق المراد والمصاير وقبول الأمر بأمل ورجاء في الله تعالى .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۖ لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٦٥﴾ ^(٣).

" الآية خاصة فيمن قرأ القرآن وأقام الصلاة فهي آية القراء العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه، الذين يقيمون صلاة الفرض والنفل،

(١) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (٣٦٥/٤).

(٢) انظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن...، (٤٦/٤).

(٣) سورة فاطر، آية: ٢٩-٣٠.

وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية هؤلاء هم الذين يبتغون تحصيل الثواب من الله على طاعتهم^(١).

الآية خاصة ولكنها من الخاص الذي يطلق على العام بمعنى تلاوته عن تدبر وإدراك وتأثر وإلى عمل وسلوك، فالمؤمن هو من يقيم أعماله جميعها بكمال شرائطها ويطلبون بها وجه الله حتى يوفيههم سبحانه ثواب ما عمله، ويضاعف له بزيادات لم تخطر له، غفور للذنوب، شكور للطاعة، وللقليل من الأعمال.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾^(٢).

الآية تصف وتصور قلب المؤمن الخائف الوجل الذي يذكر الله ولا ينساه في السراء ولا في الضراء، الذي يعيش حياته في الأرض وفي حذر من الآخرة، وفي تطلع إلى رحمة ربه، وفضله فالمؤمن يتقي ويحسن العمل، ويبذل الطاقة في العمل، وبهذا فهو لا يستوي مع من لا يعمل ولا يحسن.

فالآية تدل على المطيع لله ورسوله، وفي نفس الوقت يحذر عذاب الآخرة، ويسأل الله تعالى أن يقيه منه، ويرجو رحمة ربه، ويأتي على محاب الله تقربا إليه، وعلى ترك مكارهه تحسبا إليه فهذا لا يستوي مع الذي يعمل ما يحب وما يكره فهو يتخبط في الضلال تخبط الجاهل^(٣).

والآية مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، فهذه من الأمور التي تقرر في العقول، تباينها، وعلم يقينا تفاوتها، فالعامل بطاعة الله يؤثر العمل الأعلى على الأدنى، ويؤثر العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته؛ لأن له عقلا يرشده للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له، ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه^(٤).

(١) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (٥٢٥/٤).

(٢) سورة الزمر، آية: ٩.

(٣) انظر: للطبري، جامع البيان، (٣٧٣/٦).

(٤) انظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٢٩٥/٤).

كذلك الآية تدل على أن المداومة على العمل الصالح والطاعة الخاصة إذا كان بعيدا عن الرياء، وأيا كان العمل، وبأي شكل، وبأي صنف هو المعول عليه وهو الركيزة الأساسية في الأجر والثواب.

كذلك الآية "دالة على أسرار عجيبة، فأولها: أن الآية بدأت بذكر العمل. وثانيها: أن الآية ختمت بذكر العمل، أما العمل فكونه قائما قائما، والعلم فقولُه {هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} فهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هي النهاية" (١).

وقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

فهذا ماكان من أمل ورجاء يعقوب ابن إسحاق عليهما السلام؛ لأنه علم بأن الله حكيم في تدبيره خلقه وماقال كلمته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ إلا تعليلا لرجائه من الله بأن الله عليم فلا تخفى عليه مواقع ابنه المتفرقة، حكيم قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرق (٣).

فالمرء مهما طال عليه الحزن والضيق والبلاء، فليعلم أن الله سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب "فهذا يعقوب طال حزنه وبلاؤه، ومحنته فعلم أن الله سيجعل له فرجا ومخرجا فقال ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال ذلك على سبيل الأمل وحسن الظن برحمة الله (٤)، فلم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه، ولكن الأبوة الموجهة (وراءها أمل في الله أن يرد عليه ولديه بما فيهم كبيرهم الذي أقسم ألا يبرح حتى يحكم الله له وإنه لأمل عجيب في ذلك القلب الوجيع ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾

(١) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ١٣-١٤، (٢٥٠/٢٦) .

(٢) سورة يوسف، آية: ٨٣.

(٣) انظر: لابن عاشور، التحرير والتنوير، ح ١٣-١٤-١٥، (٤١/١٣).

(٤) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ٩، (١٧-١٨/١٩٦) .

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ، كلمته ذاتها يوم فقد يوسف، ولكنه في هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك ﴿أَنَّهُ هُوَ أَعْلَمُ الْخَكِيمُ..﴾ الذي يعلم حاله، ويعلم ما وراء هذه الأحداث، والامتحانات، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج، هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنه الرجاء في الله، والاتصال الوثيق به، والشعور بوجوده ورحمته، ذلك الشعور الذي يتجلى في قلوب الصفاة المختارة، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار" (١).

وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۖ﴾ (٢).

كل من يرجو ويأمل في غير الله فلن يجديه ذلك نفعا؛ لأن من تدعوه وترجوه إذا امتلك صفات القدرة ودفع الضر فهو أحق بالعبادة، وإذا كان غير ذلك، فهو لا يستحق حتى شيئا يسيرا، فالمؤمن يرجو بفعله الطاعة رحمة ربه، ويخاف بمخالفة ربه أمر عذابه.

فالآية حجة على من يعبد غير الله فإن من يعبدونهم يتنافسون على التقرب إلى الله، وعاجزون عن أن يملكوا الضر أو النفع فالواجب توجه القلوب إلى الله ومحض العبادة له (٣).

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٢٠٢٥/٤).

(٢) سورة الإسراء، آية: ٥٥-٥٧.

(٣) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ١٠ (١٩-٢٠/٢٣٤).

فالرجاء ثمرة التوكل على الله لأن في الرجاء طلب الإعانة من الله لأن حقيقة التوكل على الله اليأس مما عند غير الله والاعتماد والركون إلى الخالق المعطى سبحانه وتعالى والأعمال كلها سواء كانت قلبية أو عملية يتفرع منها التوكل على الله. فالعبادة لا تتم إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف يبتعد الإنسان عن المعاصي، وبالرجاء يكثر من الطاعات، ولنا في رسولنا -ﷺ- القدوة والأسوة الحسنة في تحليه بالأمل والرجاء والخوف من الله تعالى فكان -ﷺ- من أخوف الناس من الله وأرجاهم إلى الله وأكثرهم أملا بالله.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١).

فالرسول -ﷺ- هو الطريق العملي للتحقق من مدى الكمال الإيماني، والطريق للناسي الكامل به عليه الصلاة والسلام في أقواله، وأفعاله، وأحواله هو الرجاء^(٢).

فعلى المحبة الإيمانية بالله تعالى وبقوتها يكون الأمل والرجاء لأنهما من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من خالقه بل هما من أقوى الأسباب.

فالراجي علق رجاءه بتصرفه المحبوب والمرضي له، والعبد يسعى لتحقيق ما يرغب، والرب تبارك وتعالى يعين ويعطي^(٣).

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١ .

(٢) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٤٤٠٦/٨).

(٣) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٤٤/٢-٤٦).

" فعن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - دخل على شاب وهو في الموت فقال: "كيف تجدك؟" قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف" (١).

فلو تأملنا حالة العبد عند نزول النازلة عليه، فيدعو الله ولا يرى أثرا للإجابة فيقارب اليأس إلى قلبه، فإن كان راضيا بالأقدار فالغالب تعجيل الإصابة بالإجابة؛ لأن هذا يهزم الشيطان، وقد أشير إلى هذا في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (٢)، فينبغي لكل عاقل أن يلزم باب مولاه وسيده على كل حال، وأن يتعلق بفضله، وليجتهد في العمل ولا ينبغي لمخلوق مؤمن أن يتوكل على الله أو يتسبب، أو يتفكر إلا في طاعة الله تعالى، وامتنال لأمره، فإن ذلك سبب لمفتاح الأمل، وفتح كل مرتجى، وينبغي أن يعلم العبد المؤمن أن الله عز وجل كافيه، فلا يتعلق قلبه على الأسباب ويعول عليها فقط.

" عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي - صلى الله عليه وسلم - يوما فقال: " يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" (٣).

(١) الترمذي (٩٨٣) وقال: هذا حديث حسن غريب، وقال النووي إسناده جيد.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٤.

(٣) الترمذي (٢٥١٦) واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند (٢٨٠٤) وقال شاكر: إسناده صحيح.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١)، فالله كاف الجميع ما يهمهم في جميع أمورهم، والله تعالى يريد من عبده المؤمن تكميل مراتب العبودية من الذل، والانكسار، والتوكل، والاستعانة، والرضى، والإنابة له، والأمل والرجاء وفيهما من الانتظار والترقب لفضل الله ما يوجب التعلق بذكره والعمل على طاعته، ورضاه فالله يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله سبحانه بعد توكلهم عليه .

(١) سورة الطلاق، آية: ٣ .

المبحث الرابع

محبة الله تعالى ودخول الجنة بلا حساب

إن تحقيق التوكل على الله يحقق للمتوكل محبته سبحانه فأى منزلة هذه التي يحب الله فيها المتوكلين عليه فيقضي للعبد مايريده ويسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه فهو إمرؤ يمشي على الأرض ويحبه الله تعالى فحرى بالعبد المؤمن أن يحرص على التوكل على الله ولا يترك هذه الخلقة التي يحبها الله ويحب أهلها، وهي الصفة التي تميز المؤمنين عن غيرهم.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ١﴾.

فمحبة الله تعالى للعبد يتنافس فيها المتنافسون وهي روح الإيمان والأعمال^(١). فإذا حصلت محبة الله للعبد يصير القلب منشغلا به ومسدد الظاهر والباطن ومحبا للقاء الله، فهذه الثمرة لايقطفها إلا من بذلوا نفوسهم للوصول إلى مايرضي محبوبهم وذلك بالإخلاص واللزوم والدوام إلى الميل إلى طاعة الله ورسوله ﷺ.

وإذا أحب الله عبدا سخره لعمل الطاعات كما في الحديث القدسي "... ولا يزال عبدى يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيننه"^(٢).

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٢) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، (٦/٣-٧).

(٣) البخاري، ح(٦٥٠٢) باب في التواضع.

فعرف المؤمن الأولون ذلك فحرصوا على تحقيق هذه المحبة وعملوا في إطار ذلك فأولى بالمؤمن أن يشمر لذلك ليحوز على شرف الدنيا والآخرة.

وفي الآخرة تكون الجائزة العظيمة والفوز الكبير بدخول الجنة. قال تعالى:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٢) ﴿فَأَنقَلِبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤).

وجعل الرسول الكريم ﷺ جزاء المتوكل على ربه الجنة "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب قالوا ومن هم يارسول الله قال: "هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون" فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم قال: أنت منهم، فقام رجل فقال: ادع الله لي يارسول الله فقال سبقك بها عكاشة" (٢).

وهذا الجزاء لكمال تحقيق التوكل على الله سبحانه، ولا يستحق هذا الجزاء إلا العبد الصادق الكامل في عقيدته، وسعادة المؤمنين المتوكلين لاتعادلها سعادة عندنا يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم قد طابت أعمالهم وأقوالهم وعقائدهم.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧٣-١٧٤.

(٢) سبق تخريجه، ص ١٨١.

المبحث الخامس

الرضا والصبر

الرضا والصبر أمران متلازمان، فالرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان وهو طيب نفسي للإنسان بما يصيبه، أو يفوته مع عدم التغير.

والصبر قوة مقاومة الأحوال والآلام الحسية، والعقلية - وهو حبس النفس عن الجزع والتسخط وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش^(١).

والرضا والصبر من ثمار التوكل على الله فهما يجنبان المؤمن الأزمات النفسية والجسدية؛ لأن التوكل على الله فيه عدة، وقوة معنوية ونفسية، والإنسان تمر في حياته اليومية الكثير من المصائب، والشدائد، وخذلان المخلوقين له وإن استسلم لها المؤمن لأصبح في كآبة وضعف، وخور، وهوان، ولكن المخرج منها هو التسليم لأمر الله والرضا والصبر بما قدره الله عز وجل، فهما أمران شرعيان من أسس الإسلام، وقواعده، فالمؤمن يعمل ويكد ويلتزم عمله الصبر إلى أن يفرغ منه.

قال تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ ^(٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ^(٥٩) ^(٢).

نعم جزاء العاملين بطاعة الله والصابرين على أذى المشركين في الدنيا، غرف يثوبهما الله فيها، على ماكانوا يلقون من أذى المشركين، وعلى العمل بطاعة الله، وما يرضيه، وجهاد أعدائه، {وعلى ربهم يتوكلون} في أرزاقهم، وجهاد أعدائهم، فلا ينكلون عنهم ثقة منهم بأن الله مع كلمته، وموهن كيد الكافرين، وأن ما قسم لهم من الرزق فلن يفوتهم^(٣).

(١) انظر: للرجائي، التعريفات، ص ١١١؛ وللمناوي التوقيفات، ص ١٧٨، ٢١٢.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٥٨-٥٩.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، (٨٥/٦).

وهناك معنى آخر للآية تدل عليه وهو " أن صبرهم على عبادة الله، يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك، وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال، ويكملها، ونص على التوكل وإن كان داخلاً في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك، مأمور به، ولا يتم إلا به" (١).

فتبارك الرحمن الذي تكفل بالأرزاق لكل من القوي والعاجز، فالآية دليل على التزام الصبر حتى تمام العمل المراد على أكمل وجه.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢).

فيستلزم من الآية ابتغاء مرضاة الله في كل عمل فالمؤمن، يبيع نفسه كلها لله لا يرجو من وراء آدائه وبيعه غاية إلا مرضاة الله قال: "أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في صهيب ابن سنان الرومي حين أخذه المشركون في رهط من المؤمنين فعذبوهم، فقال لهم صهيب: إني شيخ كبير، لا يضركم أمنكم كنت أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني، ففعلوا، وكان شرط عليهم راحلة، ونفقة، فأقام بمكة ماشاء الله ثم خرج إلى المدينة فلتقاه أبوبكر وعمر في رجال، فقال له أبوبكر: ربح بيعك يا أبا يحيى، فقال له صهيب: وبيعك، فلاتتحسر، قال صهيب: ماذا لي؟ فقال: قد أنزل الله فيك، وقرأ هذه الآية" (٣).

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن...، (٦٨/٤) .

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٧.

(٣) البغوي، معالم التنزيل، (٢٦٧/١) .

فالآية الكريمة ترسم صورة نموذج من الناس، ومن النفس المؤمنة التي خرجت تاركة كل شيء وراءها طالبة، وجه ربها الكريم متوكلة عليه مستعينة به، وإذا بالشر يدفع، والخير يهبط من السماء العلية، فالمؤمن يرضى ويصبر لما قدره الله تعالى عليه من خير أو شر، فإن قدر له الشر فهو أمر على خلاف مراده ومحبته وهذا كمن يعمل ويظن أنه لم يكسب من عمله شيئاً.

وإن قدر له الخير فهو أمر جاء على مراد العبد محبته، وهذا كمن يعمل، ويحصل على مراده ومبتغاه من عمله.

فالرضا ثمرة من شجر التوكل " فمن وكل أموره إلى الله، ورضى بما يقضيه له فقد حقق التوكل، ولذلك كان الحسن^(١) والفضيل^(٢) وغيرهما يفسرون التوكل على الله بالرضا.

قال ابن أبي الدنيا^(٣): بلغني عن بعض الحكماء قال: التوكل على ثلاث درجات: أولها: ترك الشكاية. والثانية: الرضا. والثالثة: المحبة بترك الشكاية.

ودرجة الصبر والرضا سكون القلب بما قسم الله له، وهي أرفع من الأولى، والمحبة أن يكون حبه لما يصنع الله به^(٤).

فلا يعتقد المؤمن أن عمله في الدنيا هباء ولو للحظة، ولكن إن أنعمه الله تعالى وشكر وحمد فهو الخير كله، وإن قدر عليه رزقه وشكر وحمد فهو الخير كله وهذا مصداق لقول رسولنا الكريم ﷺ - في الحديث المروي (عن صهيب

(١) الحسن بن أحمد بن أبي شعيب أبو مسلم الحراني، مات سنة ٢٥٠هـ؛ أو الحسن بن خلف

ابن شاذان الواسطي، مات سنة ٢٤٦هـ، انظر: تهذيب التهذيب، (٢/٢٣٧)، ص ٢٠٤٢.

(٢) فضيل بن عبد الوهاب بن إبراهيم الغطفاني أبو محمد القناد، انظر: تهذيب التهذيب، (٦/٤١٩).

(٣) عبدالله بن محمد بن عبيد أبوبكر القرشي الأموي، صاحب التصانيف، ولد سنة ٢٠٨هـ، وتوفي سنة ٢٨١هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، (٢/٦٧٧).

(٤) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص ٤٤١.

— قال: قال رسول الله — عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له" (١).

هذا حال المؤمن الصابر المتوكل أو حال من يقدم صبره على عمله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (٢)، "فسياق الآية دليل على أن من العبادة الصبر على المحنة، وترك اليأس، والقنوط، وملازمة العمل الصالح في كل حال" (٣).

فينبغي على المؤمن أن يقدم الصبر على العمل، ويتقن العمل، ويجتهد فيه، فإن المستكثرين من الطاعات الراجين رضا الرحمن يشمروا جوارحهم راجين أن تقبل أعمالهم — على عيوبها ونقصها — خائفين أن ترد عليهم، فهؤلاء هم أحب الناس إلى الله؛ لأنهم ذهبوا ومضوا في تنفيذ أوامر الله، وفرغوا قواهم وطاقتهم، وجوارحهم لذلك، وقد أشرنا سابقاً إلى أن المؤمن يعمل وعمله يريد به رضى ربه وإلهه الذي يتضمن الرضا بمحبته وحده، والإنابة إليه والتبذل إليه، والرضا بربوبيته يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة، والثقة، والاعتماد عليه وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به من خير أو شر، كذلك الرضا برسول الأمة، وذلك الكمال لا يكون إلا بالانقياد له والتسليم بحديث يكون أولى الناس، والرضا بدين الله فلاحكم، ولا أمر ولا نهى إلا من خلال شرع الله الذي ملأ الدنيا نورا وعدلاً، وهذا لمن يعيه، ويفقهه ويعمل به.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

(١) مسلم، (٢٢٩٥/٤)، (٢٩٩٩)، كتاب الزهد والرقائق.

(٢) سورة هود، آية: ١١.

(٣) سعيد حوى، الأساس في التفسير، (٢٥٣٧/٥).

فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضَّلَ لَّمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ
وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

خرجوا تصديقا، وبقينا، وقوة، وتوكلا على الله فانصرفوا بعافية فلم يلقوا
عدوا، ولم يصبهم أذى ولا مكروه؛ لإتباعهم طاعة الله، وطاعة رسوله، فأعطاهم الله
ثواب غزو لم يغزوه ورضي عنهم^(١).

لأنهم قد ساروا إلى الغزو يقينا، وتصديقا لوعده الله، ووعد رسوله فأرضوا
الله بفعلهم، وإتباعهم رسوله إلى مادعاهم إليه، فصرف الله عدوهم عنهم، وأنعم
عليهم بنعمه الجليلة^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣).

فالذين هاجروا قومهم، وعشيرتهم، وفارقوا أوطانهم، ونصروا رسول الله -
ﷺ على أعدائه، هم الذين عملوا وسلوكوا سبيل الإيمان والعمل الصالح، فكافأهم الله
برضاه عنهم، وعنايته بهم، وإكرامه إياهم، ودفاعه أعداءهم، ورضاهم عنه إن
رضيت نفوسهم لما أعطاهم ربهم^(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ
خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿١٧٥﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣-١٧٤.

(٢) انظر: للبعوي معالم التنزيل، (١/٥٨٨).

(٣) انظر: للطبري، جامع البيان، (٢/٣٦٤).

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٥) انظر: للبعوي، معالم التنزيل، (٣/٩٩)؛ ولابن عاشور، التحرير والتنوير،

(١١/١٨-١٩).

الْأَنْتَهَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ (١)

إن رضى الله سبحانه لايتأتى إلا بعد الإيمان، والعمل الصالح، فيقبل العمل جزاء، ورضى من الله تعالى.

إن الإيمان ليس مجرد كلمات ولكنه الإيمان الذي ينشئ آثاره في واقع الحياة من كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق، وعمل، وتعامل، فالجزاء هو الرضا وهو أعلى وأندى من كل نعيم، وهذا الرضا في نفوسهم عند ربهم، الرضا عن قدره فيهم، والرضا عن إنعامه عليهم، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم، الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة، والفرح الخالص العميق (٢).

والرضا والصبر على ما قدره الله تعالى من أمور المعاش أو حتى الأمور الأخرى من الأعمال دينية أو دنيوية أمر الله تعالى به في قوله ﴿تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُتَوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ عَيْنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٣).

فالآية الكريمة تتضمن معنى "الحث على تحسين ما في القلوب، ووعيد لمن لايرضى بما دبر الله، وتفويض المشيئة إليه، والتوافق على رضا رسول الله - ﷺ - (٤).

فالرضا من ثمرات التوكل على الله ينشرح الصدر لمشيئة الله لأن المؤمن إذا توكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيله فيلقي حموله عند باب ربه سبحانه.

(١) سورة البينة، آية: ٧-٨.

(٢) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣٩٥٢/٦).

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٥١.

(٤) انظر: للمراغي، تفسيره، (٢٥/٨).

فالقرآن الكريم مليء بالتشريعات والتوجيهات لتنظيم المجتمع المسلم على أساس من مبادئ وقيم الإسلام، فقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يصبروا على طاعة دينهم الذي ارتضاه لهم وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرء، ولا لشدة ولا لرخاء حتى يموتوا مسلمين مؤدين ما كفوا به، فمن أخص صفات المؤمنين أنهم لا يياسوا من رحمة الله ولا يعترتهم قنوط ولا خور إذا تأخر عليهم ما يحبوه لحكمة يريد بها الله العلي الحكيم، بل من واجبهم أن يداوموا على إصلاح نفوسهم، أن يحسنوا توكلهم على ربهم ويزدادوا ثقة في وعده بالفوز والفلاح، والتأييد لعباده المؤمنين الصالحين، وهذا يدفعهم إلى مزيد من اتخاذ الأسباب الدنيوية والدنيوية، وإلى الاعتصام بالصبر.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾^(٣).

(١) سورة النحل، الآية ٤١-٤٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ١١-١٢.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٥٨-٥٩.

ففي هذه الآيات الكريمة قرن سبحانه بين التوكل والصبر لأن مامن عمل إلا ودخل فيه الصبر والتوكل على الله فإذا اجتمعا أثمرتا قبول العمل ونال صاحبهما خير الدنيا والآخرة، فالصبر جواد لا يكبو وجندا غالبا لا يهزم فلا بد من الصبر حال العمل وبعد الفراغ من العمل .

قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿٣﴾ (١).

إن الله تعالى يعلم المخلص من غيره ومن سنته سبحانه أن يختبر الذين صدقوا الله ورسوله، فيبتليهم بإدالة المشركين عليهم، حتى يتبين المؤمن المخلص صحيح الإيمان، من المنافق ويتبين الصابرين عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من جرح وألم ومكروه فيزيد المؤمنين أجرا، وينقص غيرهم ويغنيهم (٢).

" إن مشيئة الله تسير على نظم ثابتة وسنن حكيمة، ترتبط فيها الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، وإن كان الله قادرا على كل شيء، وتلك السنة في الماضيين واللاحقين، فكل من سار على منهاج الطائعين المؤمنين الموفقين حظي بالسعادة، والنصر، والفلاح، ومن سار في طريق العصاة المكذبين كانت عاقبته خسرانا ودمارا وهلاكاً، فإذا عرف المؤمنون هذه الحقيقة فيجب عليهم ألا يضعفوا عن العمل خاصة الجهاد فهو مجال لكشف وإبراز وتطهير، فيه يتميز المؤمنون الصادقون عن المنافقين العصاة، وبها يعرف صدق الإيمان، وصلابة العزيمة، والثبات عند الابتلاء؛ ولذلك فالصبر مطلوب عند أداء التكاليف الشرعية الدائمة والمؤقتة، وطاعة الله

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠-١٤٢.

(٢) انظر: لابن جرير، جامع البيان، (٣٣٤/٢-٣٣٥) .

ورسوله، وفي وقت البلاء والشدة والمحنة، فطريق السعادة هو بالعمل والصبر، وملازمة الحق والعدل والإنصاف^(١).

المؤمن يعمل ويكد في عمله، ولكن سنن الله جارية على عباده فالبلاء حاصل، ولكن لادواء لتحمل المصيبة إلا بالصبر، إذ في الصبر تقوية الإرادة وتحمل المشقة، والثبات على المصاعب، وأن الله مع الصابرين، أي بالعون والنصرة والرعاية، والتأييد.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

فالمؤمن إذا استعان بالصبر والصلاة التي تملأ القلب خشية، وخشوعاً لله ورجاءاً فيه فتبعد النفس عن الفواحش والمنكرات، فتهدأ بذلك المصاعب، ويتحمل كل شدة، ومشقة، ويقاوم كل عناء وكرب، وقد خص الصبر هنا؛ لأنه أشد شيء باطني على النفس، وخصت الصلاة؛ لأنها أشد عمل ظاهري على الإنسان، إذ فيها إنقطاع عن الدنيا واتجاه إلى الله، وقد روي عنه -ﷺ- أنه إذا حزبه أمر - اشتد عليه - فزع إلى الصلاة، وتلا هذه الآية - إن الله ناصر الصابرين، ومجيب دعائهم ومفرج كربهم، والواقع أن الأعمال الفردية، والأعمال الجماعية العظيمة لا تتحقق ثمارها إلا بالثبات والكفاح الدائم، وعدة ذلك كله الصبر^(٣).

إن العبد يسؤه ما يجري عليه، ولا يشعر بما لله في طيه من الألطاف فאלله تعالى يهون على المؤمنين ما يصيبهم، ويرشدهم إلى الإيمان الذي يجعل من صاحبه قوة لاتلين، وعزيمة لاتغل، ويعلمهم أن سنة الله في الأمور كلها أن تتداول، وأن العاقبة للمتوكلين على الله الصابرين على الشدائد، والمحن وماتتطلبها من بذل النفس، والغالي، والرخيص، وتضحية بالراحة، والله تعالى يحث على الثبات في

(١) انظر: لوهبه الزحيلي، التفسير المنير، (٣-٤/٩٧-١٠٨).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٣) انظر: لوهبه الزحيلي، التفسير المنير، (١-٢/٣٩-٤١).

صيانة الحقوق، والمعتقدات، والذود عنها، والعمل الصالح هو مراد الله ومبتغاه لننال رضى الرحمن؛ لأن في الرضا إنشراح للصدر وسعته بالقضاء، وترك زوال الألم وإن وجد لكن الرضى يخففه بما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، فيقوى الرضى، ويظهر الصبر^(١).

فالصبر والرضا جعل الله فيهما راحت نفسية وروحية، وهما دليلان على حسن ظن العبد بربه، والرضا مظهر من مظاهر صلاح العبد وتقواه، والصبر جواد لا يكبو وحصنا حصينا لا يهزم للمؤمن.

والصبر والرضا آخية المؤمن التي إليها يرجع، والمحن التي نعيشها اليوم تحتاج إلى أن نرجع إلى ديننا ونوحد بذلك صفوفنا، ونعد العدة، ونصبر ونعمل بيد واحدة مخلصين لله متوكلين عليه، والرضا والصبر علامة التوكل على الله وشكر لله، ومحبة لله وطريق إلى التسليم لله بعزة وقوة.

(١) انظر: للأوسى، روح المعاني، (٣-٤/٦٨)؛ ولابن رجب، وابن القيم، أبو حامد الغزالي، تزكية النفوس، جمع أحمد فريد، تحقيق ماجد بن أبي الليل (بيروت: دار القلم تط الأولى، ١٤٠٥هـ)، ص ١٠٦.

المبحث السادس

العزة والقوة

إن من أعظم ثمار التوكل على الله أنه يورث العزة والقوة والثبات والشجاعة، فالقوة الحقيقية هي قوة الإيمان لا قوة البدن فقط.

قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١). فقضاء الله ثابت ووعده نافذ لا محالة.

فقد قضى الله وخط في أم الكتاب غلبته ورسله، فهو سبحانه ذو قوة وقدرة على هلاك كل من حاده ورسله، ذو عزة فلا يقدر أحد أن ينتصر منه إذا هو أهلك وليه أو عاقبه، أو أصابه في نفسه بسوء^(٢).

فإنه تعالى قادر على نصره أنبيائه غالب لا يدفعه أحد عن مراده، وهذا وعد لا يخلف، ولا يغير، فإنه من الصادق القوي العزيز، الذي لا يعجزه شيء يريد له لمن آمن به، وبرسله، واتباع ما جاء به المرسلون، من حزب الله المفلحين، الذين لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة بالحجة أو بالسيف أو بهما معا^(٣).

فالقوة والعزة متلازمان، ففي العزة معنى يدل على الشدة والقوة^(٤)، فالمؤمن إذا أراد أن يكون من أقوى الناس، وأعزهم فما عليه إلا أن يكل أمره إلى العزيز القوي، فأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كانوا في عزة وقوة، وتحدي مع أعدائهم، مع قلة الاتباع، ولكن ركنوا وتوكلوا على الذي لا يخذل من لاذ بجناحه.

(١) سورة المجادلة، آية: ٢١.

(٢) انظر: للطبري، جامع البيان، (٢٥٠/٧-٢٥١).

(٣) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ١٥ (٢٩٠-٢٩٦/٣٠)؛ وللسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٢٠٠/٥)؛ وللجزائري، أيسر التفاسير، (٢٩٩/٥).

(٤) انظر: لابن منظور، لسان العرب، مادة عزز، ص ٢٩٢٤؛ وانظر للأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣٣٢.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾^(١)، "فهو القادر على كل شيء والغالب عليه لاغيره"^(٢).

ولن تكون هذه العزة والقوة إلا بطاعة الله، وطاعة رسوله، وبالتوكل الحقيقي وتفويض الأمر إليه سبحانه، وبهذا تكون الكفالة والتأييد لمن توكل وأناب إليه سبحانه.

فطبيعة الإيمان إذا تغلغت في نفس المؤمن بتقوية ما يقتضيه الإيمان من الثقة بالله، والاستعانة به، وصدق التوكل عليه، وحسن الظن به ومقاومة أهواء النفس، ومخالفتها، وممارسة العبادات، وابتغاء مرضاة الله، وجعل ذلك هدفاً، وأن يعلم أن الجائزة العظمى هي الجنة، فهذه الأمور جميعها، تضيء، وتلبس صاحبها القوة التي تتطبع في سلوكه كله، والعزة في شخصيته فإذا تكلم بكلمة بقوة ويقين، وإذا عمل كان راسخاً متقناً عمله.

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تكلمت عن العزة والقوة لله وللمؤمنين وأسبابها، فمن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(١) اذ تقول للمؤمنين أَلَيْسَ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَفٍ مِّنَ الْمَلَأِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٦٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَفٍ مِّنَ الْمَلَأِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٦٦﴾^(٢).

(١) سورة هود، آية: ٦٦ .

(٢) انظر: لأبي السعود، إرشاد العقل السليم، (٤٨/٣) .

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٣-١٢٦ .

إن الله تعالى أظهر المؤمنين على عدوهم مع كثرة عدد العدو، وقلة عدد المؤمنين، وذلك لصبرهم وتقواهم وطاعتهم لربهم ولرسوله، وتوكلهم عليه سبحانه^(١).

فسياق الآيات دليل على أنه بعد توكلهم، وتقواهم لله تعالى رزقهم بالنصر، والعزة، فهو عزيز لا يغلبه أحد حكيم في تدبيره أمور المؤمنين وشؤونهم.

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾^(٢).

إن الله تعالى أجاب استجارة المؤمنين، ودعاءهم للنصر على أعدائهم، فأمدهم بالملائكة يردف بعضهم بعضاً وما هذا الإمداد إلا بشارة يبشر الله بها بالنصر على العدو، ويسكن القلوب، وبذلك توقن بنصر الله، ينصر سبحانه من يشاء من خلقه، لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، بل يقهر كل شيء ويغلبه؛ لأنه خلقه، فسبحانه حكيم في تدبيره، ونصره من نصر، وخذلانه من خذل من خلقه، لا يدخل تدبيره وهن ولا خلل^(٣).

فنصر الله هذا من مننه سبحانه الكثيرة على عباده المؤمنين، ومن هنا نعلم أن لا استجارة، ولا استغاثة، ولا توكل إلا على الله مقدر الأمور والأسباب وميسرها سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ۝ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ

(١) انظر: للطبري، جامع البيان، (٢/٣٢٢-٣٢٤).

(٢) سورة الأنفال، آية: ٩-١٠.

(٣) انظر: للطبري، جامع البيان، (٤/١٤-١٥).

أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾

" الآية الكريمة إيماء إلى أن النصر ينال بالأسباب ومن أهم هذه الأسباب التآلف والاتحاد بفضل مقدر الأسباب ورحمته بالعباد....، وقد دلت التجارب على أن التآلف من أقوى وسائل التعاون وأنجعها، وأجدى وسائل التحاب والتآلف، وقوة الإيمان....، فالله تعالى غالب على أمره الذي لا يغلبه خداع الخادعين، ولا كيد الماكرين، الحكيم في أفعاله، ينصر الحق على الباطل" (٢).

كذلك الآية تتضمن معنى عظيم هو " أن الله تعالى يأمر رسوله.... بقبول السلم متى طلبها أعداؤه....، ورغبوا بصدق فيها؛ لأنه -ﷺ- رسول رحمة لا رسول عذاب، وأمره أن يتوكل على الله في ذلك أي يطيعه في قبول السلم، ويفوض أمره إليه، ويعتمد عليه، فإنه تعالى يكفيه شر أعداءه؛ لأنه سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم، وأحوالهم.... عزيز حكيم في تدبيره شؤون عباده المؤمنين" (٣).

فجمع القلوب والنفوس على الإيمان بالله مع التوكل عليه يورث النصر للمؤمنين، ويتوحد القلوب تكون الأهداف، والغايات جميعها في رضا الرحمن.

قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿١٧٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئَاءِ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٧٧﴾

(١) سورة الأنفال، آية: ٦١-٦٣.

(٢) انظر: للمراغي، تفسيره، (٢٧/٤-٢٨).

(٣) انظر: للجزائري، أيسر التفاسير، (٣٢٤/٢)؛ وللسعدي، تيسير الكريم، (٢٢٤/٢).

(٤) سورة الشعراء، آية: ٢١٤ - ٢١٧.

أمر الله تعالى نبيه بالإنذار والدعوة إليه جهرا، والتواضع لمن اتبع الدين أو شارف على إتباعه، وإن عصوا بعد ذلك فאלله تعالى يقهر من يعصيه ويعصي رسوله بعزته، وينصر برحمته.

يقول المفسر: وتقديم وصف العزة أوفق بمقام التسلي عن المشاق اللاحقة من القوم للرسول - ﷺ - ، وجوز أن يكون ذلك؛ لأن العزة كالعلة المصححة للتوكل، والرحمة كالعلة الداعية إليه.

وفسره غير واحد بتفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره، ويقدر على أن ينفعه ويضره^(١).

فهذه العزة استجلبت ومنحت رسولنا الكريم - ﷺ - العون من الله، وجعلته واثقا راسخا متيقنا تمام اليقين، فنادى بدعوته جهرا لا يخاف في الله لومة لائم يردد في قوه " لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده " الحديث لأبي هريرة^(٢).

إن المؤمن يستمد قوته، وعزته من الله، فهو المصدر لكل عزة، والعزة عند المؤمن والقوة لا تكون فضيلة إلا إذا استظلت بظل الله، واحتمت بحماه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، فعزة الله قهره من دونه وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم. وقيل المعنى: والله الغلبة والقوة ولسوله وللمؤمنين^(٤).

والمتتبع للآيات القرآنية يرى أن لفظي العزة، والقوة قد اقترنا في آيات كثيرة وقد بلغت هذه الآيات سبعة وما هذا إلا علامة على أن العزة ملازمة القوة تماما.

(١) انظر: للأوسي، روح المعاني، ج (١٩-٢٠/١٣٥-١٣٦).

(٢) صحيح البخاري، (٥/٥٩) ح ٤١١٤ كتاب المغازي؛ ومسلم، (٤/٢٠٨٩) ح ٢٧٢٤ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٣) سورة المنافقون، آية: ٨.

(٤) انظر: للطبري، (٢/٤٥٧)؛ وانظر: للبغوي، معالم التنزيل، (١/٤٩)؛.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾^(٣) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾^(٤).

قال تعالى: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾^(٦).

وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾^(٧).

(١) سورة هود، آية: ٦٦ .

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢٥ .

(٣) سورة الحج، آية: ٣٩-٤٠ .

(٤) سورة الحج، آية: ٧٤ .

(٥) سورة الحديد، آية: ٢٥ .

(٦) سورة المجادلة، آية: ٢١ .

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ﴾^(١).

فالأيات الكريمة السابقة جمعت بين لفظي العزة والقوة. فالإسلام يعطي القوة للمرء المؤمن، وذلك لأنه قوي بإيمانه بربه قوي بطاعة ربه ورسوله، فهذه تدع المؤمن مستقرا شامخا عزيزا، فالعزة والقوة من أبرز الخلال التي نادى بها الإسلام وغرسها، وتعهد نماءها بما شرع من عقائد، وسنن من تعاليم، والمؤمن لما أشرنا قوي بإيمانه كذلك عزيز بإيمانه لأنه إذا كلف بعمل أو أمر بأمر فأداه على أصح وجوهه، فهذا أمر يجعل كل امرئ مؤمن يحتفظ بعزة نفسه فلم يهنها بمخالفة ذلك الأمر الرباني، وهذا ما استخلصناه من غزوة أحد، فسبب الهزيمة والخذلان والسقوط في الإهانة هو ما ارتكبه بعضهم من مخالفات لأمر الله وأمر رسوله - ﷺ -، لذلك نشير إلى أن عزة وقوة المؤمن هي ألا يكون مستباحا لكل طامع من جن أو إنس، أو غرضا لكل مهاجم، بل عليه أن يستमित دون نفسه وعرضه، وماله، وأهله.

فتمسك المؤمن بشرع الله في كل المجالات، والجوانب هي قوة وإعزاز فينبغي أن يعلق المسلم حقوقه ويملاً بها يديه ويتشبث بها، فالعزة والقوة في طاعة الله ورسوله، فالمؤمن يعمل على أساس ذلك، وعلى هذا الأساس يأخذ نصيبه كاملا غير منقوص، فإذا اعتدى عليه أحد أو طمع فيه باغ كان انتصابه للدفاع عن نفسه جهادا في سبيل الله، كذلك العزة والقوة في أن يبذل المرء المؤمن قصارى جهده في بلوغ مآربه بعد توفيق الله تعالى له تارك للحظوظ أن تضع شيئا.

فالتوكل الذي يقوي المؤمن ضرب من الثقة بالله، يريح نفس المؤمن عندما تكتنفه ظروف محرجة، ويلتفت حوله فلا يرى عونا، ولا أملا ! فالمكافح قوي عزيز شديد البأس يشعر عندما يتوكل على الله أنه أوى إلى ركن شديد، ويستمد من هذا التوكل ثباتا ورباطا، وعزة ويظل يقاوم حتى تبارق بشائر النصر خلال الجو الملبد.

(١) سورة الشورى، آية: ١٩.

وقد بين الله تبارك وتعالى أن هذا التوكل غذاء الكفاح الطويل الذي قاوم به النبيون وأتباعهم مظالم الطغاة والفاستدين المستبدين .

قال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾^(١).

" فقد عرفوا ربهم وعلموا أن الأمور كلها بيده سبحانه فلا عذر لنا في أن لا نتوكل عليه فقد ثبتوا على ما استحدثوه من توكلهم عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين المسبب عن إيمانهم "^(٢).

فالإسلام حرم على المؤمن أن يهون أو يستذل أو يستضعف، " فعن حذيفة - قال: قال رسول الله - ﷺ - " لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: فكيف يذل نفسه؟ قال: "يتعرض من البلاء لما لا يطيق" "^(٣).

فالإسلام يأمر بإعزاز المسلم نفسه ودينه ورببه فهذه أنفة المؤمن، وهذه العزة في نظري فيها شيء من التمرد بقدر ما فيها من الاستكانة وفيها من التعالي بقدر ما فيها من التواضع، وفيها من الترفع على مغريات الأرض، ومزاعم الناس، فيها الانخفاض إلى التبسط مع المسلمين وإطلال العظمة من أصدق سبلها، فالعزة والإباء والكرامة والقوة من أبرز الصفات والخصال التي نادى بها شرعنا الحكيم.

فالمؤمن عندما يبرز قوته ليرهب عدوه، فمهما بذل عدوه من طاقة في إضعاف المؤمن فلن يمنع شيئا أعطاه الله للمؤمن من تمكين.

فالبشر لو اجتمعوا بأسرهم أذل من أن يمنعوا شيئا أعطاه الله، وأقل من أن يعطوا شيئا منعه الله للمؤمن، ومن ثم ينبغي على المؤمن أن يرد مصائر الأمور إلى مدبرها الأعظم، وأن يجعل فيه الاستعانة، والتوكل وعليه المعول.

(١) سورة إبراهيم، آية: ١٢ .

(٢) انظر: للبيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ص ٣٣٧ .

(٣) أخرجه الترمذي، (٢٢٥٥) واللفظ له وقال حسن غريب.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

والله سبحانه وتعالى "يربى عباده المؤمنين على أصناف البر التي لا تبلغها الأفهام فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما اقتضته حكمته فهو باهر القدرة المنيع الذي لا يغلب"^(٢)، فبره سبحانه متنوع نصرا أم هداية، رزقا أم توفيقا في وتيسيرا في الأعمال، فالقضاء يصيب العزيز، وله أجره ويصيب الذليل وعليه وزره، والمؤمن بهذا عزيز لعلمه أنه لن يفلت من محتوم القضاء إنسان، والله تعالى من لطفه بعباده، أن هداهم للخير الذي لا يخطر على بالهم، بما يسر الله لهم من الأسباب الداعية لذلك، يرزق من يشاء بحسب اقتضاء حكمته، فلاحول ولا قوة إلا به لا لأحد من المخلوقين سبحانه من دانت له جميع الأشياء، قادر على ما يشاء لا يقدر أحد أن يمنعه عن شيء يريد^(٣)، هذا ما يفهم في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^(٤).

فالله تعالى يهب العزة والقوة لعباده المخلصين في بذل الجهد لتخطي الصعاب، والعزة والقوة على فعل العبادات وأشق الطاعات والمسارة في الخيرات والتحمل والصبر والمثابرة في تعمير هذا الكون الفسيح.

فالقرآن والإسلام أوصيا وهديا إلى القوة والعزة وذلك بتيسير أسبابها ووسائلها.

فالكرامة في التقوى، والسمو في العبادة والعزة والقوة في طاعة الله ورسوله

- ع -

(١) سورة يوسف، آية: ٢١.

(٢) للبيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ص ٦٤١.

(٣) انظر: للمراغي، تفسيره، (٣٤/٩)؛ للسعدي، تفسير الكريم الرحمن، (٣٩٤/٤).

(٤) سورة الشورى، آية: ١٩.

المبحث السابع

يَقَى من تسلط الشيطان والسحر والجسد والعين

إن من أعظم ما يعين العبد على الثبات هي الاستعاذة من الشيطان وطرده وساوسه ونجواه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ (١)

فالشيطان يخبط العباد ويشغلهم بالذات وبالأعمال الخاسرة فمثلاً يحرض على الزهد المنافي لمنهج الإسلام ويخوفهم من طرق الكسب فيجعلهم ذليلين على الأبواب والطرق يسألون هذا وذلك .

ففي الآية الكريمة خطاب للرسول ﷺ أن يسأل الله الإعانة من الشيطان في جميع الأعمال ليخلص العمل ولا يؤثر فيه الشيطان بوسوسته، فالمتوكلون محرسون من تسلط الشيطان، فمن لم يتوكل على الله ينتظم في سلك من يتولى الشيطان من حيث لا يحتسب (٢).

" فالاستعاذة تمنع تسلط الشيطان على المستعِذ لأن الله منعه من التسلط على الذين آمنوا المتوكلين فنفي سلطان الشيطان مشروط بالأمرين: الإيمان، والتوكل فالمعنى أن الإيمان مبدأ أصيل لتوهين سلطان الشيطان في نفس المؤمن فإذا انضم إليه التوكل على الله اندفع سلطان الشيطان عن المؤمن المتوكل" (٣).

(١) سورة النحل، الآية ٩٨-١٠٠.

(٢) انظر: لأبي السعود، إرشاد العقل السليم، (٢٩٢/٣).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣-١٤-١٥-٢٧٨-٢٧٩).

ومن أهم ثمرات التوكل أيضا دفع شر الساحر والحاسد والعائن فالتوكل على الله من أقوى الأسباب في ذلك، ومن كان الله حسبه وواقيه فلا يضره أذى من أراد إيذائه وهذا ما شعر به يعقوب عليه السلام لما نهى أبناءه من الدخول من باب واحد، وأمرهم بالدخول من أبواب متفرقة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَبْنَیَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(١).

إن الدخول من أبواب متفرقة ماهو إلا احتراز لا يرد قدر الله وقضائه وفي هذا دليل على أن الحسد موجود قديما والاحتراز منه مشروع فلا بد من أخذ الأسباب العادية التي لا تؤثر في الواقع شيئا إلا بإذن الله. وعلى المؤمن الإتكال على الله والاعتماد عليه والثقة به؛ لأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى^(٢).

وهذا ما فعله يعقوب عليه السلام اتخذ أهم الأمور وهي التوكل على الله سبحانه في حفظ ورعاية أبنائه.

(١) سورة يوسف، آية ٦٧.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٧٤٩/٢).

المبحث الثامن

كشف الهم والكرب

من ثمرات التوكل على الله أنه الله يمد المتوكل بعونه، ولا يتخلى عنه إذا حلت بساحته الخطوب، وأحاطت به المصائب والكروب، فهو سبحانه يستجيب الدعاء، ويلبي النداء، ويكشف الهم والحزن والكرب الذي يأخذ النفس.

قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۚ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾^(١).

فنوح عليه السلام دعا الله تعالى فاستجاب له ربه فحماه ونصره على عدوه فأنه تعالى منجي المؤمنين الصادقين في التجاءهم واستنصارهم بالدعاء وبالتوكل عليه سبحانه، فقد أصيب نوح عليه السلام من أذى قومه الكثير، فأصبح في كرب عظيم، وغم شديد، فخلصه الله مما هو فيه، فأغرق قومه المكذبين والمنهمكين في الشر، وما اجتمعت هاتان الخصلتان في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى^(٢).

هذا دعاء المخلصين استجاب لهم ومدهم بعونه، فكيف بالخالق العظيم اللطيف وهو يستجيب لدعاء المشركين لا استجابة لهم، بل لأنه تعالى أعلم بحالهم في تلك الساعة المؤلمة من الدعاء فقد أخلصوا بها الدعاء ولجأوا إلى الله تعالى رغم أنوفهم، قال تعالى يصور تلك الحالة: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مَنْ ظَلُمْتُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَجْنَانًا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ۝﴾^(٣).

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧٦-٧٧.

(٢) انظر: للبيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ص ٤٣٤.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٦٣-٦٤.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٢٣﴾﴾^(١)

"فإن الله تعالى يمتن على عباده، في انجائه المضطرين منهم في ظلمات البر والبحر، الحائرين الواقعين في المهامة البرية، وفي اللجج البحرية، إذ هاجت الرياح العاصفة، حينئذ انفردوا بالدعاء له وحده لا شريك له"^(٢)، وفرحوا بالريح الطيبة المسيرة لفلكهم، حتى إذا جاءت الرياح الشديدة، واغتم البحر عليهم، وظنوا هلاكهم هنا في هذه الساعة دعوا الله وأفردوه بالدعاء والابتهال، وبعد النجاة رجعوا إلى ما هم عليه من ظلم لأنفسهم باتخاذ الأصنام والأوثان عباد من دون الله^(٣).

فالكرب والهم والحزن أمور قد ذمها الشارع الحكيم لما لها من مضار تؤثر على نفس المؤمن؛ لأنها دليل عدم الرضا بالقدر، ولكن المؤمن يدفع هذا بأساليب، دل عليها الإسلام وأمر بالتمسك بها وذكرها.

(" فعن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله - ﷺ -: "إلا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب، أو في الكرب: لا إله إلا الله ربي لا أشرك به شيئاً"^(٤)، و(عن أبي بكر - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -:

(١) سورة يونس، آية: ٢٢-٢٣.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٢٢٢).

(٣) انظر: المصدر السابق، (٢/٦٤٠).

(٤) أبوداود، (١٥٢٥) واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٨٢)، وأحمد (٣٦٩/٦)، والالباني (٢٨٤/١)

وقال صحيح.

"دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت" (١).

هذا مع الإخلاص والإقبال على الله، وأن يلبس المؤمن نفسه لباس الذل أمام العلي القادر، فرسولنا الكريم وصحبه الكرام أصابهم الهم والكرب والحزن.

أصابهم الكرب والحزن عندما ضيق عليهم المشركون في مكة الحصار، أصابهم الكرب والحزن عندما هاجروا وتركوا مالهم وأولادهم وذريتهم وأزواجهم في يد أعدائهم وهم من أهلهم.

أصابهم الكرب والحزن عندما آذى المشركون رسولهم الحبيب أصابهم ما أصابهم ولكنهم احتسبوا ذلك على ربهم توكلوا وأنابوا إلى ربهم مقصدهم وهمهم إظهار دين الله وماتوا كل أحد على الله جل وعلا من صحة عقيدة وإخلاص حتى كان الله تعالى قد ضمن الكفالة لهم بما حوته يده سبحانه .

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢).

هذه هي سنة الله للمخلصين ليمحص، ويميز بين أوليائه وأوليائه الشيطان ويضع الحد الفاصل للحق والباطل منذ أن خلق الخليقة وأنزل عليهم المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٣) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾

(١) أبوداود (٥٠٩٠) وقال الألباني (٩٥٩/٣): حسن صحيح الكلم الطيب (١٢١)، ص ٤٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٣ .

(٣) سورة الصافات، آية: ٧٥-٧٧ .

وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَيْنَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾^(١)

هؤلاء من أنبياء الله أخلصوا اللجوء إلى الله تعالى لمعرفةهم، ويقينهم بالله تعالى أنه هو من يأخذهم، ويدفع عنهم كربهم، وأحزانهم خاصة إذا لجأوا بقلب وجل تائب، فكم من مضطر فرجت كربته بدعائه .

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾^(٢)

" فالآية تنبيه من الله أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، فهو سبحانه الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، الذي لا يكشف ضر المضرورين سواه"^(٣).

إن المؤمن حين يصاب بالحزن والغم في دينه أو دنياه فليس له إلا الانكسار بين يدي خالقه، والاعتصام ببابه، وطرقه، والتزام عبوديته من الذل، والخضوع، والإنابة، والتوكل، وامتنال أمره، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجوء إليه والاستعانة به والتوكل عليه والعياذ به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره محبة، وخوفاً، ورجاء، فسبحانه عدل في قوله، وفعله، وقضائه، فخبيره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، فالمؤمن يصيبه هم النصر، وهم الرزق، وهم الأبناء ولكن من سعى وتوكل على الخالق " وصدق في جميع أموره صدق العزيمة، وصدق الفعل فصدق العزيمة جمعها وعدم التردد فيها، فإذا صدقت عزمته بقي عليه صدق الفعل، وهو است فراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره، وباطنه، فعزيمة القصد والتوكل تمنعه من ضعف الإرادة والهمة،

(١) سورة الصافات، آية: ١١٤-١٢٢.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٢ .

(٣) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٩١/٣).

وصدق الفعل يمنع من الكسل والفتور ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره، وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص، وصدق التوكل، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله^(١).

قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾^(٢).

فحق كل إنسان وحق كل تصرف له أن يكون التوحيد، والعبودية، والإخلاص هم البداية، والوسط، والنهاية لأنهم كالماء للأحياء، وكالهواء للإنسان كالروح للحی، فكلما تغلغت في الأجزاء والأعضاء وفي المقاصد والأعمال كان الفرج والسرور، وليس منجي المؤمن إلا ذلك التوحيد، والعبودية والإخلاص مع الصدق في القول، والنية والإرادة، والعزم، والعمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها^(٣).

"فكل قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقرا دون الله، والعز ذلا دونه، والذل عزا معه، والنعيم عذابا دونه، والعذاب نعيما معه، وبالجمله فلا يرى الحياة إلا به ومعه، والموت، والألم، والهم، والغم، والحزن إذا لم يكن معه فهذا له جنتان: جنة في الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة"^(٤).

فهنيئاً لذلك القلب، وقريبا سينجلي همه وكربه، وحزنه مع صدق عزمه وتوكله فالمكروب في لحظات كربته، وضيقه لا يجد ملجأ إلا الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأسناد، وينظر الإنسان حوالیه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصره وأسباب الخلاص، لاقوته ولاقوة في الأرض تتجده، وكل ما كان بعده لساعة الشدة قد زاع

(١) انظر: لابن القيم، الفوائد، ص ٢٤٠.

(٢) سورة محمد، آية: ٢١.

(٣) انظر: لسعيد حوى، المستخلص في تركية النفوس، ص ٣٠٥-٣١١.

(٤) انظر: لابن القيم، الفوائد، ص ٢٥٢.

عنه أو تخلق، وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى - في هذه اللحظة تهتز النفس فتلجأ الى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله فهو وحده دون سواه، يجيبه ويكشف عنه الكروب، ويرده إلى الأمان والراحة؛ لذلك لابد أن لا يغفل الإنسان عن هذه الحقيقة ويعلم علم اليقين أن الله هو الذي فطره، وزوده بالطاقات ورزقه فيدفع كل التماس دون الله لتزول الأحزان عن الأنفس وترجع إلى الله بقلوب وجلة للعلي القادر^(١).

(١) انظر: لسيد قطب ، في ظلال القرآن، (٥/٢٦٥٨) .

المبحث التاسع

يورث الرزق ويجلب المنافع ويدفع المضار

إن من أهم الأمور التي تشغل الكثير من الناس هو الرزق وأهمهم هذا الأمر؛ لكن المتوكلين على الله تعالى أيقنوا أن الرزق مقسوم ومقدر من الله تعالى وعلموا أنه لا ينقص من أرزاقهم شيئاً قد كتبه الله لهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١).

"فما من دابة في الأرض إلا يرزقها الله تعالى حيث كانت أماكنها بسوقها إليه"^(٢).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَالِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

فالله تعالى يكفي العبد مؤننته وحاجته بلا شك وبالتوكل على الله تجلب المنافع وتندفع المضار.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٤).

(١) سورة هود، آية ٦ .

(٢) أبي السعود، إرشاد العقل، (٧/٣).

(٣) سورة الطلاق، الآية ٢-٣.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٧٣.

فإن الله تعالى يكلأ ويحفظ ويحمي المؤمنين الصادقين لأنهم "لما توكّلوا" على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ... مما أضمر لهم عدوهم" (١).

فالتوكل عبادة تورث الرزق وتتدفع بها المضار ويسوق الرزق لأن في التوكل سعى في طلب الرزق النافع ودفع الضرر وهذا ما كان من سلوك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والسعي في الرزق افتقار إلى الله تعالى دون غيره.

"فالتوكل فعل القلب فلا ينافي حركة الجوارح، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين، فقد كان آدم عليه السلام حراثاً، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط زارعين، وصالح تاجراً، وكان سليمان يعمل الخوص، وداود يصنع الدرع ويأكل ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة صلوات الله عليهم أجمعين" (٢).

فلنأمل ذلك حتى نكون في إطار قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۖ﴾ (٣)، فكيفينا الضائقة من كل شيء ويجلب لنا ما نحتاجه من المنافع.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١/٦٤٧).

(٢) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، بيروت، دار الكتب العلمية، ص ٢٨١.

(٣) سورة الطلاق، الآية ٢-٣.

المبحث العاشر

الدخول في كنف وكفاية الله تعالى

تقدم معنا أن التوكل على الله من أعظم الأعمال الخلقية التعبدية وتأتي ثمراته العظيمة ويجنيها المتوكل بعد تحقيقه العمل الرفيع الخالص الصائب.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(١).

فإليه سبحانه وتعالى تنتهي القوة، والملك، والعظمة، والجاه، وهو حسب من لاذ به وحسب من والاه، فالمتوحد بالألوهية هو الكافي المعين، وهو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين ومافيهما، وما بينهما مقهورون بقدرة الله، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء وهو على كل شيء وكيل^(٢).

فإذا علم المؤمن صفات خالقه تلك، فكيف لا يلوذ به، ويدخل في كفايته أحد، ولن تكون الكفاية والحسب إلا لمن آمن، واتقى، وكلما كان العبد حسن الظن بالله صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبته.

"فإن الله تعالى شرع في بيان كفايته لنبيه محمد - ﷺ - في قوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)

في جميع أموره وحده أو مع أمور المؤمنين، أم في الأمور المتعلقة بالكفار كافة"^(٤).

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٩.

(٢) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٦٢٧)؛ وللأوسى، روح المعاني، (١١-٥٣)؛ ولسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣/١٧٤٣).

(٣) سورة الأنفال، آية: ٦٤.

(٤) انظر: للأوسى، روح المعاني، (٩-١٠/٣٠).

فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١)، والمعنى "كل من يتق الله فيما نابه كفاه ما أهمه"^(٢)، "وأخبر سبحانه أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه، وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلوما، وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه. - فلننظر إلي هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وما هذا إلا دليل على أن التوكل من أقوى السبل عنده وأحبها إليه سبحانه، وليس كونه وكل الأمور إلى نفسه مناف لتوكل العبد عليه، بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلى نفسه سبحانه وتعالى"^(٣).

وفي الحديث: "عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يقال حينئذ: هديت وكفيت ووقيت فتنجي له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفى ووقيت؟" ^(٤).

ففي الحديث درس لبداية أي عمل ونهاية أي عمل، فالتسمية بالله فيها الراحة ومن ثم التوكل عليه وتفويض الأمور إليه وتسليمها للخالق؛ لأن المؤمن وكل مخلوق على وجه الأرض وفي الكون ليس له لا حول ولا قوة.

وكذلك في الحديث درس في أن التوكل كما أنه قول باللسان هو اعتقاد وعمل وبهذا يكون التوكل هو هؤلاء جميعا اعتقاد، وعمل، وقول باللسان.

فصدق التوكل أن تثق في الله، وفيما عند الله، فإنه أعظم وأبقى مما لدى العبد في دنياه.

(١) سورة الطلاق، آية: ٣ .

(٢) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (٤٠٢/٥).

(٣) انظر: لأبن القيم، مدارج السالكين، (١٣٣/٢-١٣٤).

(٤) سبق تخريجه، ص ٧٥ .

فالآيات القرآنية التي تحدثت عن التوكل وكانت في صدد الكلام عنه تدعو رسول الأمة محمد -ﷺ- وجماعته المؤمنة الموحدة بتفويض الأمور كلها إلى الله وحده. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(١).

يقول الإمام الطبري^(٢) في تفسيره لهذه الآية "وفوض إلى الله أمرك يا محمد، وثق به وحسبك الله قيما بأمرك وكيلا، وحفيظا بك"^(٣)، فالله تعالى عاصم وحسب كل من فوض أحواله وأعماله إليه.

فمن خلال هذه المعاني فالمتوكل داخل في كنف وحماية الله سبحانه وتعالى وذلك بعد أن يقدم الجهد من الأسباب التي أمر بها سبحانه، ويكمل الله تعالى للمتوكل كل مايعجز عنه، فنبي الأمة محمد -ﷺ- يوم هجرته، كيف كان أخذا بالأسباب الممكنة وأعد لكل أمر عدته، من الرفيق، ومن الدليل، ومكان الخفاء، ومن يأتي له بالزاد والأخبار، ومن يعفي على آثاره هو ورفيقه الصديق، ومع هذا فقد استطاع قومه أن يقفوا أمام مكانه، ولكن حماية وكفاية الرحمن فوق كل شيء، فالخوف ملك رفيقه حيث قال: "لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا" فقال رسول الله: **ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**^(٤).

فهذا مثل تطبيقي لتوكل رسول الأمة محمد -ﷺ-، يهدي من روع صاحبه ويخفف عليه.

فالرسول الكريم فعل ماأمر به، وترك ما لم يأمر به لربه، وراعيه، ومالكة وكالئه، وكافيه يدبره بما يشاء لقد فاض على قلب رسولنا من صدق التوجه واستغناء القلب بالله تعالى فشعر -ﷺ- وصاحبه بكفاية وكفالة الله لهما.

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣ .

(٢) محمد بن جرير الطبري، الإمام أبو جعفر ولد سنة ٢٢٤هـ وتوفي سنة ٣١٠هـ؛ طبقات المغسرين للسيوطي، ص ٨٢.

(٣) انظر: جامع البيان، (١٥٧/٦).

(٤) صحيح البخاري (٥٥٦/٤) ح ٣٦٥٣ كتاب فضائل أصحاب النبي؛ ومسلم (١٨٥٤/٤) ح ٢٣٨١ كتاب فضائل الصحابة، واللفظ للبخاري .

قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٦٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٦٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٨﴾﴾^(١).

فإن الله تعالى كاف عبده ومرشده ومسدده إلى طريق الحق والإيمان فإليه نفزع في أمورنا دون سواه، فهو الكافي سبحانه^(٢).

وهناك معنى في تفسير ابن كثير^(٣) هو "أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه، فهو سبحانه منيع الجنب لا يضام من استند إليه، ولجأ إلى بابه فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله - ﷺ -"^(٤).

"فعن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: كنت خلف رسول الله - ﷺ - يوماً، فقال: "يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"^(٥).

(١) سورة الزمر، آية: ٣٦-٣٨.

(٢) انظر: للطبري، جامع البيان، (٦/٣٨٧-٣٨٨).

(٣) عماد الدين أبو الفداء، إسماعيل بن عمرو بن كثير، ولد سنة ٧٠٠هـ وتوفي سنة ٧٧٤هـ؛ انظر: شذرات الذهب، (٦/٢٣١-٣٣٢).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، (٤/٨٢).

(٥) الترمذي (٢٥١٦) واللفظ له وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ وأحمد (١/٢٩٣-٣٠٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر: صحيح (٤/٢٩٣) برقم (٢٧٦٣).

" فالله تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه، فيدفع عنه الويلات والمصائب، ويعطيه جميع المرغوبات "(١).

هذا لمن اتصف بصفة العبودية الحقة له سبحانه، لأنه قد ثبت أنه تعالى عالم بجميع الأمور، قادر على كل الممكنات، غني عن كل الحاجات فهو تعالى عالم بحاجات العباد، وقادر على توفيرها، فالآية الكريمة من سورة الزمر دليل على أن الله يحمي نبيه -ﷺ- من سوء، ويكفيه وأتباعه الدين والدنيا.

فالمرء المؤمن يشتد عليه الأمر ويتناهى في العظم ويحصل اليأس من كشفه من جهة المخلوقين ويتعلق القلب بالله وحده وهذا هو حقيقة التوكل على الله، فإن الله يكفي من توكل عليه في أمره.

فالمؤمن يلتجئ ويلوذ بجناب الله تعالى، وقد علمنا رسولنا الكريم -ﷺ- بعض كلمات لها وقع عظيم عندما يلهج اللسان بها فقول حسبي الله ونعم الوكيل لها تأثير عظيم، في دفع الشر، وحصول الخير .

" فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد -ﷺ- حين قالوا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ "(٢) "(٣).

" فالله تعالى يتجلى بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه والرضا به وبكل ما يجريه على عبده، وقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه، والتوكل معنى يلتزم من علم العبد

(١) انظر: لوهيه الزحيلي، التفسير المنير، ج ١٢ (٢٣-٢٤/٩-١٠)؛ ولسعيد حوي، الأساس في التفسير، (٩/٤٨٧٧).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٣) صحيح البخاري، (٩٤٥) ح ٤٥٦٣.

بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله ويختاره
له" (١).

فالعبد يقوم بما أمر به سبحانه من إخلاص واجتهاد، وتوكل، والله تعالى يقوم بما ضمنه له من الرزق والكفاية، ومن سعادة المرء أنه إذا توكل على الله كفاه الله سائر الأمور، ولكن إذا توكل العبد على غيره قطع الله عنه سائر الأمور، فالعز كل العز في التوكل على الله، والذل كل الذل في التوكل على المخلوقين، فينبغي إظهار الفقر إلى الله تعالى بطلب المعونة على مايزاوله من الأمور، ولا بد أن يكون هذا حال الخلق من المؤمنين، فما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة.

(١) انظر: لابن القيم، الفوائد، ص ٩٢.

المبحث الحادي عشر

الفوز والغلبة

إن النعم كلها من الله وحده والمتوكل على الله مؤيد من الله، وعلى قدر قوة توكل المرء على ربه وتجرده له، يكون مدد الله تعالى وعونه، والإمداد على قدر الاستعداد.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُ لَكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

"فكل من أخلص، وخص الله بالتوكل عليه يستحق النصر من الله"^(٢).

فالله تعالى لا غيره يعين، وينصر، ويمنع، والمؤمن يعمل وينتظر ويشاهد جزاءه إن عاجلاً أو آجلاً، فالتوكل على الله من لوازم الإيمان الصحيح الصادق كما علمنا وأشرنا إلى ذلك، وعلى معنى أن من صح إيمانه صح توكله على الله وحده، وأقبل على معارك القتال الذي أمر الله به، وهو واثق من أنه لن يصيبه إلا ماكتب الله له، وعلى يقين بأن الله ينصر أوليائه على أعدائه إذا اتخذوا كل الأسباب التي أمر الله باتخاذها، وحققوا في أنفسهم ماوجب عليهم من شروط، ونصر الله تعالى سرا وعلنا وهذا ماثلهم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾^(٣)، "قد علمنا أن من الرسل من قتله أعداؤه، ومثلوا به كشعيا ويحيى بن زكريا وأشباههم، ومنهم من هم بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقه ناجيا بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقاً لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله، فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا؟ وهؤلاء أنبياءه قد نالهم من قومهم ماقد علم، وماتصروا على من نالهم بما نالهم

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠ .

(٢) انظر: للبيضاوي، أنوار التنزيل وإسرار التأويل، ص ٩٤ .

(٣) سورة غافر، آية: ٥١ .

نالهم به^(١). وهنا يرد سؤال كيف كان نصر الله تعالى لرسله قديما؟ هل له أشكال أو أنواع غير النصر المألوف في الدنيا من النصر في الحرب والغلبة على الأعداء وفي هذا أورد صاحب تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن بعض أشكال وأنواع النصر هذه.

فأولا: إعلانه سبحانه رسله مع من كذب بهم وإظفارهم بهم حتى يقهر وهم غلبة، ويذلهم بالظفر ذلة، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان فأعطاهما من الملك والسلطان ما قهروا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد - ﷺ - على من كذبه من قومه.

ثانيا : إنتقام الله لكل من حاد وشاق وذلك بإهلاكهم، وإنجاء الرسل ممن كذبهم، وعاداهم كالذي فعل تعالى ذكره بنوح وقومه من تفريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه إذ أهلكهم غرقا، ونجى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم ونحو ذلك .

ثالثا : إنتقام الله من المكذبين في الحياة الدنيا كالذي فعل بقتلة شعيب أن سلط الله عليهم من سلط لقتلهم، وكفعله سبحانه بقتلة يحيى، بأن سلط على قتلته بختنصر حتى هلكوا به.

فهذه نصره عظيمة، وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعين من آذاهم^(٢).

إذا التوكل على الله ينبغي الحرص عليه في جميع الأحوال من نصر، وخذلان، لأن من المعلوم عند المؤمن أن نتائج أعماله هي بيد الله، فهو القوة الفاعلة، وأن قوة الله هي الغالبة بعد اتخاذ العدة والعتاد، ونفض الأيدي من العواقب وتعليقها بقدر الله، وتقبله والرضا بما يأتي به الله فحال المؤمن إذا ادلهمت الأمور عليه أن يزداد توكلا على الله، وإيمانا به، والله عند حسن ظن عبده.....، فوعد الله قاطع جازم بالنصر قريبا أم بعيدا، والمؤمن عليه أن لا يقصر معنى النصر على صورة

(١) انظر: لابن جرير، (٤٣٥/٦)؛ وانظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١٢٦/٤).

(٢) انظر: المصدر نفسه (٤٣٥/٦)؛ ولابن كثير، المصدر نفسه، (١٢٦/٤).

معينة حتى لا يدخل الشيطان إلى النفس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل، وينبغي أن يعرف أن صور النصر شتى وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة فمن هذه الصور أيضا مثلا أنبياء الله، ومنهم إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي في النار لم يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها .. أكان هذا موقف نصر أم موقف هزيمة؟، مامن شك - في منطق العقيدة - أنه كان في قمة النصر وهو يلقي في النار ..، لأنه عليه الصلاة والسلام قد كشف أوهامهم، وضلالهم - كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار وأمام أعينهم، فهذه صورة، وتلك صورة، وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته، ودعوته لو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده، لقد انتصر رسولنا وفاز وغلب في حياته، ونصره وغلبته ارتبطت بمعنى إقامة هذا الدين، وهذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض إلى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة.

فالفوز والغلبة لا تكون إلا باتجاه القلب إلى الله وحده، وبتوكله عليه وحده، وبالاطمئنان إلى قضاء الله فيه، وقدره عليه، وحين يصل إلى هذه الدرجة من الطمأنينة فسيكل الأمر لله، ويلتزم ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير، وذلك معنى من معاني النصر، النصر على الذات وهو نصر داخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال^(١).

كذلك من صور النصر اختيار الله تعالى لأحد البشر بالرسالة، والنبوة والتمكين في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

فإن الله تعالى نصر يوسف على إخوته وعلى امرأة العزيز بأن كشف سبحانه لأبيه مؤامرة إخوته عليه، وكشف تدبير امرأة العزيز وكيدها له، فإله تعالى غالب على أمره يفعل ما يشاء، لا يغلبه شيء، ولا يرد حكمه راد، فالغلب ليوسف عليه

(١) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٢/٩٣٩)، و (٩/٤٩٦٩-٤٩٧١).

(٢) سورة يوسف، آية: ٢١.

السلام قد تجلى في أن ملك خزائن الملك، وما أنعم الله به عليه بعد معاناته فخصه سبحانه بالنبوة والنجاة^(١).

وجمع أبويه واخوته تحت جناحه وأمام ناظره يعولهم ويرعاهم، فوعد الله قاطع، وسنته جارية بنصر وفوز أنبيائه ورسله أئمة المتوكلين فهم حزب الله الغالبون، وإن خسروا بعض المواقف والمشاهد لحكمة يعلمها الله تعالى، ولكن الفوز حاصل، وإنما هو قدر يجريه الله تعالى لمن اتصف أنه من جند الله، ومن كانت أحواله مستقيمة فليبشر بالغلبة والنصر المؤزر العزيز. قال تعالى في هذا المعنى السابق: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمرْسَلِينَ﴾ ^(١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ^(٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ^(٣) ^(٤).

فهذه ظاهرة عامة ملحوظة في جميع بقاع الأرض، في جميع العصور، وإن طال الزمان أم قصر، وهي كذلك متحققة في كل دعوة، يخلص فيها الجند، ويتجرد لها الدعاة، إنها غالبية منصوره مهما وضعت في سبيلها العوائق، وقامت في طريقها العراقيل، فهي أفغانستان، البوسنة والهرسك، كوسوفا، وستاتي الشيشان في الطريق بالفوز والغلبة والنصر بإذن الله مهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار والغازات السامة، وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة وماهي إلا معارك تختلف نتائجها فيوم لك، ويوم عليك، ولكن ينتهي اليوم الذي لجند الله وحزبه بالوعد الذي وعده لهم ولرسله الذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه، الوعد بالنصر والغلبة، والتمكين هذا الوعد وإن طال حدوثه، فهو من سنن الله الكونية الماضية، كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دورانها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء، ومتى يشاء ليمتحن ويبتلي حزبه، تبطيء أثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة، ولكنها لا تتخلف أبدا ولا تتخلف، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر؛ لأنهم يطلبون

(١) انظر: لابن الجوزي، زاد المسير، (٤/١٩٩-٢٤٥).

(٢) سورة الصافات، آية: ١٧١-١٧٢-١٧٣.

المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين .

فما نراه من قوى الحرب ضد المسلمين، وضد من يقول لا إله إلا الله إلا نصر للمسلمين عامة فهم لا يقومون بهذه الحرب إلا من خوفهم من المسلمين والإسلام، ولأنهم يعلمون علما يقينا أنهم منصورون، وأن ما يقومون به من محاولات للفتك بالإسلام والمسلمين واستنزاف الأموال والأنفس، ومكرهم لاطائل من ورائه؛ لأن مكر الله أشد وأبقى" (١).

فالمؤمنون جميعهم يريدون صورة معينة من صور النصر والغلبة، ولكن الله تعالى يريد لهم الأكمل والأبقى من النصر والفوز فمثلا أراد المؤمنون في غزوة بدر أن تكون العير لهم، ولكن أراد الله لهم أن تفوتهم تلك العير والقافلة الراحلة الهينة، ويقابلوا النفير ويقاثلوا الطائفة ذات الشوكة فكان ما أراد الله من الخير للإسلام والمسلمين، فنصر وغلب القلة على الكثرة، والحق على الباطل، وكان هذا هو النصر الذي بقي لجند الله ولدعوته على مدى الأيام.

قد يقسو البلاء ويعظم ولكن يهيء الله تعالى النصر في مجال أوسع وفي زمن أطول فالمؤمن المتوكل يعلم أن الله حكيم في ما يدبره رحيم في أفعاله ولن تكون ثمار التوكل مجدية نافعة إلا باستقامة العبد وصلاحه توحيده وذلك بجمع علم القلب وعمله فالتوكل على الله من أقوى الأسباب في استجلاب المنافع ودفع المضار "فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معطل مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل" (٢).

فهذه الثمرة النافعة هي من ثمار شجرة التوكل على الله، فلعلها تكون حافزا قويا للاعتماد والاستعانة، وللجوء للحي القيوم الفرد الأحد الصمد في كل الأمور والأحوال .

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣٠٠٢/٥).

(٢) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (١٢٠/٢).

المبحث الثاني عشر

التسليم للقضاء والقدر

إن من أعظم الثمرات التي يجنيها المتوكل على الله سبحانه هو التسليم للقضاء والقدر، فيجب الإيمان بقضاء الله وقدره، فلا يتم إيمان العبد حتى يؤمن بقضاء الله وقدره، فجميع ما جرى في الآفاق وفي الأنفس من خير أو شر فهو مقدر من الله تعالى ومكتوب وبارادة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^(١).

فإن الله تعالى فعال لما يريد وليس شيء يخرج عن تقديره ولا يصدر إلا عن تدبيره فخلق الخلق وأفعالهم وقدر أرزاقهم وله حكمة في قضائه سبحانه فعلياً أن نؤمن بذلك.

فالدین كله علم بالحق وعمل به، والعمل لا بد فيه من اليقين والتوكل والرضا والتسليم للقضاء والقدر ولن يذوق المؤمن طعم الإيمان إلا إذا سلم ورضي بالقضاء والقدر. عن العباس بن عبدالمطلب قال: قال النبي -ﷺ-: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً"^(٢).

فالتسليم للقضاء والقدر والتوكل مخرجهما واحد ألا وهو القلب ولكن التسليم للقضاء والقدر ثمرة من ثمار التوكل على الله.

فالمؤمن المتوكل على الله يعلم أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله تعالى ويسلم بأقدار الله تعالى فلا يقلق بفوات المحبوب أو حصول المكروه فكله بقدر الله.

(١) سورة الفرقان، آية ٢.

(٢) صحيح مسلم، ٣٤ كتاب الإيمان.

قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ٢٣ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٤﴾ (١).

ففي الآية إخبار من الله تعالى عن قدره السابق في خلقه وأردف ذلك بتهوين المصائب على المؤمنين حتى يكون لهم الإطمئنان (٢).

إن عقيدة التسليم بالقضاء والقدر ترتبط ارتباط وثيق بخلق وعقيدة التوكل؛ لأن العقيدة الصحيحة في قضاء الله وقدره المستندة على الأدلة الشرعية تدفع المؤمن للعمل في سبيل مرضاة ربه مجاهداً في سبيله، يقول الحق، ولا يبالي بأحد، لا يخاف في الله لومة لائم لإيمانه الجازم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وبهذا الإيمان انطلق سلف الأمة الإسلامية، وشحن نفوسهم على الإقدام لفتح البلدان، ينشرون الإسلام والقرآن في ربوع الأمم، فكان إيمانهم بالقضاء والقدر دافعاً لهم إلى العمل المستمر في نشر دين الله، فلا يقلقون لحصول مكروه أو فوات المنشود؛ لأن ذلك بقدر الله الذي له ملك السموات والأرض، وهو سبحانه فعال لما يريد، ولا يكون شيء إلا بإرادته، ومشينته خالق الخلق، وأفعالهم، ومقدر أرزاقهم وأجالهم.

قال تعالى: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣).
وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٤).

(١) سورة الحديد، الآية ٢٢-٢٣.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/٤٨٩).

(٣) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

(٤) سورة القمر، آية: ٤٩.

فالمرء يرضى بقدر وقضاء الله وذلك من تمام الرضا بربوبيته سبحانه وتعالى، فمن لم يرض ويسلم لقدر الله وقضائه فكأنما رفض ربوبية الله تعالى وعصاها، والتسليم هو سرور بمر القضاء، مع ارتفاع الجزع في أي مقدر كان، ورفع السخط بطيب نفس^(١).

ففي التوكل على الله استغناء عن الناس بطلب العمل والتسليم لقدرة الله على إنجاز كل ما يريد وفوق ما يريد^(٢).

فالْمُؤْمِنُ يَمْضِي عَلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي عِلْمُهَا وَعَرَفُهَا مِنْ أَنْ الْكَمَالَ الْأَعْلَى اللَّهُ تَعَالَى، وَأَنْ كُلَّ عَمَلٍ لَا يَحْدُثُ وَلَا يَقْدِرُ لَهُ إِلَّا وَلَهُ حِكْمَةٌ إِلَهِيَّةٌ، وَإِذَا غَابَتْ عَنْهُ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ عَرَفَ الْمُؤْمِنُ جَهْلَهُ أَمَامَ عِلْمِ اللَّهِ وَتَرَكَ الْإِعْتِرَاضَ وَالتَّسْخِطَ فَكُلُّ مَنْ آمَنَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ نَرَاهُ حَرِيصًا عَلَى مَعْرِفَةِ أَقْدَارِ الْخَيْرِ لِيُدْفَعَ بِهَا أَقْدَارُ الشَّرِّ، بِهَمَّةٍ وَيَقِينٍ وَسُرْعَةٍ عَمَلٍ فَهُوَ يَدْفَعُ قَدْرَ الْجُوعِ بِقَدْرِ الطَّعَامِ، وَقَدْرَ الْمَرَضِ بِقَدْرِ الدَّوَاءِ، وَقَدْرَ الْفَقْرِ بِقَدْرِ السَّعْيِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، فَهَذِهِ الْأَعْمَالُ تُوْدِي بِصَاحِبِهَا إِلَى الْقَنَاعَةِ وَعَدَمِ الْأَسَى لِمَا يَفُوتُهُ، وَإِلَى التَّحَمُّلِ وَالصَّبْرِ وَالتَّسْلِيمِ وَالمُثَابَرَةِ.

فَمَنْ آمَنَ بِقَدْرِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ عَمَلٌ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ وَاسْتَطَاعَتِهِ فَلَا يَأْسَى عَلَى مَافَاتِهِ وَلَا يَصِيبُهُ الْيَأْسُ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْمَصَائِبِ، وَلَا يَفْتَخِرُ، أَوْ يَتَكَبَّرُ مَهْمَا أُوتِيَ مِنْ حُظُوظٍ مُؤْمِنًا بِقَوْلِهِ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلُ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٣) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٣١﴾^(٣).

(١) انظر: للجرجاني، التعريفات، ص ١١١؛ وللمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص ١٧٨.

(٢) ابن مفلح، الآداب الشرعية والمنح المرعية، (القاهرة: مؤسسة قرطبة، نط ١٩٨٧م)، (٢٧٠/٣).

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٢-٢٣.

والقرآن الكريم عرض حقائق جامعته بأدلة واضحة سهلة لاتعقيد فيها ولاغموض من أوامر ونواه، أخلاق، وآداب، وقصص، وغزوات، وأحكام.

فالمؤمن يقف عند كل عرض منها وهو خاشع، متأمل يخرج من هذا التأمل والخشوع بإيمان يشرق على جوانب النفس كلها فتتبت عقيدة تنفذ إلى العقل، وتطمئنه، وإلى القلب فتزهده وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها للعمل طائعة راضية، مستسلمة، متوكلة تشعر بوجود القوة الإلهية معه، ويلجأ إليها عند الشدة تلك القوة التي تتقده من الأزمات، فالمؤمن يشحن نفسه ويملؤها بالإيمان واليقين والثقة في الله.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿١﴾.

ولنأخذ مثالا على التسليم بالقضاء والقدر وشحذ الهمم وأثر التوكل عليهما في المؤمن الذي لاحقه الاضطهاد، والتعذيب الجسدي والنفسي وازداد عنفا وشراسة عند وفاة سنده العاطفي، والاجتماعي، وكان الله أراد لهذه النفس المؤمنة أن تستعد للفجر القادم، فجر الإسلام الذي وضع خطواته رسولنا - ﷺ - في الدرب صوب المدينة، كان يعلم عليه الصلاة والسلام أن عمل الإنسان لا يستقيم إلا بصياغة العمل وانسجامه مع قدر الله وقضائه، والتناغم بينهما فبدون هذا التواصل لن تكون هناك حركة ولا عمل جاد، ولا مصير عظيم، فالرسول - ﷺ - يخطط، ويضع الضمانات، ويهيئ الإمكانات لنجاح العمل بين الأفراد والجماعات، فالرسول هاجر إلى المدينة بعد أن خرج من الطائف، وصد صدا عنيفا، لكنه لم ييأس، لأنه يعلم يقينا أن الخاتمة ستكون له، فقط إذا استمر على بذل جهده لتخطيط دولة ستعقب انتصارا (٢).

خرج ورفيق دربه معا يستكملان الخطة ويضعان الأسباب، ويتنزل وتتوالي الانتصارات مع بعض من الهزائم، ولكنها غير مؤثرة كثيرا، بل إنها كانت دافعا قويا للسير على النهج والخطة التي رسمها محمد - ﷺ - لأمته إن التواصل الرائع

(١) سورة الطلاق، آية: ٣ .

(٢) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، (القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٩٦٤م)، ص ١٢٨... وانظر: لعماد الدين خليل، دراسة في السيرة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، دار النفائس، ط ١٤٠٤هـ) ص ١٣٤-١٤٤ .

بين قضاء الله وقدره وإرادة وعمل المؤمن، وبين أن هدى الله وخطوات عباده الأبرار مكنت القادة المؤمنين من استكمال كل الأسباب التي منحهم الله إياها.

ففي تجربة الهجرة ينتزل النصر من الله، مرتيا محسوسا، ثلاث مرات، مرة عند مغادرته داره وقد أحاط أبناء المشركين بداره ليطيحوا برسول الله، ولكن لم تأت هذه اللحظة، فقد راح يقرأ رسول الله آيات من سورة يس وعبر هذا المانع والسد المنيع أغشى به الله أبصار المشركين.

ومرة ثانية عند الغار لقد رأى أبو بكر بأم عينيه نعال المشركين المطاردين تخفق عند أسفل الغار، فارتعد فرقا ليس على نفسه بل على رسوله الكريم ويجيء نصر الله تعالى بأن تطيش أبواب المشركين ﴿ثَانِيًا أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَجْعَلُ اللَّهُ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

ومرة ثالثة في الطريق إلى المدينة فقد اقتفوا أثره (بسراقة ابن مالك) الذي خلبت لبه الجائزة التي رصدتها قريش لمن يأتي بالرسول حيا أو ميتا، فتعثر سراقه بفرسه وتمرغ بالتراب، كلما اقترب من هدفه مرة أو مرتين فيطلب الأمان من رجلين من جنود الله فأنى له ما يريد؟، وقفل عائدا وكلما رأى أحدا يقتفي أثر رسول الله وصحبه رده قائلا: كفيت هذا الوجه، وذلك ماطلبه منه الرسول^(٢).

فهجرة الرسول تعلمنا كيف يكون العمل مع القضاء والقدر، وهو المثل الأعلى في ذلك، كذلك المؤمنون عليهم أن يكونوا كرسولهم - ﷺ -، فأولوا الأبواب لا يغضون أعينهم ولا يصرفون وجوههم عن الأدلة الواضحة ولا يغلقون عقولهم عن تدبر آيات الله وأحاديث رسوله والنظر في أحوال الناس قياما وقيودا، وهذا لا يتأتى إلا عن عقيدة صحيحة سليمة، وباطن سليم، وظاهر صالح.

(١) سورة التوبة، آية: ٤٠.

(٢) انظر: عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، وانظر لعماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص ١٣٤-١٤٤.

فالإيمان بالله والتوكل عليه لهما أثرهما على التسليم بالقضاء والقدر
وشحذهم المؤمنين الصادقين فهما محطات تزود بالوقود الإيماني الذي يعين على
السير لجميع الاتجاهات والطرق.

فالصحابة رضوان الله عليهم وعوا هذا وأدركوه، وتسبقوا لأجل
الفوز بالدرجات العلى والمديح من الله ورسوله - ﷺ - إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ ^(١)، نعم هذا الجزاء للمتوكلين فينبغي التمسك بهذا الحب، ونعمل
على أن نكون أهلاً لهذا الحب.

فليكن توكلنا مرضياً محبوباً لاسخوطاً مبغوضاً حتى تكون المصلحة والنفع
العام للفرد والمجتمع .

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩ .



الفصل السابع

التوكل على الله وأثره في تزكية الفرد والمجتمع

وفيه :

تمهيد .

المبحث الأول: أثر التوكل على الله في تزكية الفرد .

المبحث الثاني: أثر التوكل على الله في تزكية المجتمع.

الفصل السابع

التوكل على الله وأثره في تزكية الفرد والمجتمع

التمهيد :

إن التزكية عملية تنمية الخيرات والبركات ... وبزكاء النفس وطهارتها يستحق العبد أوصافا محمودة في الدنيا وفي الآخرة بالأجر والمثوبة^(١).

والتزكية ليست نوعا واحدا، ولا شكلا واحدا؛ لأن الناس مختلفون على وجه الأرض، فكان لكل جماعة نوع من التزكية التي تختلف أسسها وأهدافها حسب المقتضيات الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢).

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾^(٣).

إن من أكرمه الله واصطفاه بالحكم والنبوّة هو من يرب الناس ويقوم بإصلاح وإتمام الأمر شيئا فشيئا، أو حكماء وعلماء وفقهاء معلمين^(٤)، يأخذ بيدي الأفراد والجماعات إلى التربية الإيمانية الصادقة، ويحرروهم من عبودية الأهواء؛ ليعتصموا بعبودية الله وحده ويطهروا أعمالهم ويزكوا نفوسهم، فهذه هي مهمة الرسل الأساسية التزكية، وتعليم الكتاب والحكمة.

(١) انظر: الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢١٨.

(٢) سورة الجمعة، آية ٢ .

(٣) سورة آل عمران، آية: ٧٩ .

(٤) انظر: الطبري، جامع البيان، (٢/٢٨٠)؛ البغوي، معالم التنزيل، (١/٤٩٨).

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

"لقد تطول الله على المؤمنين حين أرسل فيهم رسولاً ... من أهل لسانهم ... يقرأ عليهم أي كتابه وتنزيله ... ويطهرهم من ذنوبهم بإتباعهم إياه وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم ويعلمهم كتاب الله الذي أنزل عليه، ويبين لهم تأويله ومعانيه ويعلمهم السنة التي سنّها الله تعالى للمؤمنين على لسان رسوله - ﷺ - وبيانه لهم"^(٢).

فالتزكية في الإسلام هي تبليغ للشيء وتحديد للهدف يسير بها المربي شيئاً فشيئاً، وهي مستمرة لبلوغ الهدف الأعلى في حياة الناس جميعاً.

ونعلم يقيناً أن الدين الإسلامي بعقائده، وعباداته، وحقائقه، وأخلاقه وكل ما جاء من عند الله هو من أكبر الدلائل القاطعة الضرورية الدالة على أن الله هو الحق ورسوله حق ودينه حق، وما عارض ذلك هو الباطل؛ لأنه يدعو إلى الإيمان الصحيح بالله تعالى، وبأوصافه، وأسمائه، وبكل كتاب أنزله، وبكل رسول أرسله، وبكل حق أخبر الله به ورسوله، وذلك يوجب كمال الإخلاص والقيام بعبوديته، والتبري من الشرك كبيره وصغيره، فإذا نظرنا إلى أخلاق الإسلام رأيناها تحت على كل خلق جميل، وتحذر من كل خلق رذيل وتدعو إلى القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، وبالمعاملة الحسنة، ومن تأمل هذا الدين رآه يدعو إلى الصلاح والرشد والفلاح، والتربية السليمة والتزكية السلوكية.

وكتاب الله وسنة رسوله كفيلا ببيان ذلك كفاية تامة، فالآيات والبراهين، والأمثال، والقصص، والحوادث التي تدل على أنه محال أن يحصل صلاح حقيقي إلا بالإسلام، وتطبيق تعاليمه، ولا سبيل للبشر إلى الخير والسعادة إلا بهذا الدين،

(١) سورة آل عمران، آية ١٦٤.

(٢) الطبري، جامع البيان، (٣٥٨/٢).

يأمر بتوحيد الله، والإيمان به، ويحث على العلم والمعرفة، والإذعان، والتوكل، والإنابة لله تعالى، ويأمر بالعدل والصدق في الأقوال والأعمال والأفعال، ويأمر بالرضا بما قسمه، وأنزله الله، ويأمر بالنصح لله تعالى ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويأمر بكل معروف وينهى عن كل منكر في الأقوال والأفعال.

وقد أشرنا إلى أن التوكل على الله هو تفويض الأمر إلى الله تعالى وذلك باستيقان قدرته تعالى على قضاء الأمور، مع بذل الأسباب لقضاء هذه الحاجات، والتخلي عن التعلق بهذه الأسباب، والتعلق برب الأرباب، والمؤمن عندما يعيش يمارس هذه الحقائق الكبرى تطمئن نفسه، ولا يقلق بكثرة الخوف والانشغال على رزقه، والإنسان المؤمن عندما يصل إلى هذا المستوى من الشعور، يدل هذا على مقدار إيمانه بصفة الرزاق، وهو مدخل رئيس لصفة التوكل؛ لأن أكثر ما يشغل الناس في معاشهم قضية الرزق.

والتوكل على الله في الأعمال الصالحة من أشرف أنواع التوكل على الله إذ أن القائم فيها لا يبتغي عرضاً من أعراض الدنيا، بل هو يريد وجه الله تعالى، ولا يمكن لإنسان أن يتوكل على الله حق توكله حتى يستشعر دوماً رقابة الله عليه، مما يجعله يستحي أن يفوض أمره لغيره، وهو يؤمن بقدرته على قضاء حوائجه، فالمؤمن يجاهد نفسه، ويربّيها على التحمل، وكسر الهوى، ومغالبة الشيطان .

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

" علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبيل رضاه الموصل إلى جنته، ومن ترك الجهاد فإنه من الهوى بحسب ما عطل من الجهاد" (٢).

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٩ .

(٢) انظر: لابن القيم، الفوائد، ص ٧٨ .

المبحث الأول

أثر التوكل على الله في تزكية الفرد

لقد اهتم القرآن الكريم، والسنة المطهرة بتزكية الإنسان تزكية جسمية عضوية، وعقلية وتزكية سلوكية أخلاقية، وقبل كل شيء تزكية الجانب الروحي في الإنسان.

لأن التزكية الإسلامية تقوم على عقيدة سليمة صحيحة وهي الإيمان بالله خالقا واحدا ومعبودا.

وقد ربط الإسلام بين جانب العقيدة منه، وبين الأخلاق والعبادات التي ارتضاها لأتباعه ربطا وثيقا، وذلك يبدو واضحا من خلال القرآن الكريم، والسنة الشريفة فقد ربط القرآن الكريم بين لفظ الإيمان والعمل الصالح في كثير من آياته نحو قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٣). وغيرها الكثير من الآيات.

كذلك ربط بين الإيمان وبين الأخلاق التعبدية والعملية من ذلك :

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥ .

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٧ .

(٣) سورة النساء، آية: ١٢٢ .

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣).

فجميع العبادات والأخلاق تمتاز بالشمول في علاقة الإنسان بخالقه، وعلاقة الإنسان بنفسه، وبني جنسه، بل ويمتد ليشمل علاقة الإنسان بكل عناصر الكون من حوله.

فالإسلام يزكي ويربي الفرد على العناية بالجانب الجسدي منذ القدم ومنذ عهد الرسول الكريم -ﷺ- وذلك بأن يتوكل على الله تعالى في وجوب حماية جسمه وعدم التعرض لجسمه للهلاك، وذلك عن طريق الغذاء والرياضة ففيهما قوة للجسم وقد وجه الإسلام لذلك .

" فعن عقبة بن عامر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -ﷺ- ، وهو على المنبر يقول: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي" (٤) .

(١) سورة المائدة، آية: ٩٣ .

(٢) سورة الحشر، آية: ١٨ .

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧٧ .

(٤) مسلم (١٥٢٢/٣)، ح ١٩١٧ كتاب الإمارة .

والتوكل على الله يزكي في المسلم القوة والعزيمة على العمل والسير على خطى ثابتة جادة (فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة")^(١).

وفي التوكل على الله تركية عقلية وهو أنه إذا علم المؤمن أن في أموره كلها سواء منها الخير أو الشر له فيها أجر، سر لذلك وعقله؛ لأنه يعلم أن المانع والمعطي للخير والشر هو الله فإذا قر ذلك في القلب تقبل المؤمن كل ماتأتي به الأيام بصبر جميل، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٢).

فالمؤمن لا يخاف من المصائب والأقدار، إنما يخاف من الذنوب والسيئات "فعن صهيب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"^(٣).

والمؤمن بهذا يوجه فكره - في آيات الله - في كل ما يحويه الكون وما يضمنه ويعلم أن الله خلق ما في الكون له، وسخر مظاهر الكون للإنسان وهذا التسخير ليس معناه مجرد النظر السطحي وإنما يستلزم منه اكتشاف ما في الكون والعمل بجد واستعانة بالله وتوكلا عليه للتغلب عن معادن وطاقات وخامات تقيد الإنسان في حياته ويسمو المسلم بإيمانه وإنجازاته العلمية والعملية ويرتقى بمجتمعه إلى أفضل وأحسن المراتب الدينية والدنيوية.

والتوكل على الله باعتباره من الآداب التي تميز سلوك الإنسان عن سلوك البهائم سواء كان في تحقيق حاجاته الطبيعية، أو علاقاته مع غيره من الكائنات الأخرى، فجعل الإسلام للتوكل ثوابا، وعقابا.

(١) صحيح البخاري، ص ١٢، ح رقم (٣٩)، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٧.

(٣) سبق تخريجه، ص ٢٥٥، ص ٢٩٥.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١).

فكل من توكل على الله فهو كافيه، ومن لم يتوكل عليه فهو كذلك سيجازيه. فيعاقب الناس لسوء توكلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾^(٢)، لأنهم ظلموا أنفسهم أولاً بكفرهم وشركهم بالله وما يتبعه ذلك من كفر وشرك في الأعمال والأقوال وتخطيهم في توكلهم على ربهم سبحانه بعدم توكلهم على ربهم، ويثيب الأبرار. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^(٣)، نعم الأبرار المؤمنين الذين عملوا بما أمروا نهوا عنه، توكلوا على الله وتركوا ماسواه، وأحسنوا ظنهم بالله تعالى.

وللتوكل على الله أثره البناء، وهو أن كل مؤمن يعمل العمل ويتقنه ويراقب الله تعالى فيه.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

فمرآة الله للعبد وعلمه بذلك يجعله يبذل قصارى جهده ليطم عمله في أتم وأكمل صورة وبالتالي يأتي الكمال.

وقد أخبر الله أنه الصانع المتقن. قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^(٥).

(١) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٢) سورة يونس، آية: ١٣.

(٣) سورة الانفطار، آية: ١٣.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٥.

(٥) سورة النمل، آية: ٨٨.

فالله سبحانه أتقن كل ما خلق وأجاد الصنع، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ومع ذلك فهو عليم بما يفعل عباده من خير أو شر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء؛ لأن اتقان الصنع أثر من آثار سعة العلم الذي بعلمه أتقن كل شيء هو خبير بما يفعل الخلق^(١).

والتوكل على الله يزكي في المؤمن السلوك القويم العملي الواقعي، فالتسليم، والرضى، والإنابة والصدق في التوكل كلها أمور عملية وإن كانت قلبية، فهي تجسيد للسمو الروحي والنقاء النفسي والتقوى.

فالتوكل على الله هو خلق إسلامي لتبعية حتمية تلقائية لمحبة الله تعالى.

والتوكل على الله يزكي في المؤمن الالتزام والاستمرارية في العمل حتى ينال المنشود والمطلوب من الفوز والنجاح.

قد يخسر المؤمن ولكن بالاستمرار وبالإيمان النابع من القلب تعود نفس المؤمن للاستمرار في العمل والمنافسة فيه.

والتوكل على الله يزكي في المؤمن الشمولية والعمومية بمعنى أنه يتوكل على الله في أدق الأمور وأكبرها دينية أو دنيوية، اقتصادية، أو اجتماعية.

وقد أشرنا إلى أن التوكل له مجالات متعددة فهو إذا شامل في كل مجال وفي كل اتجاه.

فالتوكل على الله مجالاته متنوعة متعددة كما أشرنا إلى ذلك.

التوكل على الله يزكي العمل المستمر الدائم.

التوكل على الله فيه التنافس.

التوكل على الله فيه العبادة.

التوكل على الله فيه الصلة بين الإنسان وخالقه.

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، (٥/٥٨٥)؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/٦٠٣).

التوكل على الله وسيلة لغاية نبيلة .

فمن هنا كان للتوكل أهمية عظيمة، فينبغي للفرد والمجتمع أن يتعودوا على فعله، فهو خلق تعبدى يتقرب به العبد المؤمن إلى الله تعالى، فلا بد من مجاهدة، ورياضة النفس حتى تستطيع العمل بهذا الخلق العظيم، فالتوكل على الله لا بد له من الإخلاص إذ التوكل يربي كذلك الإخلاص لله تعالى، والاستقامة له، والثقة فيه، وكلة الأمر إليه، والإنابة والخضوع، والتذلل للعلي القدير.

ورسولنا - ﷺ - المثل الأعلى، والقدوة الحسنة وقد ربي أصحابه ومن تبعهم ومن نهج على نهجهم تربية عظيمة لها أثارها الراسخة إلى يومنا هذا وتمسكنا بكتاب الله وسنة رسوله - عليه السلام - المثل الأعلى، فهو السلوك التطبيقي، وصحبه لهذا المنهج الإسلامي يحس ويشاهد .

" في واقع الأرض يرونه، وهو بشر تتمثل فيه هذه الصفات والطاقات الخيرة كلها، فيصدقون هذه المبادئ الحية، لأنهم يرونها رأي العين، لا يقرأونها في كتاب، يرونها في بشر تتحرك لها نفوسهم، وتهفو لها مشاعرهم ويحاولون أن يقتبسوا قبسات من الرسول كل بقدر ما يطيق أن يقتبس، وكل بقدر ما يحتمل كيانه الصعود، لا يياسون، ولا ينصرفون، ولا يدعونه حلما مترفا لذيذا يطوف بالأفهام لأنهم يرونها واقعا يتحرك على الأرض، ويرونها سلوكا عمليا لا أماني في الخيال؛ لذلك كان رسول الله - ﷺ - أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل كان مربيا هاديا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطبق به، سواء في ذلك القرآن المنزل، وحديث الرسول - ﷺ - " (١).

ذلك أن الله قد رباه وأدبه فأحسن نماءه وتركيبته فكان المثل الأعلى في الكمال

البشري.

(١) انظر: لمحمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ص ١٨٣.

فهو أعظم المتوكلين، وسيدهم؛ لأنه على الإخلاص رباه تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾^(١).

هكذا كان رسول الأمة متوكلاً مخلصاً لله تعالى - ترك التوكل فيه معنى الإخلاص لله وحده، ولا يطلب لعمله شاهداً سواه سبحانه يتبرى عن كل مادون الله^(٢)، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ...﴾^(٣)، كذلك المؤمن المتوكل يتلبس التوكل شخصيته وسلوكه ليبلغ أكمل درجة في الإيمان حتى تتكامل النية والفعل.

كذلك ربي التوكل في رسول الأمة محمد - ﷺ - معنى الاستعانة، فلم يطلب - ﷺ - العون من أحد إلا من ربه فالعبد أيا كان محتاج إلى الله في فعل المأمورات وترك المحظورات فلا معين على مصالح الدين والدنيا جميعاً إلا الله عز وجل فهو المعان والمتفرد بالتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع فيوجب هذا الاستعانة به وتقويض الأمر إليه طمأنينة به، وثقة به، وبقينا بكفايته^(٤).

قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٥).

كذلك ربي التوكل في النبي الأمي لزوم الاستقامة ولزوم المنهج القويم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلُّوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٦)، فاستقام في أقواله وأفعاله وأحواله ونياته، وبالتالي استقامت جوارحه فلم يلتفت إلى غير الله فصار على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبه وإرادته ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه^(٧).

(١) سورة الزمر، آية: ١٤ .

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص ١٣-١٤؛ وللراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ص ١٥٤.

(٣) سورة الزمر، آية: ٣ .

(٤) انظر: لابن رجب، جامع العلوم والحكم، ص ١٨٢؛ ولابن القيم، مدارج السالكين، (١/٩٤).

(٥) الفاتحة، آية: ٥ .

(٦) الأحقاف، آية: ١٣ .

(٧) انظر: لابن رجب، جامع العلوم والحكم، ص ١٩٣-١٩٤.

كذلك زكى في النبي الكريم الاعتصام والتمسك بعهد الله والوقوف بوعدده سبحانه الذي لا يخلفه ابداً.

فالتمسك بالقيام بما أمر به يفضي إلى حماية الله لعبده من أي سوء يقع به في أمور الدنيا أو الآخرة.

قال تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١).

كذلك ينمي التوكل في المؤمن الإنابة ويجعلها خالصة لربه في كل أمر من أموره فאלله مرجعه في كل شيء^(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾^(٣).

ويزكي وينمي التوكل المؤمن على التقوى، وحسن الظن بالله فلا يحذر إلا الله ولا يتوسل ولا يدعو إلا ربه المتعال، فيفر إلى الله في سرائه وضرائه.

يرضى بالقليل ويقنع به يعمل ويكد بيقين إنه لن يأخذ من هذه الدنيا البالية إلا ما كتبه الله له.

"فعن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - رجل فقال: يا رسول الله، دلني على عمل، إذا أنا عملته، أحبني الله وأحبني الناس، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "إزهد في الدنيا يحبك الله، وزهد بما في أيدي الناس يحبوك"^(٤).

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) للأصفهاني، المفردات، مادة (نوب)؛ وللجرجاني، التعريفات، ص ٣٩.

(٣) سورة الزمر، آية: ٥٤.

(٤) ابن ماجه (٤١٠٢) وصححه الألباني، صحيح ابن ماجه برقم (٣٣١٠).

فالتوكل على الله يكبح جماح النفس إلى الشهوات، وعلى الانقطاع إلى الله بالكلية فيتصل القلب به إنابة وحبا وخوفاً.

هكذا فالإيمان وحده هو الذي يوصل صاحبه بمصدر القوة الذي يملأ النفس ثقة حتى تفيض، وتنضح بالخير والزاد الكثير النافع دنيا ودين.

فالعقيدة الصحيحة يتبعها السلوك الصحيح ومن هذا ينبوع الدافئ ارتوت الحياة بمفاهيم الأخلاق التعبدية التي رسمها القرآن لتركية النفس والمجتمع، وأصبحت الحرية الإنسانية، والمسئولية أمام الله، والحب العميق لله كلها معاني لا يصدر عنها إلا الخلق القويم والسلوك المستقيم الذي أمر الله به ورسوله الكريم ﷺ. فالإنابة والتضرع، والخضوع والاعتصام، والتوكل على الله عنوان صدق على صدق الإيمان في النفس الإنسانية وسلامة الاعتقاد في الله، وبدون هذا الإيمان تصبح الأخلاق التعبدية والسلوكية لفظاً لا مفهوماً له ولا حقيقة.

وبهذا فالإسلام يزكي في النفس أخلاقاً تجعل حياة الفرد أكثر استقامة وتجعل المجتمع أشد تماسكاً، وتتحقق الأخلاق الفاضلة في سلوكنا، وتستمر وتتضبط الأعمال.

ويصبح الفرد ذا حضارة متجاوبة مع عقيدته ودينه سليماً من كل الأمراض والانحرافات.

المبحث الثاني

أثر التوكل على الله في تزكية المجتمع

إن الإيمان قوة عاصمة عن المحرمات، دافعة إلى المكرمات من الأعمال والأقوال، وقد وضع صاحب الرسالة -ﷺ- أن الإيمان القوي يلد الخلق القوي في الفرد ومن ثم في المجتمع السوي في سلوكه وأخلاقه .

فبذلك يمضي ذاك المجتمع في غرس البذور ويتعهدا حتى تؤتي ثمارها، معتمدا على صدق الإيمان وتوابعه .

فمن ذلك البذر عقيدة وخلق التوكل على الله تعالى إذا غرس في المجتمع من خلال أفرادها فيجب ألا يغيب عن أي مجال من مجالات الحياة وعن أي عمل من أعمال المسلم.

فالبواعث التي تعرضنا لذكرها والتي كان لها أثر في تعميق التوكل على الله في نفوس المؤمنين، والموانع التي تضعفه والثمرات اليانعة الجدير بالمجتمع المؤمن أن يحافظ عليها ليسموا إلى الأفق ويكون مجتمعا قويا ملتزما بمنهج الله ورسوله -ﷺ-.

فانطلق المجتمع المؤمن في عهد رسولنا الكريم -ﷺ- وأقدم على البلدان، ينشرون الإسلام في ربوع الأمم .

فالصحابة رضوان الله عليهم أدركوا في دواخلهم القلبية مالت للتوكل من أثر اجتماعي يربطهم بالإيمان.

قال تعالى : ﴿ اذْهَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

فبحسب توكل العبد يزيد الإيمان وينقص. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٣).

فيظهر من خلال الآيات إرباط التوكل بالإيمان ومن لوازمه وشروطه فالمجتمع المؤمن يوقن ويثق بالله تعالى ويتعلق بذلك قلبه فيطمئن ويسكن لقضاء الله وقدره وأحكامه وتدبيره، لأن كل شيء بيد الله من نفع وضرر، فيتركون الأمر إليه سبحانه، فيزرع ذلك في نفوسهم القوة والسعادة التي يتغلبون بهما على مايتعرضون له من مصائب ومحن فيعتمدون على خالقهم المتصرف في الملك وحده يرغبون إليه، يلوذون بكنفه، يستنصرون به سبحانه، وبالتوكل على الله تزداد العزيمة وقوة الإرادة.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران، آية ١٦٠.

(٢) سورة المائدة، آية ٢٣.

(٣) سورة الأنفال، آية ٢.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

ويظهر أثر التوكل على الله في المجتمع حين تقوى صلته بربه فيصبح ملتجأ إليه مستعيناً به منيباً متسلماً معتصماً متمسكاً بأوامر الله ملتزماً بشريعة وسنة الرسول الكريم ﷺ.

وعلى هذا ترعرع وتربى ونمى مجتمع الصحابة ومن تبعهم فكانوا أهلاً لحمل لواء الإسلام والدعوة إلى الله فكانت بهم الأمة المسلمة التي حققت صفات سامية وأخلاق عالية.

وبالتوكل على الله تحقق لهم القيادة والريادة ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها وكان شعارهم "حسبنا الله ونعم الوكيل" فالإسلام يدعو إلى فضيلة أخلاقية وعقدية هامة في الحياة الاجتماعية ألا وهو التوكل الذي نحن بصدد ذكره فهو يجمع أموراً ذكرناها في تركية الفرد فمتى ماتمسك بها الأفراد ساد في المجتمع الأمل والرجاء والرضا والصبر والعزيمة والقوة والفوز والغلبة يكونون يداً واحدة ضد أعدائهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

وبهذا لا يستطيع المجتمع وقف المحن والمفطعات إلا بالإلتفات إلى من له الحول والقوة والنصر.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾^(٢).

(١) سورة الأنفال، آية ٤٩ .

(٢) سورة التوبة، آية ٢٥ .

ضاقت عليهم الأرض على سعتها وولوا مدبرين وثبت - ﷺ - فخرجوا
المؤمنين بدروس وعبر من هذه الغزوة^(١) أن النصر بيده سبحانه ومشروعية الأخذ
بالأسباب في كل الأعمال^(٢).

وبهذا ينبغي أن نعي ونذكر أن المجتمع يسموا بسموا الفرد بمدى تمسكه
بالتزكية الأخلاقية والتنظيم الأخلاقي فمتى مصلح الفرد صلح المجتمع .

(١) غزوة حنين .

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، (٩٨-٩٥/٤).

الخاتمة

الخاتمة

أحمدك اللهم حمدا يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك، الحمد لله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، الحمد لله على نعمه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى، الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشكرك على توفيقك لي لإتمام هذا البحث، هذا مايسر الله تعالى كتابته في هذا الموضوع المهم الواسع، وقد كان في النية أشياء وأشياء ولكن لم يتسع لها الوقت، وربما كان في الإنسان خلق معاجلةمنية بتحقيق الأمنية، ومما يلي أهم نتائج البحث :

- ١- إن التوكل على الله خلق عظيم يجدر بنا الحفاظ عليه والتمسك به في كل مجال من مجالات حياتنا ويكون نبراس طريقنا للمضي في هذه الحياة الدنيا.
- ٢- يتضح لنا من خلال هذا البحث أن التوكل على الله عقيدة وخلق في نفس الوقت للمؤمن .
- ٣- التوكل على الله له فضل عظيم لمن التزم به وتأتي ثمراته عاجلا أو آجلا.
- ٤- أن التوكل على الله فيه بذل وسعي للعمل وفي التواكل تخاذل وإهمال وعجز عن السعي .
- ٤- أن التوكل على الله خلق نبوي قديم جديد .
- ٥- أن التوكل على الله خلق المؤمنين الأخيار .
- ٦- لا بد من الإيمان أن ما أصابنا لم يكن ليخطأنا وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا.
- ٧- لا بد من الإيمان بالقضاء والقدر والرضى بما يحل علينا من مصائب وويلات.
- ٨- أن للتوكل على الله بواعث تحتنا عليه وتقربنا له .
- ١٠- كذلك للتوكل على الله موانع تبعدنا وتفقدنا الوصول إليه .
- ١١- أن للتوكل على الله ثمرات زاهية تضيء حياتنا باليمن والبركات .
- ١٢- أن للتوكل على الله آثاره التربوية على الفرد والمجتمع .

هذا وإن كان لي من رجاء أخير فهو التأكيد على موضوعات القرآن الكريم التي لازالت تفتقر إلى العناية والرعاية فحري بالمربين أن يلتفتوا ويلفتوا نظر طلاب العلم إلى ذلك، وأن مثل هذا الموضوع لا تكفي فيه القراءة العابرة، وإنما يحتاج إلى القراءة المتكررة الجادة بعقل وقلب حاضرين، والله يؤتي الحكمة من يشاء، والله أسأل التوفيق والسداد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

الفهارس

الفهارس

- ١- فهرس الآيات القرآنية .
- ٢- فهرس الأحاديث النبوية.
- ٣- فهرس الأعلام .
- ٤- فهرس المصادر والمراجع .
- ٥- فهرس المحتويات .



فهرس الآيات القرآنية

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	رقم الصفحة
{سورة الفاتحة}	٥	٢٩٩-٦٨-١٣٠
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾		
{سورة البقرة}		
﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾	٤	٢٠٦
﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾	٢١	٤٤
﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	٢٥	٢٩٣-٩٩
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	٣٤	٢١١
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾	٤٣	٩٨
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾	٤٤	٩٨
﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾	٤٥	١٣
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	٨٢	٤٧
﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾	١١٢	١٧٦
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا﴾	١٥٣	٢٥٩-١٣
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾	١٥٥	١٧٧
﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾	١٥٦	١٧٧
﴿أَوْ لَتِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾	١٥٧	١٧٧
﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾	١٦٣	١٩٦
﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ﴾	١٧٧	٩٩
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾	١٨٦	١٩٨
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ﴾	٢٠٦	٢١٢
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾	٢٠٧	٢٥٣-١٧
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	٢٨٢	٧٢
﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾	٢١٢	١٥٠

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾	٢١٤	٢٥١
﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ ﴾	٢١٨	٢٤٢-١٦
﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ ﴾	٢٤٨	٢٣٨
﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾	٢٤٩	٢٥٨-٢٣٣-١٧٦
﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾	٢٧٧	٤٩-٢٧٨-٢٩٤-٢٩٣-٩٩
{سورة آل عمران}		
﴿ اَلَمْ ءَلِهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾	٢، ١	١٩٤
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾	١٨	١٩٤-٧٢
﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلَا سَلَمٌ ﴾	١٩	١٩٤
﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾	٣١	١٨٤-٦٩
﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾	٣٢	١٨٤
﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾	٣٧	١٧١
﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾	٣٨	١٥٢
﴿ أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُونَ ﴾	٨٣	١٧٤
﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى ﴾	١٠١	١٥
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾	١٠٢	١٧٤
﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾	١٠٣	٣٠٠-١٥
﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾	١٠٤	٣٠٠
﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾	١٠٩	١١٥
﴿ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ﴾	١٢١	١٦٤-١٣٠-٢٨
﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ ﴾	١٢٢	١٦٦-١٣٠-١٠٠-٧٠-٦٠-٥٩-٣٨-٢٣
﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ﴾	١٢٣	٢٦٣-١٠٠
﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾	١٢٤	٢٦٣

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾	١٢٥	٢٦٣
﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾	١٢٦	٢٦٣
﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ﴾	١٤٠	٢٥٨
﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ﴾	١٤١	٢٥٨
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾	١٤٢	٢٥٨
﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ ﴾	١٤٦	٢٤١
﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾	١٤٧	٢٤١
﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾	١٥٢	١٣٢
﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنِ عَلَى أَحَدٍ ﴾	١٥٣	١٣٢
﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾	١٥٩	٣٧-١٨٣-١٣٣-١٢٦-٩٠-٢٥
﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾	١٦٠	-١٢٣-١٢٢-١٠١-٣٨-٢٥-٢٣
		٢٨٣-١٦٦-١٦٤-١٣٩-١٣٣
﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ ﴾	١٧٣	١٢٢-١١٤-١٠٧-٧٠-٥٩-٤٩-٢٤
		٢٨١-٢٥٦-١٨٢-١٦٧-١٣٤-
﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا ﴾	١٨١	١٩٨
﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾	١٨٩	٤٥
{سورة النساء}		
﴿ إِنْ أَلَّ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾	٤٠	١٤٤
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾	٦٥	١٧٨-١٧٥
﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا ﴾	٦٦	٢٤١
﴿ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾	٨١	١٣٥-٩٠-٥٥-٥٠-٢٥
﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾	١٠٢	١٤٦-١٢٧
﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا ﴾	١٠٤	٢٤٤-١٦
﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾	١٢١	٢٩٣

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾	١١٤	١٧
﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ ﴾	١٢٣	١٤٣
﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾	١٢٣	٢٢
﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِّنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ ﴾	١٢٤	٢٢
﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ﴾	١٤٦	١٥
﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾	١٧١	١٨٦-٢٤
﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم ﴾	١٧٤	٤٦
﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾	١٧٥	١٥
{سورة المائدة}		
﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ﴾	٩	٩٩
﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا ﴾	١١	١٦٤-١٣٥-١٠١-١٠٠-٥٣-٣٩-٣٧-٢٥
﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ ﴾	٢٣	١٠٦-٧١-٦١-٤٠-٢٨-٢٦-٢٣
١٨٧-١٣٦-١١٧		
﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ﴾	٩٣	٢٩٤
﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾	١١٩	١٨٢
{سورة الأنعام}		
﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾	٥٩	١٤٠
﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ ﴾	٦٥	١٩٨
﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾	٧٥	٢٠٦
﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ ﴾	٩٠	٩٥
﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾	٩١	٧٣
﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾	١٠٧	١٢٨
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ ﴾	١١٢	١٨٩-١٤٤
﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾	١٦٢	١٧٨

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾	٨٢	٤٥
﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾	١٣٢	٩٦
{سورة الأعراف}		
﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي﴾	٣٢	٣٤
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا﴾	٤٠	٢١٥
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	٥٤	٧٣
﴿قَالَ أَلَمْأَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾	٨٨	٢٦
﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا﴾	٨٩	١٢٤-٨٦-٢٦
﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾	١٢٨	١٣
﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ﴾	١٧٦	٨٨
﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾	١٨٠	١٩٣
﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾	١٩٩	٢٠١
{سورة الأنفال}		
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾	٢	١٠٧-٦٦-٦١-٥٨-٤١-٢٥
١٨١-١٦٢		
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ﴾	٩	٢٦٣-٢٣٤
﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾	١٠	٢٦٤
﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾	١١	٢٣٣
﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾	١٢	٢٣٣
﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾	٢٢	١٩٠
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا﴾	٢٤	٢٤
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ﴾	٤٥	٢٣٦
﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾	٤٦	١٥١
﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾	٤٩	١٨٦-١٣٧-٦١-٥٠

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾	٦٠	١٤٣-٢٢
﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ﴾	٦١	٢٦٥-١٦١-١٣٧-٩٠
﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾	٦٢	٢٦٥-١٣٧
﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ﴾	٦٣	٢٦٥
﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾	٦٤	٢٧٧-١٢٢
{سورة التوبة}		
﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾	٢٥	٢٣٤-٢٢٧
﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾	٢٦	٢٣٩-٢٣٤
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾	٣٣	٢٧٣
﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾	٤٠	٣٠٦-٢٣٩-٢٣٧
﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ﴾	٥١	٣٠٣-١٤٢-١٢٩-١٢٠-٨٢-٤٢-٣٨
﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾	١٠٠	٢٥٦-١٨٢
﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾	١٠٥	٢٩٦-١٥١-٣٠
﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾	١٢٩	٢٧٧-١٦٠-١٢٦-٧١
{سورة يونس}		
﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾	١٣	٢٩٦
﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ﴾	٢٢	٢٧٢
﴿فَلَمَّا أَنْجَلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ﴾	٢٣	٢٧٢
﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾	٦١	١٤٠
﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ﴾	٧١	٧٨-٧١-٦١-٥٦-٢٦
﴿وَقَالَ مُوسَى يَلْقَوْمُ إِنَّ كُنْتُمْ﴾	٨٤	٨٦-٧١-٦١-٥٧-٢٨
﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾	٨٥	٧١٠٨٦-٦١-٥٧

الآية	رقمها	رقم الصفحة
{سورة هود}		
﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا ﴾	٦	٢٠٩-١٩٩-١٤٩
﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ﴾	١١	٢٥٥
﴿ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾	٥٣	٢٦
﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرْنَاكَ بِبَعْضِ ﴾	٥٤	٢٦
﴿ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي ﴾	٥٥	٢٦
﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي ﴾	٥٦	٨١-٦٣-٢٦
﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا ﴾	٦٦	٢٦٧-٢٦٣
﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾	٨٨	١١٦-٨٣-٦٨-٦٢
﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾	١١٢	١٥٦
﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾	١٢٣	١٥٣-٩٠-٧٢-٦٣-٦٢-٣٠-٢٦
{سورة يوسف}		
﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾	٢١	٢٨٦-٢٧٠
﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾	٦٧	٨٢
﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ ﴾	٨٣	٢٤٨
﴿ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾	٨٧	١٢٤-١٢٣
{سورة الرعد}		
﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ ﴾	٢٨	٦٨
﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾	٣٠	١٦٣-١١٣-٩٢-٦٣-٢٨-٢٦
{سورة إبراهيم}		
﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ ﴾	٧	٢١٥
﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾	١١	١٠٣-٦٤
﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾	١٢	٢٦٩-١٥٥-١٠٣-٨٩-٦٤-٢٩
﴿ وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾	٥٢	٢٠١-٥٢

الآية رقمها رقم الصفحة

{سورة النحل}

٢١١-١٩١	٢٣	﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾
٦٤	٤٢	﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾
١٩٢	١٩٢	﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ ﴾
٢٣٠-٥١-٣١	٩٧	﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ ﴾
٦٤	٩٩	﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾
٢٩٥	١٢٧	﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

{سورة الإسراء}

٢٤٩	٥٥	﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾
٢٤٩-١٦	٥٧	﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾
١٨٧-٢٤	٦٥	﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

{سورة الكهف}

٣١	٢	﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾
١٢٠	٢٤	﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكُرُ رَبِّكَ ﴾
٣١	٣٠	﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾
٢١٨	١٠٤	﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

{سورة طه}

٤٤	٧	﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾
٩٧	٣٩	﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ ﴾

{سورة الأنبياء}

٩٦	٧٣	﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾
٢٧١	٧٦	﴿ فَتَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾
٢٧١	٧٧	﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ﴾

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾	٨٩	١٥٢
{سورة الحج}		
﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾	٣٩	٢٦٧
﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ﴾	٤٠	٢٦٧
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ ﴾	٤٦	١١٠
﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾	٧٠	١٣٩
{سورة المؤمنون}		
﴿ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾	٥١	٣٠
﴿ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴾	٥٧	١٢٥
﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ ﴾	١١٦	١٩٧
{سورة النور}		
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾	٣٩	٢١٨
{سورة الفرقان}		
﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾	٤٣	٢٢٧
﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ ﴾	٤٤	٢٠٥
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي ﴾	٥٨	٩٠-٧٧-٦٦
﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ ﴾	٧٤	١٥١
{سورة الشعراء}		
﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾	٧٩	١٤٥
﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾	٨٨، ٨٩	١١٠
﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾	٢١٤	٢٦٥
﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾	٢١٥	٢٦٥
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾	٢١٧	٢٦٥-١٦٠-٩١

الآية	رقمها	رقم الصفحة
{سورة النمل}		
﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾	٣	١٩
﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾	٦٢	٢٧٤
﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾	٧٩	٢٠٧-٩١-٥٨-٤٥
﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ ﴾	٨٨	٢٩٦
{سورة القصص}		
﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَاٰدُوهُ ﴾	٧	١٧٥
﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ ﴾	٥٠	٢٢٥
﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾		
{سورة العنكبوت}		
﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ ﴾	٥	٢٤٥
﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾	٥٨	٢٥٢
﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾	٥٩	٢٥٢
﴿ وَلَٰسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ ﴾	٦١	٤٤
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾	٦٩	٢٩٢
{سورة الروم}		
﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ ﴾	٢٩	٢٢٥
﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ﴾	٤١	١٩٢
﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾	٤٧	١٣٠
{سورة لقمان}		
﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾	٤	١٩
﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾	٧	٢١٥
﴿ وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ ﴾	١٨	٥٣-٥٢

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ﴾	١٩	٥٢
﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾	٢٢	١٧٩
﴿فَلَا تَعْرَنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾	٣٣	٢٢١
{سورة السجدة}		
﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾	١٦	٢٠٨
{سورة الأحزاب}		
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾	١	٢٩
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾	٣	٢٧٩-٩١
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ﴾	٢١	٢٥٠-٩٥-٥٥
﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾	٢٢	١٠٧
﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾	٢٥	٢٦٧
﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ﴾	٤٠	٨٩
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾	٤٨	٩١
﴿تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُتَوَى﴾	٥١	٢٥٧-١٨
{سورة فاطر}		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾	١٥	١١٥-٤٥
﴿يَرْجُونَ تَجْرَةً لَنْ تَبُورَ﴾	٢٩	٢٤٦
﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾	٣٠	٢٤٦
{سورة الصافات}		
﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾	٧٦	٢٧٣
﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾	٩٦	١٤١
﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾	١٠٠	١٥٢
﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾	١١٥	٢٧٤

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾	١٧٣	٢٨٦
{سورة ص}		
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾	٢٦	٢٢٤-١٩١
﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾	٤٧	٨٩
{سورة الزمر}		
﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾	٣	١١١
﴿ أَمَّنْ هُوَ قَلَنْتَ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا ﴾	٩	٢٤٧
﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾	١٤	٢٩٩-١١١
﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ ﴾	٢٢	٤٦
﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾	٣٣	١١١
﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾	٣٦	٢٨٠-٢٠٠
﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾	٣٧	٢٨٠
﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾	٣٨	١٢٢-٩٤-٩٣-٦٥
﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾	٦٢	٢٠٠
{سورة غافر}		
﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾	٣٥	٢١٢
﴿ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾	٤٤	١٧٦
﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ﴾	٥١	٢٨٣
﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ ﴾	٥٧	٩٣
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾	٦٠	٢١٤
{سورة فصلت}		
﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ ﴾	٣٠	١٥٦
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا ﴾	٣٣	٤٦

الآية	رقمها	رقم الصفحة
{سورة الشورى}		
﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾	١٠	١٦٣-٩٤-٦٤
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾	١١	٢٤٢-١٥٩
﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾	١٩	٢٧٠-٢٦٨
﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ﴾	٣٠	١٩٤
﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾	٣٦	١٦٨-١٦٣-١٢٥-٦٥
{سورة الدخان}		
﴿إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ﴾	٧	٢٠٧
{سورة الجاثية}		
﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ءَايَتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٤	٢٠٧
﴿يَسْمَعُ ءَايَتِ اللَّهِ تَتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾	٨	٢١٥
﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا لَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾	٣٢	١٩٠
{سورة الأحقاف}		
﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُلَا الْعَزْمِ﴾	٣٥	٢٩٩
{سورة محمد}		
﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾	١٩	٤٤
﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ﴾	٢١	٢٧٥
{سورة الفتح}		
﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ﴾	٤	٢٣٨-٢٣٢
﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	١٨	٢٣٨-١٨٣
﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾	٢٦	٢٣٨
{سورة الحجرات}		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا﴾	١	٥١

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾	٢	٥١
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ ﴾	٣	٥١
﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ١٤		١٠٩
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ١٥		٢٠٤-١٩٣
{سورة ق}		
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ ﴾	٣٧	١١٠
{سورة الذاريات}		
﴿ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾	٢٠	٢٠٧
﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ قُورَبِ السَّمَاءِ ﴾ ٢٣، ٢٢		٢٠٩-١٧٠
﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾	٥٨	٢٠٩-١٩٩
{سورة الطور}		
﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾	٤٨	٩٧
{سورة النجم}		
﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾	٣٩	١٠٥
{سورة الحديد}		
﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ ﴾	١٤	٢١٩
﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ ﴾	١٦	١١٢
﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾	٢٢	١٤١
﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾	٢٣	٣٠٤
﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ٢٥		٢٦٧
{سورة المجادلة}		
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾	٧	١٠٥
﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾	١٠	٤٢-٣٨
﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾	١٨	٢٠٢

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾	٢١	٢٦٧-٢٦٢
{سورة الحشر}		
﴿كَفَىٰ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا		
ءَاتَلَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه﴾	٧	٥٠
﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾	٨	١٨
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾	١٨	٢٩٤-٢٢٠
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾	١٩	٢٢٠
{سورة الممتحنة}		
﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾	٤	٧٩-٦٣-٢٧
{سورة الجمعة}		
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا﴾	١٠	٢٢
{سورة التغابن}		
﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾	١٢	١٠٦
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾	١٣	١٨٧-١٠٦-٤٢-٣٨
{سورة الطلاق}		
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ		
حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ﴾	٣، ٢	١٨٦-١٦٩-١٤٦-٨٨-٢٩
		٢٩٦-٢٧٨-٢٥١-٢٣١
{سورة الملك}		
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا﴾	١٥	١٢٧
﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾	٢٩	١٩٧-١٦٢-١٥٣-١١٣-١٠٤-٢٨
{سورة القلم}		
﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾	٤	٩٥
{سورة المزمل}		
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾	٩	٢٧

الآية	رقمها	رقم الصفحة
{سورة المدثر}		
﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا﴾	٣١	١٢١
{سورة التكويد}		
﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾	٢٩	١٤٤
{سورة الانفطار}		
﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ﴾	٦	١٩١
﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾	١٣	٢٩٦
{سورة المطففين}		
﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾	٢٦	٥٢
{سورة التين}		
﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾	٦	٩٥
{سورة البينة}		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾	٥	١١١
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	٧	٢٥٧
﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾	٨	٢٥٧

فهرس الأحاديث

فهرس الأحاديث الشريفة

رقم الصفحة	طرف الحديث
٣٠١، ١٦٤، ٧٧، ٢٧	- (إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ...)
٩٥	- (أنبئني عن خلق رسول الله ...)
١٠٨	- (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق ...)
١١٧	- (الإيمان بضع وستون شعبة ...)
٧٩	- (ألا وإن في الجسد مضغة ...)
١٩٧	- (إن الله قال : من عاد لي ولياً ...)
٢٣٠	- (ألا أخبركم بأهل الجنة ...)
٢٤٤	- (أكمل المؤمنين ...)
٢٤	- (أن النبي دخل على شاب وهو في الموت ...)
٢٩٣	- (ألا أعلمك كلمات تقولينهن ...)
٢٦	- (أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره ...)
٢٠	- (إذا أتيت مضجعتك ...)
٣٠	- (أنه لقي ناساً من أهل اليمن ...)
١٣٧	- (إن خير الكسب كسب يدى عامل ...)
١٣٦	- (إن النبي نزل منزلاً وتفرق الناس ...)
١٥١	- (إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة ...)
١٥٥	- (أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير ...)
١٥٧	- (أنه ﷺ إذا اشتكى نفث ...)
١٥٨	- (أن النبي بعث أبي بن كعب طبيباً ...)
١٨٥	- (أنا عند ظن عبدي ...)
٢١٥	- (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ...)
٣٢٣-١٨	- (إن الدين يسر ولن يشاد ...)
٢٤٠	- (بل انتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر ...)

رقم الصفحة

طرف الحديث

- (سمعت رسول الله وهو على المنبر يقول: وأعدوا لهم...) ٣٢٢
- (عجبا لأمر المؤمن ...) ٢٧٤-٣٢٣
- (دعوات المكروه، اللهم رحمتك ...) ٢٩٤
- (قل لي في الإسلام قولا ...) ٥٧
- (قل ربي الله ثم استقم ...) ٢٢
- (القلوب أوعية وبعضها أوعى ...) ٢٨
- (كان إخوان على عهد النبي ...) ٢٨
- (كان النبي يدعو ربي اغفر خطيئتي ...) ٢١٧
- (لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ...) ١٦١، ٩٦، ٤١
- (لا يؤمن أحدكم ...) ١١٧
- (لا إله إلا الله وحده، أعز جنده ...) ٢٨٥
- (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ...) ٢٨٨
- (لو أن أحدهم نظر تحت قدميه ...) ٣٢٠
- (لم يكن رسول الله يدعو هؤلاء الدعوات ...) ١٦٤
- (لا يدخل الجنة من كان في قلبه ...) ٢٢٦
- (اللهم أسلمت وجهي ...) ١٤٦، ٢٩
- (المؤمن القوى خير وأحب ...) ١٩
- (ما أنزل الله من داء ...) ١٥٧-٣٠
- (ما السماوات السبع في الكرسي ...) ١٧٠
- (وما أحب أن أكتوى ...) ١٥٨
- (يا رسول الله اعقلها ...) ١٥٦-٣٢
- (يامعاذ أتدري ما حق الله على العباد ...) ١٣
- (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا ...) ١٩٤
- (يا غلام إني أعلمك كلمات ...) ٣٠٣، ٢٦٧، ١٨

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

رقم الصفحة

العلم

٤٧	١- الإمام أحمد
٤٧	٢- أبو تراب النخشي
٢٦٦	٣- أبو ثعلبة الخشني
٩	٤- أبو سعيد الخراز
٢٢٦	٥- ابن أمية الشعباني
٢٥٤	٦- ابن أبي الدنيا
٢٣٩-١٢	٧- ابن تيمية
١٠٤	٨- ابن الجوزي
١٠٢	٩- ابن رجب الحنبلي
٢٠٢، ٤٧	١٠- ابن قيم الجوزية
٢٨٠	١١- ابن كثير
١٠٤	١٢- حاتم الأصم
٢٥٤	١٣- الحسن الحراني
٤٨	١٤- سفيان الثقي
١٩٥	١٥- سليمان الخواص
٩	١٦- سهل التستري
١٧٩	١٧- الإمام الطبري
١٥٣	١٨- طاووس
٢٢٧	١٩- عبدالله بن المبارك
١٥٣	٢٠- عطاء بن أبي رباح
٤٧	٢١- الإمام الغزالي
٢٥٤	٢٢- الفضل الغطفاني
٢٤٣	٢٣- قتادة



فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

(أ)

- ١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبي سعيد الشيرازي البضاوي، دار الجيل، بدون تط.
- ٢- الإيمان وأثره في حياة الإنسان، حسن الترابي، بيروت. دار القلم، تط الأولى، ١٣٩٤هـ.
- ٣- الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، القاهرة، مكتبة وهبه، تط الخامسة، ١٣٩٧هـ.
- ٤- إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي. القاهرة، دار الشعب، كتاب الشعب، بدون تط.
- ٥- اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، تحقيق ناصر الدين الألباني. الكويت، دار الأرقم، بدون تط.
- ٦- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الجكني الشنقيطي. بيروت، عالم الكتب، بدون تط.
- ٧- آداب النفوس، لعبدالله الحارث المحاسبي، دراسة وتحقيق عبدالقادر عطا. بيروت، دار الجيل، تط ١٩٨٤م.
- ٨- الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد الزبيدي. بيروت، دار الكتاب العربي، تط الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٩- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود. بيروت، دار الفكر، بدون تط.
- ١٠- الأساس في التفسير، لسعيد حوى، القاهرة، دار السلام، تط الثانية ١٤٠٩هـ.
- ١١- أيسر التفاسير، وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير، أبوبكر الجزائري، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، تط الثالثة ١٤١٨هـ.
- ١٢- أدب الدنيا والدين، للماوردي، تحقيق مصطفى السقا، بيروت، تط ١٩٧٨م.

- ١٣- الإمام الشافعي فقه السنة الأكبر، لعبدالغني الدقر، دمشق، دار القلم، تط ١٣٩٦هـ.
- ١٤- الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، القاهرة، مؤسسة قرطبة، تط ١٩٨٧م.
- ١٥- الأشباه والنظائر، للسيوطي، دار الحديث، بدون د، ت.
- ١٦- الأعلام، للزركلي، بيروت، دار العلم للملايين .
- (ب)
- ١٧- البداية والنهاية، لابن كثير، بيروت، مكتبة المعارف، تط ١٩٧٩م .
- ١٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي، بيروت، المكتبة العلمية المطبوعة من مطبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي بالقاهرة، تط ١٣٨٣هـ.
- ١٩- بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزية، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تط.
- ٢٠- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، بيروت، دار الفكر، تط الثانية ١٣٩٨هـ.
- ٢١- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد الشوكاني، مصر، مطبعة السعادة، تط الأولى، ١٣٤٨هـ.
- (ت)
- ٢٢- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، كتب هوامشه، وضبطه حسين زهران، بيروت، دار الفكر، تط ١٤٠٨هـ.
- ٢٣- تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي، بيروت، دار الفكر، بدون تط.
- ٢٤- تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، العراقي، وابن السبكي، والزبيدي.
- إخراج: أبي عبدالله محمود الحداد، الرياض، دار العاصمة، تط ١٩٨٧م.
- ٢٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، حققه وضبطه وصححه: محمد النجار، بيروت، عالم الكتب، تط الثانية ١٤١٤هـ.
- ٢٦- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، ضبط ومراجعة صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، تط الأولى ١٤١٥هـ.
- ٢٧- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية، تط ١٩٨٤م.

- ٢٨- تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، بيروت، دار الفكر، تط الثانية بدون.
- ٢٩- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، المنذري، تحقيق مصطفى عمار، بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٦هـ.
- ٣٠- التعريفات، للجرجاني، حققه إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، تط الرابعة، ١٤١٨هـ.
- ٣١- تركية النفوس وتربيتها كما يقررها علماء السلف، ابن رجب الحنبلي، ابن القيم، أبي حامد الغزالي، تحقيق ماجد بن أبي الليل، بيروت، دار القلم، تط الأولى ١٤٠٥هـ.
- ٣٢- تنبيه الغافلين وبهامشه بستان العارفين، لنصر بن محمد السمرقندي، بيروت، دار المعرفة للطباعة بدون تط.
- ٣٣- التلخيص، للذهبي، بيروت، دار المعرفة بدون تط.
- ٣٤- التفسير المنير في العقيدة والشرعية والمنهج، لوهبه الزحيلي، بيروت، دار الفكر المعاصر؛ ودمشق، دار الفكر، تط الأولى ١٤١١هـ.
- ٣٥- التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي، بيروت، دار الكتاب العربي، تط الرابعة، ١٤٠٣هـ.
- ٣٦- التوكل على الله، لابن أبي الدنيا، تحقيق مجدي إبراهيم، القاهرة، مكتبة القرآن، بدون تط.
- ٣٧- التوقيف على مهمات التعاريف، للحناوي، حققه عبدالحميد حمدان، القاهرة، تط ١٤١٠هـ، بدون د.
- ٣٨- تذكرة الحفاظ، للذهبي، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تط، د.
- ٣٩- تهذيب سيرة ابن هشام، لعبد السلام هارون، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، تط ١٩٦٤م، بدون.
- ٤٠- تيسير العزيز الحميد، شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبدالله، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، بدون ت.
- (ج)
- ٤١- جامع البيان عن تأويل أي القرآن، لابن جرير الطبري، هذبه وحققه وضبطه وعلق عليه الدكتور/بشار معروف - عصام الحرساني، بيروت، مؤسسة الرسالة، تط الأولى ١٤١٥هـ.

- ٤٢- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، السيوطي، دار الفكر، بيروت، تط ١٤٠١هـ.
- ٤٣- جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، ويوسف الشيخ، بيروت، دار الفكر، تط ١٤٠٣هـ.
- ٤٤- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، المدينة المنورة، مكتبة طيبة، تط الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٤٥- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق أبو اسحاق، طفيش بدون د، ت.
- ٤٦- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار الفتاح، تط ١٩٧٨م.
- ٤٧- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، بدون د، ت.
- (ح)
- ٤٨- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم الأصبهاني، بيروت، دار الكتاب العربي، تط الثانية ١٣٨٧هـ.
- ٤٩- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن قيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٩٨٣م.
- ٥٠- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، لعبد الرحمن السعدي.
- (د)
- ٥١- ديوان الشافعي، للشافعي، جمعه وعلق عليه محمد الزعبي، بيروت، دار الجيل، تط الثالثة ١٣٩٢هـ.
- ٥٢- الدر المنثور في التفسير المأثور، للسيوطي، بيروت، دار الفكر، تط الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ٥٣- الداء والدواء، لابن قيم الجوزية، تقديم محمد غازي، جده، دار المدني، تط ١٤٠٣هـ.
- ٥٤- دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، بيروت، مؤسسة الرسالة ودار النفائس، تط ١٤٠٦هـ.
- ٥٥- دليل الفالحين، شرح رياض الصالحين، محمد الأشعري المالكي، مصر، مطابع مكتبة الحلبي.

(ذ)

- ٥٦- ذم الهوى، لابن الجوزي، تحقيق مصطفى عبدالواحد، مراجعة محمد الغزالي، القاهرة، دار الكتب الحديثة، تط ١٣٨١هـ.
- ٥٧- ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، بيروت، دار المعرفة.

(ر)

- ٥٨- الروح، لابن القيم، الرياض، دار الرشد بدون د، ت.
- ٥٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تط الرابعة ١٤٠٥هـ.
- ٦٠- رياض الصالحين، للنووي، تحقيق عبدالعزيز رباح، والدقاق، راجعه: شعيب الأرناؤوط، دار المأمون للتراث، بدون تط.

(ز)

- ٦١- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، بيروت، المكتب الإسلامي، تط الثالثة ١٤٠٤هـ.

(س)

- ٦٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، تط ٥، ١٤٠٥هـ.
- ٦٣- سنن أبي داود، مراجعة وضبط وتحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، بدون ت.
- ٦٤- سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق عبدالرحمن عثمان، ط ثانية، دار الفكر ١٩٦٤م.
- ٦٥- سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث، تط ١٣٩٥هـ.
- ٦٦- سير أعلام النبلاء، للذهبي، بيروت، مؤسسة الرسالة.

(ش)

- ٦٧- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، ومعه التوضيح بقلم زهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، تط ١٤٠٣هـ.

- ٦٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بدون د، ت، مطبعة القدسي، تط ١٣٥٠هـ.
- ٦٩- شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق البسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٩٩٠ م.
- ٧٠- شرح السنة، للبغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وزهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، تط ١٤٠٠هـ.
- (ص)
- ٧١- صفة الصفوة، لأبوالفرج ابن الجوزي، حيدر آباد، الدكن، دائرة المعارف العثمانية، تط ١٣٩٢هـ.
- ٧٢- صيد الخاطر، لابن الجوزي، حققه علي الطنطاوي وناجي طنطاوي، سوريا، دار الفكر، تط ١٤٠٧هـ.
- ٧٣- صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري، طبعة فريدة مصححة مرقمة مرتبة حسب المعجم المفهرس، الرياض، دار السلام، تط ١٤١٧هـ، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بدون تط.
- ٧٤- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق وتصحيح وترقيم وأعد وعلق عليه: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، بدون تط.
- (ط)
- ٧٥- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية، الرياض، المطابع الإسلامية.
- ٧٦- طبقات الصوفية، محمد السلمي، مصر، مطبعة دار التأليف.
- (ع)
- ٧٧- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، الحسين الحلبي أحمد بن يوسف، تحقيق: محمد باسل، بيروت، دار الكتب العلمية، تط الأولى ١٤١٧هـ.
- ٧٨- العبودية، ابن تيمية، بيروت، المكتب الإسلامي، تط ١٣٩٩هـ.
- ٧٩- علم الأخلاق الإسلامية، مقداد بالحسين، الرياض، دار عالم الكتب، تط الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٨٠- العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي، بيروت، دار الإرشاد للطباعة، بدون تط.

(ف)

- ٨١- في ظل الشريعة الإسلامية، تحقق الأمن والحياة الكريمة، لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، الرياض، دار إمام الدعوة، تط ١٤١هـ.
- ٨١- في ظلال القرآن، سيد قطب، جدة، دار العلم للطباعة، تط ١٢، ١٤٠٦هـ.
- ٨٣- الفوائد، ابن قيم، تخريج وحواشي أحمد راتب عرموش، بيروت، دار النفائس، تط ١٤٠٦هـ.
- ٨٤- فتح القدير بين فني الرواية والدراسة في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، بيروت، دار الفكر، تط ١٤٠٣هـ.
- ٨٥- فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر، حققه ابن باز، رقم أحاديثه ورتبه محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الكتب العلمية.

(ق)

- ٨٦- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، بيروت، مؤسسة الرسالة، تط ١٤١٣هـ.

(ك)

- ٨٧- كتاب التوحيد من سلسلة إحياء علوم الدين للغزالي، تحقيق وتهذيب زهير الكلي، بيروت، دار الفكر.
- ٨٨- كتاب التوحيد وإخلاص العمل لوجه الله مع مقدمة عن قضية الدين والفلسفة، تحقيق وتقديم الدكتور محمد الجليبي، تط الثانية ١٣٩٩هـ، بدون د.
- ٨٩- كتاب التوحيد، لابن رجب الحنبلي، تحقيق صبري شاهين، الرياض، دار القاسم، تط الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٩٠- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق الفردية، للكفوي أبي البقاء، قابله على نسخة خطية، عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، تط الأولى ١٤١٢هـ.

(ل)

- ٩١- لسان العرب، لابن منظور، بيروت، دار المعارف، بدون تط، بيروت، دار صادر، تط الثالثة، ١٤١٤هـ.
- ٩٢- لباب التأويل في معاني التنزيل، وبهامشه تفسير البغوي، لعلاء الدين علي ابن محمد الخازن، بيروت، دار الفكر، تط ١٣٩٩هـ.

(م)

- ٩٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٨هـ.
- ٩٤- مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي، علق عليه شعيب وعبدالقادر الأرناؤود، دمشق، بيروت، دار البيان، تط ١٣٩٨هـ.
- ٩٥- مفاتيح الغيب، للإمام الرازي، بيروت، دار الفكر، بدون ت.
- ٩٦- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، بيروت، دار الفكر، بدون تط.
- ٩٧- مجلة الحرس الوطني، أحمد الجنيدل، (التوكل على الله ودعوى القعود والكسب)، عدد ١٢٢، ربيع الأول ١٤١٤هـ.
- ٩٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، تحقيق: المجلس العلمي، المغرب، فاس بدون تط.
- ٩٩- موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، علي الهيثمي، بيروت، دار البشائر الإسلامية، تط ١٤٠٧هـ.
- ١٠٠- معجم مفردات ألفاظ القرآن، للأصفهاني.
- ١٠١- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، الهند، حيدر آباد، الدكن.
- ١٠٢- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، بيروت، دار المعرفة.
- ١٠٣- مفتاح السعادة ومصباح الزيادة في موضوعات العلوم، أحمد مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، بيروت، دار الكتب العلمية، تط الأولى ١٤٠٥هـ.
- ١٠٤- معالم التنزيل في التفسير والتأويل، أبي محمد الحسين البغوي، بيروت، دار الفكر، تط ١٤٠٥هـ.
- ١٠٥- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، بيروت، دار الشروق، بدون ت.
- ١٠٦- منهج القرآن في التربية، لمحمد شديد، بيروت، مؤسسة الرسالة بدون ت.
- ١٠٧- مجموع الفتاوى، لأحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، تط الأولى ١٣٩٨هـ، بدون د.
- ١٠٨- مجلة المختار الإسلامي، سيد قطب، (حديث الشهيد سيد قطب وعلى إبراهيم يتوكلون)، القاهرة ٦٠٧ (١٩٧٩م).

- ١٠٩- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، دقق وخرج وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، تط ١٣٩٨هـ.
- ١١٠- مسند الإمام أحمد، شرحه ووضع فهارسه، أحمد شاکر، غير مكمل.
- ١١١- المستخلص في تركية النفس، سعيد حوى، بيروت، دار عمار، بدون تط.
- ١١٢- معارج القبول، الحكمي، بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٣هـ.
- ١١٣- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد الفيومي، بيروت، دار الكتب العلمية، مصر، مطبعة الحلبي.
- ١١٤- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الغزالي أبي حامد، قبرص، تط ١٤٠٧هـ، بدون د.
- ١١٥- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، تط ١٩٦٩م، بدون د.
- ١١٦- محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا، بيروت، دار الكتب العلمية.
- (و)
- ١١٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان، لابن خلكان، بيروت، بدون د، ت.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
١- المقدمة	١
٢- التمهيد :	٨
- المطلب الأول: تعريف التوكل والتوكل لغة واصطلاحاً	٨
- المطلب الثاني: موارد التوكل في القرآن وبيان المراد والمقصود منه	١٤
- المطلب الثالث: الفرق بين التوكل والتوكل	٣٠
- المطلب الرابع: فضل التوكل على الله	٣٢
- المطلب الخامس: التوكل وآثاره السلبية على الفرد والمجتمع	٣٩
٣- الفصل الأول : التوكل على الله وعلاقته بالإيمان بالله	٤٤
التمهيد :	٤٥
- المبحث الأول : التوكل على الله جزء من عقيدة المؤمن	٥٣
- المبحث الثاني : التوكل على الله في أعمال القلوب	٧٧
- المبحث الثالث : أحوال المتوكلين	٨٨
٤- الفصل الثاني: التوكل على الله وعلاقته بالجانب الأخلاقي	٩٢
- التمهيد	٩٤
- المبحث الأول : التوكل على الله من أخلاق الأنبياء	٩٧
- المبحث الثاني : التوكل على الله من أخلاق المؤمنين	١١٧
٥- الفصل الثالث: التوكل على الله وعلاقته بالأسباب	١٢٨
- التمهيد	١٢٩
- المبحث الأول : أركان التوكل على الله	١٣١
- المبحث الثاني : التوكل على الله من أسباب النصر	١٤٠
- المبحث الثالث : القدرة والمشينة والأسباب	١٤٧
- المبحث الرابع : الأعمال التي يعملها العباد في تحقيق التوكل	١٥٥
- المبحث الخامس : مجال التوكل على الله	١٥٧

الموضوع	رقم الصفحة
٦- الفصل الرابع : بواعث التوكل على الله تعالى.....	١٦٧
- التمهيد.....	١٦٨
- المبحث الأول: رسوخ معانى أسماء الله الحسنى وصفاته فى النفس.....	١٦٩
- المبحث الثانى: حسن ظن المؤمن بربه واعتماده عليه.....	١٧٩
- المبحث الثالث: استسلام العبد وطمأنينته وافتقاره لله سبحانه وتعالى....	١٨٧
- المبحث الرابع : حسن جزاء المتوكلين.....	١٩٤
٧- الفصل الخامس: موانع التوكل على الله	٢٠٢
- التمهيد.....	٢٠٣
- المبحث الأول : الجهل بأسماء الله وصفاته سبحانه.....	٢٠٧
- المبحث الثانى : ضعف اليقين بالله تعالى	٢١٨
- المبحث الثالث : التكبر على آيات الله.....	٢٢٥
- المبحث الرابع : الغرور والعجب بالنفس.....	٢٣١
- المبحث الخامس : الهوى والشهوات.....	١٣٧
٨- الفصل السادس : ثمرات التوكل على الله.....	٢٤٣
- التمهيد.....	٢٤٤
- المبحث الأول : تحقيق الإيمان	٢٤٦
- المبحث الثانى : السكينة والثبات	٢٤٨
- المبحث الثالث : الأمل والرجاء	٢٥٨
- المبحث الرابع : محبة الله تعالى ودخول الجنة بغير حساب	٢٦٩
- المبحث الخامس : الرضاء والصبر	٢٧١
- المبحث السادس : العزة والقوة.....	٢٨١
- المبحث السابع : يقي من تسلط الشيطان والسحر والحسد والعين	٢٩٠
- المبحث الثامن : كشف الهم والكرب	٢٩٢
- المبحث التاسع : يورث الرزق ويجلب المنافع ويدفع المضار	٢٩٨

الموضوع رقم الصفحة

- المبحث العاشر : الدخول في كنف وكنياية الله تعالى ٣٠٠
- المبحث الحادي عشر: الفوز والغلبة..... ٣٠٦
- الثاني عشر : التسليم للقضاء والقدر ٣١١
- ٩- الفصل السابع : التوكل على الله وأثره في تركية الفرد والمجتمع ٣١٧
- التمهيد..... ٣١٨
- المبحث الأول: أثر التوكل على الله في تركية الفرد ٣٢١
- المبحث الثاني: اثر التوكل على الله في تركية الفرد والمجتمع ٣٣٠
- ١٠- الخاتمة..... ٣٣٤
- الفهارس : ٣٣٧
- ١- فهرس الآيات القرآنية..... ٣٣٩
- ٢- فهرس الأحاديث ٣٥٦
- ٣- فهرس الأعلام..... ٣٥٩
- ٤- فهرس المصادر والمراجع ٣٦١
- ٥- فهرس الموضوعات..... ٣٧١

٣٩٧٧